العظمة والتعظيم لمقام المقتفين

تأليف: توفيق بن خلف الرفاعي

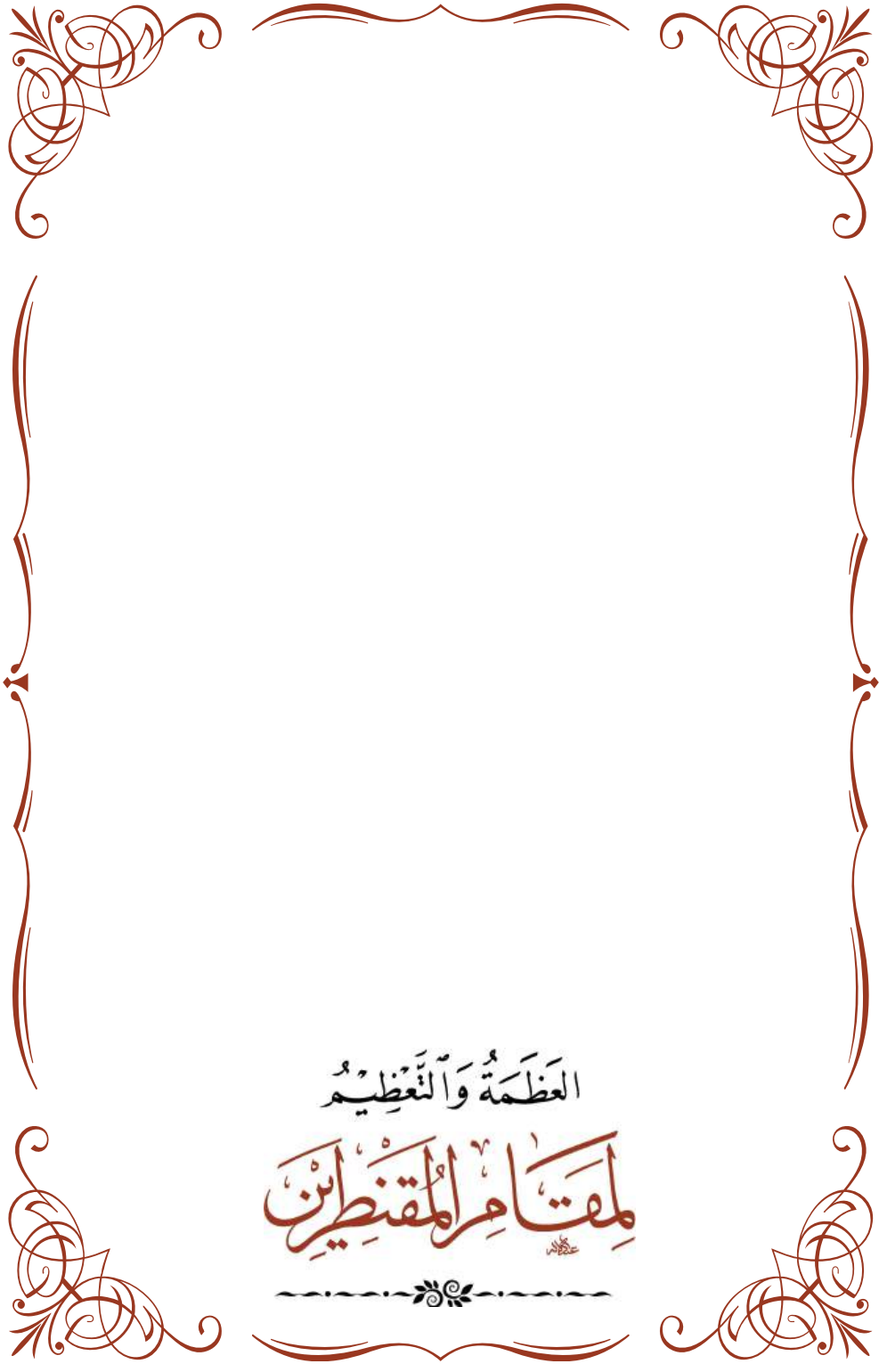

العَظَمَةُ وَالتَّعْظِيمُ

لِمَقَامِ المُقَنْطِرِينَ

اسـم الكتاب: العظمة والتعظيم لمقام المقنطرين.
المؤلـــــف: توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي.

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

الصف والتصميم والإخراج:

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

حولي- شارع المثنى- مجمع البدري
الدور الأرضي- محل ٢٩
هاتف: ٩٦٥٦٠٠٨٢٧٠٤ +

العَظَمَةُ وَٱلتَّعظِيمُ

لِمَقَامِ المُقْتَطِرِينَ ﷺ

تَأْلِيفُ

توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

موضوع الكتاب: حديث المقنطرين:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ**»(١).

تخريج الحديث وذكر درجته:

أخرجه ابن خزيمة في (صحيحه) (٢ / ٣١٨) برقم: (١١٤٤) (كتاب الصلاة، باب فضل قراءة ألف آية في ليلة إن صح الخبر فإني لا أعرف أبا سوية بعدالة ولا جرح) (بهذا اللفظ)، وابن حبان في (صحيحه) (٦ / ٣١٠) برقم: (٢٥٧٢) (كتاب الصلاة، ذكر نفي الغفلة عمن قام الليل بعشر آيات مع كتبة من قام بمائة آية من القانتين ومن قامها بألف من المقنطرين) (بمثله)، وأبو داود في (سننه) (١ / ٥٢٨) برقم: (١٣٩٨) (كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن) (بمثله)، والطبراني في (الكبير) (١٤ / ١٠٩) برقم: (١٤٧٢٧) (باب العين، ابن حجيرة) (بمثله).

فهذا الحديث روي من طريق ابن حجيرة عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وله شواهد من حديث تميم بن أوس الداري، وحديث فضالة بن عبيد بن نافذ الأوسي، وحديث عبد الله بن عمر بن الخطاب، وحديث عبد الله بن مسعود، وحديث أبي الدرداء، وحديث كعب الأحبار، وحديث أبي أمامة الباهلي، وحديث أبي سعيد الخدري، وحديث الحسن البصري، وحديث أبي هريرة الدوسي، وحديث معاذ بن

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان (٢٠٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

جبل، وحديث عبادة بن الصامت، وحديث جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري.

وأورده ابن حجر في (المطالب العالية) (١٤ / ٢٩٩) برقم: (٣٤٧٢ / ١)، (١٤ / ٣٠٠) برقم: (٣٤٧٢ ٢، ٣)، (١٤ / ٣٠٠) برقم: (٣٤٧٢ / ٤)، (١٤ / ٣٠٠) برقم: (٣٤٧٢ / ٥)، وأخرجه عبد بن حميد في (المنتخب من مسنده) (١ / ٩٨) برقم: (٢٠٠).

عبيد بن سوية بن أبي سوية، أبو سوية، ويقال: أبو سويد، الأنصاري مولاهم، المصري، ت ١٣٥هـ، من الثالثة، قال عنه الحافظ ابن حجر: صدوق.

ولما ذكره ابن حبان في كتاب (الثقات) سماه: عبيد بن سويد، وقال: وقد وهم مَن قال: ابن سوية، وخرج حديثه في صحيحه

إكمال تهذيب الكمال: (٩ / ٩٢)، وقال ابن حبان في (الثقات): عبيد بن سويد أبو سويد، قال: ومَن قال: أبو سوية فقد وهم.

وقد وَهَّمَهُ الحافظ ابن حجر في هذا التفريق فهما واحد، ينظر تهذيب التهذيب: (٣ / ٣٧).

وقال عنه الحافظ: صدوق، من الثالثة، تقريب التهذيب: (١ / ٦٥٠).

وحديث سبيعة الأسلمية مرسل، تهذيب التهذيب: (٣ / ٣٧)، وروايته هنا ليست عن سبيعة مع أنه قد سمع منها.

قال ابن ماكولا: كان فاضلا، تهذيب التهذيب: (٣ / ٣٧)، **قال أبو نصر وابن ماكولا: كان فاضلًا، تهذيب الكمال: (١٩ / ٢١٣).**

وصحح الحاكم حديثه في (المستدرك)، إكمال تهذيب الكمال: (٩ / ٩٢).

وقول ابن خزيمة: إنه لا يعرف فيه جرحًا ولا تعديلًا لا ينفي أن غيره عرفه ووثَّقه كالحافظ والحاكم وغيرهما، ومَن علم حجة على مَن لم يعلم.

وعلى فرض أنه لم يوثقه أحد فإن للحديث شواهد من طرق أخرى، والله أعلم.

المقدمة: لماذا العظمة عنوانًا؟

هنا ليس إلا العظمة .. لا عنوان إلا العظمة .. انبثق نور العظمة - في قلبي أساسًا - من قول ربنا العلي العظيم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، فالله ـ سبحانه ـ هو [العظيم]، واسم كتاب الله [القرآن العظيم] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، وآية الكرسي هي أعظم آية في القرآن العظيم؛ وقد قال الله ﷻ عن نفسه في آخرها: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، أَبَا الْمُنْذِرِ**»[(١)] .. وهل سميت أعظم آية في كتاب الله تعالى إلا لأنها تحمل اسم الله [العظيم]، كما هي العادة في تسمية السور ببعض ما ورد فيها، مع ما في آية الكرسي من العظمة بأسماء الله الحسنى وبما شاء الله.

فإذا انتبهت في هذه الآية إلى اسم الله ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ ـ سبحانه ـ فاذكر أن من أسماء القرآن ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ فقال الله ـ سبحانه : ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وإذا ذكرت أن من أسماء الله [الحكيم] فاذكر أن من أسماء القرآن [الحكيم]؛ فقال ـ سبحانه: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [سورة يس]، وإذا ذكرت أن من أسماء الله الحسنى [المجيد]؛ لقوله ـ سبحانه : ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]، فاذكر أن من أسماء القرآن [المجيد]؛ فقال ـ سبحانه ـ عن كتابه: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وإذا ذكرت أن من أسماء الله الحسنى [الكريم]؛ لقوله ـ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]،

(١) رواه مسلم (٨١٠).

فاذكر أن من أسماء القرآن [الكريم]؛ فقال ـ سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [سورة الواقعة]، وكل أسماء الله حسنى، وما يسمي الله شيئًا بأسمائه الحسنى سواء بسواء إلا لأنه منه ـ سبحانه ـ وكفى المقنطرين عظمة أن تكون عظمتهم من القرآن العظيم ومن عظمة القرآن العظيم ... وكفانا في هذا المبحث أن نعيش بين العظمة والعظمة، ومع العظمة إلى العظمة، فلعلنا نعظم عند ربنا .. ولعلنا جميعًا نعظم في الدنيا والآخرة .. ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

ولقد سلبتني عظمة هذا الحديث العظيم بما فيه، وقبله القرآن العظيم وكل شيء فيه ... حتى اصطبغ العنوان الأول للكتاب بـ: [العظمة]، وهكذا اصطبغت جل عناوين الكتاب الفرعية بـ[العظمة]، والحمد لله رب العالمين.

والنتيجة أنه ما من أحد سيُكتب عند الله من المقنطرين إلا سيكون عند الله عظيمًا، وكفى به مقامًا عظيمًا، وأجرًا كريمًا مبينًا لا حدَّ ولا عدَّ ولا حصر.

الفصل الأول:
العظمة للمقامات الثلاثة

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ**»(١).

أولًا: عظمة المقامات الثلاثة:

إنها ثلاثة مقامات للمسلم وما أعظمها من مقامات، وإلا فالمسكوت عنه هنا هو أن يكون المسلم في موقع ما قبل المقامات الثلاثة وهو موقع [الغافلين]، أما صاحب المقام الأول وهو الأدنى من المقامات الثلاثة: فهو مَن يقوم بعشر آيات، وهذه كافية لئلا يُكتب من الغافلين، وهذا أول مقام، وأما القيام بمائة آية فهي كافية لبلوغه مقام [القانتين]، وهذا هو المقام الثاني، وأما أعظم المقامات وأكبرها وأعلاها، فهو مَن انتهت عنده المقامات، إنه مقام «المُقَنْطِرِينَ»، فإن بلوغ هذا المقام الأعلى والمنتهى الأسنى إنما يكون بقراءة ألف آية، وقد ترك ﷺ للأمة البحث لاكتشاف أسهل الطرق وأسرعها إلى هذا الكنز، في أي أجزاء القرآن، أو أي مجموعةِ سورٍ كريمة، ولما أن كانت الهمم عَلِيَّةً من قبل كان الأمر عندهم سهلًا بتسهيل الله عليهم، بل كانوا يقومون بأكثر من هذا، وكان منهم مَن يقوم بالقرآن كاملًا، ومنهم مَنْ يقسِّم القرآن كله على ثلاث ليال أو أكثر ..

وبهذا يتبين لنا أن مَن أدرك مقام المقنطرين فإنه لا بدَّ وأن يكون قد أدرك المقام الذي قبله؛ فإنه يكون من قبيل تحصيل حاصل، فعندما يبلغ المرء مقام المقنطرين لا

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان (٢٠٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

بد أن يكون قد حفظ عشر آيات وقام بها، فتجاوز بها المقام الأول حتى لو صلَّى ركعة الوتر بـ [أم الكتاب]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، فهذه إحدى عشرة آية، وبهذا فلن يُكتب من الغافلين، ثم لا بد أن يكون قد ارتقى فقام بمائة آية، فكتب من القانتين، فبلغ المقام الثاني، ثم انطلقَ إلى [الألف آية] فبلغها، وقام بها، فكُتب من المقنطرين، فحاز المقام الثالث والثلاثة لزومًا، فلما جاء هذا العصر الذي ضعفت فيه الهمم وقلَّ رجال الليل والتهجد والقنوت .. جاء الله ﷻ بما يُيَسِّر للأمة هذا المقام، ويبلغ بها العروج إليه بطريق جديد .. طريقٍ معبدٍ قريبٍ غير مشتهر؛ ذلك هو أن [الألف آية] موجودة في أسهل جزأين عند الأمة حفظًا، وهما آخر جزأين في ترتيب الأجزاء، [جزء تبارك وجزء عمَّ] إذا ما قُرِئا في الصلاة زائدًا على [الألف آية] بقليل؛ قال الإمام المنذري رحمه الله: من سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] إلى آخر القرآن ألف آية، والله أعلم[(١)].

ويمكن أن يقول قائل: إذن سوف تزيد الآيات مع أم الكتاب على الألف، أقول: فلتزد على الألف فإن الركعة الواحدة تسمى صلاة، ويمكن أن يزيد مَن يقوم بركعات أكثر وأكثر .. فلربما ينسى القارئ آيات، والأمر متعلق هنا بالعدد، فتكون [أم الكتاب] لك عند الزيادة فوق المطلوب منك، وتكون لك جبرًا لنقصك .. وهكذا هي الأم دائمًا وأبدًا .. وهذا ما لم يكن ليتحقق لو لم يَفْرِض الله قراءة أم الكتاب في كل ركعة؛ لأن أقل الصلاة ركعة واحدة، كما هو الشأن في صلاة الوتر، فَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»[(٢)].

أما مَن قال: إن قراءة أم الكتاب فرض، وقراءة [الألف آية] قربة؛ لذا فلا تُحسب أم الكتاب في هذه القربة؟ فإن النبي ﷺ يقول في الحديث القدسي: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى**:

(١) صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٠٧) رقم (٦٣٩).
(٢) رواه مسلم (٣٩٤).

وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»[(١)] ؛ إذن فأحب شيء في هذه [الألف آية] هو السبع المثاني .. وهي آيات أم الكتاب.

ومن المعلوم عند أهل التخصص أن عدّ الآي عِلْم مستقل وله أهله، وأن المصاحف المعتمدة في عدِّ الآي ستة، وأوصلها البعض إلى سبعة، وأن من هذه المصاحف **المصحف الكوفي**، وهو المصحف الكريم المعتمد في العدّ في طبعات مصاحفنا المشتهرة اليوم ..

ومنها المصحف المكي، وهو مصحف معتمد في عدِّ الآي كذلك، وهو الذي اعتمدناه هنا في عدِّ آيات الجزأين الأخيرين؛ وذلك لأن الجزأين الأخيرين فيه يبلغان ألف آية، كما هو مقام المقنطرين بالوفاء والتمام .. بينما عدّ آي الجزأين في المصحف الكوفي يبلغ [٩٩٥] آية، خمسًا وتسعين وتسعمائة آية، وليس في هذا اختلاف مطلقًا في كلام الله ﷻ أبدًا، إنما في عد بعض الآيات؛ فالبعض رواها آية، والبعض رواها آيتين .. وكل ذلك ثابت، شأنها في ذلك شأن الاختلاف ما بين القراءات الثابتة، ولا مشاحة بهذا ولا اختلاف، وقد أثبتنا في الجدول التالي مواضع ذلك في كل سورة؛ بذكر عدد الآي مقابل اسم السورة بالرقم الأخضر.

ومَن أراد عدم اعتماد المصحف المكي في عد الآي واعتماد المصحف الكوفي فلا ضير في ذلك، فإنا لم نحسب في القيام بالصلاة فيها [أم الكتاب]، وهي الأساس، ومَن أراد حسبة السبع المثاني فله ذلك، وسوف تزيد مع القائم في كل ركعة سبع آيات، وهي أعظم الآي في القرآن العظيم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، فهل يعد الله آياتها عدًّا تعظيمًا ويقول: ﴿سَبْعًا﴾، ويجمل آيات القرآن كله في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ تعظيمًا كذلك .. ثم نستطيع ألّا نحسبها - عياذًا بالله رب العالمين - والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

عظمة المقام الأول: قوله ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ**»(١): ليس هذا المقام بالقليل ولا بالصغير، وخصوصًا في زماننا هذا الأخير .. فإن هذا المقام يمثل النقلة العظمى ما بين أن يُكتب العبد عند الله من الغافلين، أو أن يتحول إلى مقام الذاكرين الله ﷻ .. أن يتحول من صحبةٍ هي مطمع الشياطين إلى الأمان والضمان مع الله رب العالمين، أن يخرج من الاستحواذ الشيطاني - عياذًا بالله تعالى - ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩] إلى الذين تحفهم الملائكة، وتغشاهم الرحمة، وتتنزل عليهم السكينة، ويذكرهم الله في مَن عنده.

وليس بعد هذه السهولة من سهولة: حتى لو كانت ركعة وترٍ واحدة لم يقرأ فيها القائم في قيامه بين يدي ربه إلا [أم الكتاب] وأقصر سورة، وليس من سورة أقل من ثلاث آيات، فمجموعها مع أم الكتاب عشر آيات، وأقل الصلاة ركعة واحدة، وبهذا يخرج هذا القائم بركعته الواحدة المباركة هذه من عالم الغافلين، ويبتعد عن الخطر؛ إذ كان في عالم المهيئين لاستحواذ الشياطين - نعوذ بالله منهم - من عالم التخطف إلى النار ... إلى عالم الرحمة، فأم الكتاب سبع آيات، وسورة الكوثر أو سورة العصر، أو سورة النصر؛ فهذه عشر آيات بالوفاء والتمام .. وتم حرمان الشيطان - نعوذ بالله منه - من هذا المكسب الذي طمع في أصحابه طويلًا .. فهل عرفنا الآن كم كانت هذه العشر آيات والقيام بها بين يدي الله ﷻ عملية إنقاذ وعملية نجدة حقيقية .. كم هي نقلة نوعية .. نقلة مصيرية .. وأحسب أنه لو كانت سورة أقل من ثلاث آيات لذكر النبي ﷺ تلك السورة، إلا أن الأقل هو الثلاث آيات للسورة فما أسهلها من نقلة، وما أوسع أبعادها، إنها ركعة، أو خطوة نقلت صاحبها من عالمٍ لعالم.

وإذا أردنا أن نتصور عظمة هذه النقلة العظمى وأهمية هذا المخرج العظيم، وكأنه فُصِّلَ لعصرنا هذا تفصيلًا، فلننظر إلى الكثير الكثير من الشباب في هذا الزمان

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان (٢٠٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

خاصة؛ حيث يمر ليلهُ على المباحات وقد صلى العشاء، ولكنه بعد ذلك مباشرة يأتي إلى الفراش، وربما قبيل صلاة الفجر، ثم ينام مباشرة بغير وضوء، ولا صلاة، ولا وتر .. ومنهم مَن يصل الفجر بالعشاء دون صلاةٍ بينهما رغم السهر المتواصل، ودون صلاة الوتر ... فهؤلاء غافلون وإن صلوا فريضة العشاء جماعة.

أليس هذا حال أكثر أبنائنا في هذا الزمان .. فسبحان الله كأن هذا الحديث لنا نحن أهل هذا الزمان عامة .. وفيه الطريقة العملية لإنقاذ شبابنا خاصة من مستنقع الغفلة .. وظلام الغافلين، وإني لأتدبر هذا الأمر فأعلم علم اليقين أن الرسول ﷺ جاء رحمة للعالمين، ولجميع العصور، ومختلف البلدان؛ والشاهد على هذا هو هذا الحديث .. وكيف جاء بالعلاج العملي لعودة الشباب ليصبحوا من القانتين .. وقبل ذلك ليخرجوا من الغافلين، والخروج من الغافلين ما هو إلا بالمحافظة على عشر آيات، والمداومة عليها بعد العشاء أو قبل النوم كل ليلة ولو بركعة الوتر وحدها .. إنه دواء لِعَجَلَتِنَا على أولادنا ألّا تتعجلوا في نقلتهم .. اقبلوا أيها المربون بهذه الآيات العشر في ركعة الوتر .. مع المداومة عليها واصبروا على ذلك، وصابروا، واصطبروا ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] .. لا تحاولوا أن تقفزوا مرة واحدة إلى مقام المقنطرين .. فمقام المقنطرين بعيد لا يمكن أن يتناولوه بأيديهم الآن ... أخرجوهم أولًا من هذا الموقع الموبوء المحموم قبل أن يُكتبوا من الغافلين، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى القانتين.

ثانيًا: عظمة المقام الثاني: مقام القانتين:

«**كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ**»: حين تقرأ ما كُتب عن القانتين تجد أن تفسيرها في عموم الكتب هو المعنى اللغوي، وهو الطائعون؛ فتمر عليها سريعًا ولا تبالي ...!

لا والله فما هذا هو حقها، ولا هو صدى حقها، ومَنْ ذا الذي يبلغ مقامها ... ويكفي أن يكون عنوان هذا الموقع هو خليل الرحمن عليه السلام .. وكفاه موقعًا، والله ﷻ قد قال - وقوله الحق: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

[النحل: ١٢٠]، وحين تنظر إلى أعلى تجد وأنت تنظر شاهقًا إلى كلمات الله هذه في إبراهيم عليه السلام .. واقفًا متطلعًا إلى سماوات كلمات الله وعظمتها، وهي تقرير رب العالمين عن إبراهيم عليه السلام، ذلك العملاق الشامخ - كما رآه النبي ﷺ - في الجنة، فتعيد النظر لزومًا إلى حياة إبراهيم عليه السلام لتعرف ما الذي بلغ به أن يكون من القانتين، وتعرف كذلك أن الذي بلغ به أن يكون من القانتين هو الذي بلغ به أن يكون [أمة]؛ فالله ﷻ ذكر عن غير إبراهيم عليه السلام القنوت، لكن ما ذكر أنه كان [أمة]، فقال ـ سبحانه ـ عن مريم عليها السلام: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وذكر عن المؤمنين: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال ـ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]؛ فتصل إلى نتيجة هي عظمة مقام القانتين، وأن القانتين درجات وسماوات في علوها إلا أن إبراهيم عليه السلام بلغ الذروة منها ... أما الحديث عن رسول الله ﷺ فهذا ما لا يقاربه أحد مطلقًا، وأنا لا أحب أننا كلما ذكرنا عظمة نبي صغرناها بعظمة رسول الله ﷺ! وليس موضوعنا المقارنة، **فانظر ماذا ذكر الله ﷻ عن فرائد إبراهيم عليه السلام في القرآن العظيم ليبلغ هذا المقام.**

إن إبراهيم عليه السلام هو من واجه أمة الشرك وحيدًا فريدًا بلا نصير حتى من أب يناصره، بل أبوه رأس عداوته .. ولم يبالِ، بل تحوّلَ مع والده إلى ناصح مشفق في أعلى درجات البر والأدب، كما ذكر الله ذلك عنه في سورة مريم، فقال ـ سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ

أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة مريم]، وواجه الشرك بكل ما استطاع ودخل إلى بؤرة الشرك، وحطَّم الأصنام وحده بِمِعْوَلِهِ: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة الصافات].

وهو يفعل ذلك ليس بدافع الانتقام من الأب أو الانتقام من القوم، بل هو من القنوت لله رب العالمين .. أي طاعة لله ـ سبحانه ـ غير مبالٍ بالثمن.

ثم انظر إلى نوع ومقام قنوت إبراهيم عليه السلام حين أراه أن يذبح ولده .. ماذا صنع؟ فقال ـ سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة الصافات]، هل ترى في البشر مَن فعل هذا ؟ وكلُّ حياة إبراهيم عليه السلام سائرة على هذا المنوال وهذا العنوان العظيم.

فلعلنا أدركنا أن القنوت مقامات، وندرك علو مقام القانتين حين نرى أين هو مقام إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام في هذا المقام، ومن بعده يأتي مَن يأتي ..

وممن ذكر الله عز وجل [مريم ابنة عمران] عليها السلام ... مريم العابدة، القائمة، الصائمة، الصادقة، المباركة، المنذورة لبيت الله، المحررة من كل قيد في ذات الله، المتفرغة تفرغًا كاملًا لطاعة الله؛ كما قال الله ـ سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة آل عمران]، هذا هو القنوت لله رب العالمين .. وهذه هي القانتة الأعظم في الأمم السابقة.

تحقق المقامات الثلاثة مرتبط بالقرآن العظيم:

«**وَمَنْ قَامَ**»: وبما أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل كل مقام من المقامات الثلاثة مرتبطًا بالقيام بالقرآن تحديدًا، فإن هذا يعني أن [القنوت] هنا مقام متعلق بالقرآن العظيم خاصة، والصلاة به أفضل، والقيام به في الليل أفضل ما يكون، وشاهد هذا هو أن المقامات الثلاثة متعلقة بعدد معين من الآيات بالقرآن، والقيام به سواء المقام الأدنى، أو مقام القانتين، أو مقام المقنطرين .. وكون هذه المقامات مختصة بالقرآن؛ فإن هذا لا يعني التقليل من هذه المقامات الثلاثة .. فإن المقامات العظمى إن لم

يؤهل لها القرآن فأي شيء غير القرآن يؤهل لها ؟ وشاهد صحة هذا الأمر، وشاهد عظمة مقام [القانتين]، وعظمة مقام المقنطرين أكثر؛ لأنه المقام الأعلى، هو أن الله ـ سبحانه ـ قد بيَّن لرسوله ﷺ كيف يبلغ المقام المحمود؛ فقال ـ سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وليس بعد هذا من دليل، ولم يقل الله ﷻ له: فادعني بالليل، ولا أطل السجود بالليل لأبلغك المقام المحمود .. فهذا مقام لا مثيل له أبدًا .. ولن تبلغه إلا بالتهجد به .. أي بالقرآن وحده؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا فاته حزبه بالليل قضاه بالنهار .. إنه القنوت بالقرآن .. والقنوت بمعنى قراءة القرآن واقفًا قانتًا، ولـمَن كان في حكم الواقف كذلك، وكثيرون منا لم يتصوروا بعد عظمة القيام بالقرآن .. ويظنون أن قيام الليل لأجل السجود فقط، وسيأتي معنا هذا الأمر، ويكفي لبيان عظمة القرآن، وحفظه، والقيام به، وعظيم ما يؤهله إليه، ويبلغ به حديث النبي ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ، لَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجِدَّ مَعَ مَنْ جَدَّ، وَلَا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى**»(١).

إن بيان هذه المقامات الثلاثة أمرها كله عائد للقرآن العظيم، وعظمته .. فكل مقام فيها استقى عظمته من كمية ما استقى من القرآن .. أي من عدد الآيات التي قام بها، فهذا أمر أساسي في فهم هذه الدرجات، فإن الناجين من الغفلة درجات، ونستطيع أن نسميهم [الذاكرين]، فإنه ليس فوق الغافلين إلا الذاكرون، وليس بينهما درجة .. وأول درجاتهم هم مَن يقومون بعشر آيات، فلو قام بالعاديات أو بالقارعة؛ فكل واحدة منها إحدى عشرة آية، بل لو قام بأم الكتاب وسورة النصر لكان مجموعهما عشر آيات .. وإن كنت أميل إلى عدم حسبة أم الكتاب في هذه الحسبة؛ وذلك لأن الله أفردها، فلتبقى مفردة منفردة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ

(١) رواه الحاكم (٢٠٢٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي في التلخيص.

ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، فالله ﷻ أفردها وقدَّمها؛ والله ـ سبحانه ـ عليم بذلك .. وتبقى درجاتهم في تصاعد، ويبقى قلبه متعلقًا في حفظ أي آية زائدة على قاعدة قول أم المؤمنين عائشة ﵂: لكل آية درجة، وبين العشر آيات حتى يبلغ المائة.. فالأعلى في هؤلاء الناجين من درجة الغافلين هو مَن بلغ تسعًا وتسعين آية ... وهذا الرقم مرتبط بأشرف ما ذكر في العدِّ على الإطلاق، وهي أسماء الله الحسنى، ورد في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١)، بالآية المائة يكون قد أتم مقام الناجين من درجة الغافلين، وبها يدخل على مقام القانتين، فلو أقام بسورة الملك [٣١] آية مع سورة القلم [٥٢] آية أصبح عنده ثلاث وثمانون آية، فإذا جعلهما في ركعتين أصبح عنده سبع وتسعون آية؛ وقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولو في ركعة واحدة بلغ مقام القانتين، ومن ذا الذي لم يعتد الإكثار من قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في صلاته؟

وهكذا، فإن إتمام حفظ الآية العاشرة والقيام بها فيه أمران: تمام مقام السلامة من أن يُكتب من الغافلين، وهو المقام الأساس للمقامات كلها، والأمر الثاني: هو أن إتمام الآية العاشرة نفسها إنما هو الشروع في المقام الأول، وهو أول الخروج من قعر الغافلين، إلا أنه سوف يبقى في هذا المقام العظيم بمقدار حفظه والقيام به شيئًا فشيئًا حتى إذا ما أتم المائة آية يكون قد ارتقى إلى أول [مقام القانتين] .. لكن الارتقاء إليه شيء، وكتابته عند الله من القانتين شيء آخر .. ذلك أن وراءه القيام به، ومعايشة ذلك طوال حفظه حتى يبلغ التسعمائة والتسع والتسعين آية، عندها يُكتب فعليًّا عند رب العالمين من القانتين مع الشروع في مقام المقنطرين؛ فالرقم الأول في كل مقام إنما يعني بلوغه، أما الكتابة عند الله أنه من أهله فهذا بقبول الله في المقام المأمول، ثم بإرفاق الحفظ مع القيام به، وفي هذا فائدة عظيمة، وهي أن الرسول ﷺ – في هذا

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦).

الحديث – ما جمع له الإتمام لمقام والابتداء بالمقام القادم في آية واحدة، لا، بل تركه يأخذ حقه ونصيبه من العلم والإيمان من آيات الله تعالى باستمرار المزيد من الحفظ، وبإدامة القيام بما حفظ، حتى يبلغ المقام الذي بعده، فما بين الخروج من الغافلين حتى بلوغ القانتين تسع وتسعون آية، وما بلوغه الآية العاشرة إلا أول الشروع في المقام الجديد؛ فليحافظ على قيامه بالعشر آيات، وليزد عليها، ويقوم بكل جديد يحفظه، ويتعاهد بالليل والنهار .. وهو بكل مزيد لا يزال يحقق بُعدًا من درك الغافلين، ويؤكد أنه في [مقام الذاكرين]، وتمام بلوغه تسعًا وتسعين آية، فإذا قام بالمائة كلها عندها يكون قد شرع في مقام [القانتين] ...

فكم سيعيش هذا الساعي في المقامات أطيب وأعظم عيشة؛ إذ هو في مقامه الأول، إنها الحياة العلية العظيمة مع كلمات الله، فما بين الانتهاء من مقام والابتداء بالذي بعده شرط للبلوغ وإلا فلا .. بل ولا يمكن الوصول إلى المقام الجديد إلا به، ويدلنا على هذا لفظ «قَامَ» الذي أثبته رسول الله ﷺ في كل مقام من المقامات التي ذكرها النبي ﷺ في الحديث .. فبلوغ هذه المقامات ليس مجرد حفظ وتسميع، بل حياة أخرى وسط أجواء كل مقام من المقامات .. وهو إذ يرتقي في حفظه فإنه يرتقي في إيمانه أكثر وأكثر ... ويحيا معايشة إيمانية عقلية عملية، وحتى يبلغ المقام القادم يكون – بإذن الله – حقيقًا به حفظًا وألفة لقيام الليل، وتعاهدًا لكلام الله، وتلذذًا به، وأُلفه لليل مع ربه، وقيامه بين يديه، وألفة القيام هي الجانب العملي الواضح للحفظ والقيام به، كما قال الله ـ سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [سورة المزمل]، فإذا بلغ عند الآية المائة فإنه يكون قد فتح الباب على مقام القانتين، وأدلج فيه، **وهنا تتحول الكمية من الآيات من الآحاد إلى العشرات**، فالآحاد كانت في المقام الأول إلى أن وصل في حفظه، وقيامه الآية العاشرة، وهو سيبقى على الآحاد فترة إلى أن يستقيم سيره، وتتفتح حافظته، وتتسع شيئًا فشيئًا، ويرتقي إيمانه فيرتقي عمله وقيامه، فيزداد طموحه وسعيه، وعندها يخرج

إلى خطوات في الحفظ أوسع وأوسع، فكما كان الخلاص من موقع الغفلة بالآحاد من الآيات حتى بلغ عشرًا فسار بها حتى أتمها بتمام المائة حيث انتقل من الآحاد إلى العشرات إلى أن بلغ مقام [القانتين] .. والآن يجدّ السير أكثر وأكثر في كل الجوانب، وكمية الحفظ هي التي تضبط ذلك كله؛ لئلا يتكل أحد على أمور غير منضبطة، فكانت الأرقام هي الضابط مع ما فيها من ثمرات القيام بها، أما العروج الأعلى إلى المقام الأعلى مقام المقنطرين فقد أصبح العدُّ فيه بالمئات في مقام القانتين، وإلا لن يلج باب [مقام المقنطرين] .. وهذا بعض عظمة [مقام القانتين]، حقًّا إنه واسطة عقد المقامات ..

فإذا وصل إلى الألف فقد شرع في مقام المقنطرين، وهي الذرى في هذا النوع من المقامات العلية، ويبقى المقنطر هنا زمانًا حتى يتعاهد ما أخذ، ويمهر فيه حتى الإحسان في هذا المقام بالقيام، وإن شاء مَن بلغ مقام المقنطرين بعد هذا أن ينطلق إلى حفظ القرآن العظيم كله .. فهذا شيء آخر، وبحر لا منتهى لحده، وأجر لا يمكن عده، والأمر كما قال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهْوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهْوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ**»[1]، ومع هذا فإن الذي أعده الله ﷻ لهذا المرام الجديد هو الرسوخ في المقامات الثلاثة التي هي الأساس، وهي الأصل ... ولذا فلا يمكن لـمَن وصل مقام المقنطرين الانتظار طويلًا حتى يشد رحله إلى العروج إلى المنتهى، وأول درجات العروج الزيادة على الألف بآية واحدة .. وحريٌّ بمَن شد رحله إلى هناك أن يبلغ، وهو أعظم ما يكون استعدادًا، وتلذذًا، واشتياقًا، فلا يمكن لشيء أن يحول بينه وبين غايته .. فاللهم بلغنا.

فلا تنظر عند الابتداء بالعشر آيات فتحفظها، وتقوم بها، وتفارق درك الغافلين .. إلى بُعْد مقام [القانتين] إلى [مقام المقنطرين]؛ مستبعدًا .. حيث تنظر إلى الآية الألف أبدًا، ومستطيلًا الطريق، ولكن انظر إلى نفسك يوم بلغت الآية العاشرة،

(١) رواه البخاري (٤٩٣٧).

وكيف كنت تنظر إلى الآية المائة .. وكنت آنذاك مبتدئًا .. ثم أنت هنا لا تقطع طريقًا، ولكنك ترتقي درجات وفق حسبة واضحة: «**وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ**»(١)، وهذا العرض ينتهي عند الموت، فانظر إليها متشوقًا ليوم التمام .. فإنه لَيَوْمٌ عظيم، ومن ذلك اليوم الذي يصل فيه الحافظ إلى الآية الألف يبتدئ التسجيل في [مقام المقنطرين]، فإن التسجيل هنا لا بد له من الاستدامة على القيام بالألف.

وإلى أنه يبلغ الحافظ [مقام المقنطرين] ولما يبلغ بعد، فإنه ينبغي له أن يحرص على بلوغ مقام القانتين، وأُلفة القيام به، والتلذذ بمعايشته، وهل قليل أن يكتب المرء من القانتين؟ وما أسهل هذا المقام: فمن سورة الزلزلة إلى سورة الناس مائة آية بالوفاء والتمام وزيادة آية، ومن هذا الرقم تكون الانطلاقة، فإنه لا يزال يزداد كل يوم في حفظه، ويزداد في ذات الوقت في قيامه .. والنسبة تصاعدية إلى أعلى وأعلى؛ فالزيادة بالزيادة، فإن الابتداء كان بمقام القانتين، وكان بالآية المائة، ثم الترقي في درجات القانتين متطلعًا إلى كتابة الله له بأنه قد كُتب من [القانتين]، وضابط هذا أن يبلغ الآية التسعمائة والتسعة والتسعين؛ فإنه يكون قد أتمَّ [مقام القانتين]، ويشرع في [مقام المقنطرين] من الآية الألف .. ويستقر فيه، ويُكتب فيه من المقنطرين ما دام قائمًا به .. وليس بعد هذا من مقام مذكورٍ إلا حفظ القرآن كاملًا .. ويشرع في هذا المقام بآية واحدة بعد بلوغ الآية الألف .. وما أعظمه من فخر للعبد، ورفعة عند ربه؛ إذ تطلع إلى ما بعد المقنطرين ولو بآية تشهد له عند ربه، وتربط همته، وتبعثها، ولعل بركتها تصيبه مع الألف قبلها، فينطلق إلى أخذ كتاب الله شيئًا فشيئًا، وكأنه يستدرج النبوة بين جنبيه، إلا أننا هنا نتوقف عند المقنطرين، وما أدراك ما المقنطرون!

وهنا سؤال: في قوله ﷺ: «مَنْ قَامَ»: اختلف العلماء: هل ذِكْرُ القيام شرط لأن تكون صلاة الليل، أم يمكن أن يتحقق مقام المقنطرين بصلاة النهار؟

اختلفوا على قولين: أما القول الأول فهو قول مَن لم يروا ذكر قوله ﷺ: «**قَامَ**»

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٨٠)، وصححه الألباني.

دليلًا كافيًا على اشتراط القيام، والبعض رجح أن قوله ﷺ: «قَامَ» قيد، فلا بد أن يكون بالليل، ولا بد أن يكون قيامًا وتهجدًا؛ وذلك لأن الليل غير النهار، وما في أحدهما ليس في الآخر .. فإن الأصل أن القيام مرتبط بالليل كما قال الله ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، والرسول ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**»(١)، والآيات والأحاديث كثيرة في هذا، والحمد لله رب العالمين، فهذا هو الأصل، والأمر لا يُصْرف عن أصله حتى يرد ما يصرفه.

والأظهر عندي - والله أعلم - أن الأصل هو قيام الليل بـ [الألف آية] ليحقق مرتبة المقنطرين، ولكن ينبغي ألّا يُضَيَّق واسعٌ .. والأصل في دين الله السعة، والأصل في القربات السعة أكثر، ولا يكفي لفظ [من قام] لحصره على قيام الليل، نعم جاء فعل الشرط في قوله: «**مَنْ قَامَ**»، وجاء جواب الشرط بقوله: «**كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ**»؛ وهذا لا خلاف فيه، لكن هل المقصود بـ «**قَامَ**» قيام الليل؟ فهذا هو موضع النزاع حتى وإن كان قد كرره ثلاثًا، ثم إنه قد ورد «**قَامَ**» في النهار من باب القيام في صلاة النهار، وعلى هذا يكون القيام للصلاة ليلًا كما يكون نهارًا .. وهذا ما قد صح عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ: إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»(٢)، وزاد مسلم في روايته: «**وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»(٣).

فالحديث ينص على أن القيام بالقرآن يكون بالنهار كما يكون بالليل، ولهذا فالأمر واسع فليصل به بالليل كاملًا أو بالنهار كاملًا، أو نصفه بالنهار ونصفه بالليل،

(١) رواه مسلم (٦٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥٠٣١).

(٣) رواه مسلم (٧٨٩).

أو يصلي به بعد المغرب، أو بعد العشاء، أو في الثلث الأخير من الليل، وليقرأه قائمًا، أو قاعدًا، أو على جنبه، أو ليقرأه في الابتداء نظرًا من المصحف .. إلى أن يتيسر له حفظه، ويتعود على ذلك، ويكتب له أجره، وكلام الله غلَّاب، وكلام الله يعلو دائمًا وأبدًا .. فَلِمَ يحرم كل هؤلاء، ويصرفون عن هذا الخير كله بما ليس بصارف، وربنا هو الأكرم وهو القائل – عند نزول القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ٣].

الفصل الثاني:
المقام الثالث مقام[المقنطرين]

أسباب تعظيم مقام المقنطرين:

السبب الأول: أُسُّ الحسبة هو [ألف آية]: أليس الأصل والمقياس في عد أجور الصدقات هو الحبة الواحدة مثل التمرة الواحدة .. والذرة الواحدة .. والخطوة الواحدة .. والكلمة الطيبة .. والابتسامة .. والدرهم .. والدينار .. والحرف من القرآن العظيم، فكما يبتدئ حساب الإنفاق بأقل شيء وهو الحبة الواحدة، فإن حساب الأجر يبتدئ بالحسنة الواحدة، ثم تتضاعف الحسنات ... لكن الأمر في هذا الحديث اختلفت فيه قاعدة الحساب اختلافًا عظيمًا.

عجبًا والله عجبًا، فإن العدَّ ابتدأ بـ [الألف آية] في مقام المقنطرين خاصة دون سواهم ... ودونك هذا الابتداء يخبرك عن سرّ عظمة وتعظيم هذا المقام.

إنه المقام الذي ما سمعنا بمثله في المقامات العلية .. وما سمعنا بمثله أبدًا في أثقال الحسنات ...

وكون [الألف آية] هي الأصل وهي بداية حسبة الأجور، فإنها لا تخرجها عن سنة الله في نظام مضاعفة الحسنات، ثم تنطلق المضاعفات والتي تجري على قاعدة: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[(١)]، وعلى قاعدة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]، أو التي تجري على قاعدة حديث المشي إلى المسجد: «**كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً،**

(١) رواه الترمذي (٢٩١٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً»(١)، ونحو ذلك.

فهل يمكن لأحد أن يحسب كم ستكون المضاعفات إذا كان الأصل والأساس هو ألف آية؟

السبب الثاني: قيام بالألف ليوم بألف يوم:

إن هذا المقام العظيم هو عدة لكل خطر عظيم: وهل من يوم أصعب من يوم القيامة وأمرّ منها؟ كما قال النبي ﷺ: «**فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**»(٢).

لذا فإن شعار المؤمن: قيامٌ بألف ليوم بألف وخمسين ألفًا قال الله ﷻ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [سورة المعارج]، تعالى الله أن يذكر الأرقام تخويفًا لمجرد التخويف، وتعالى ـ سبحانه ـ أن يذكر الأرقام إلا لأنها حقيقة كما ذكرها الله ـ سبحانه ـ .. فليعد القادم لهذا اليوم عدته، ويأخذ زاده ودابته .. ويحسبها ما استطاع، فإن مَن يقول لك: طول الطريق ألف كيلو متر، فتأخذ وقودًا لألف كيلو وزيادة قليلًا احتياطًا، أما إذا قيل لك: إن طول الطريق مائة ألف، فهنا العُدة تختلف، والله ﷻ عليم حكيم وهو القائل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩]، والمآب الإعداد المناسب ليوم العودة إلى الله تعالى، فالله ﷻ يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾ [سورة الرحمن]، والله يقول: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، ويقول ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤﴾ [سورة هود]، فكل ما يستطيع المسلم شراءه من السلامة اليوم في كل موقف من مواقف الآخرة يشتريه من فوره الآن .. وكل ما يمكن أن يفك نفسه من الكربات يفكها منه الآن،

---

(١) رواه مسلم (٦٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وكل عتق لنفسه يستطيع أن يعتقها يعتقها ولو بنفسه الآن .. فالمؤمن يعلم ماذا تعني زلة قدم على الصراط، وأحسب أن المؤمن يرى في حفظ [الألف آية] هذه لذلك اليوم وقاية، وسلامة، ونجاة بإذن الله .. وأنه لا يملك الآن إلا أن يَهبَّ من لحظته هذه قائمًا مستغيثًا بالله أن يعينه على حفظ هذه الألف كي يقوم بها في ليالي عمره بين يديه ﷻ .. عسى أن يكون فيها فكاكه وعتقه وخلاصه ذلك اليوم، ويكون فيها سرعة انصرافه من طول ذلك، فجزاء الله من جنس عمل الإنسان .. ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، ولا شك أن الله سيحفظها ويباركها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، فيخفف عنه ذلك اليوم حتى كأنه لم يمر عليه إلا أسعد يوم وأسهل مرور بإكرام الله وحده، إنها ليلة الألف التي قامها العبد مرارًا .. مشفقًا على نفسه من ذلك الهول العظيم، فنفعته تلك الليلة ذلك اليوم العظيم، وذلك بشهادة أهل الجنة الذين وصلوا ودخلوا وقعدوا يتذاكرون .. فإذا بالذي أوصلهم لهذا المكان إنما كان القيام بإشفاق من هذا اليوم، فسجل الله ﷻ شهادتهم رسالة لـمَن أراد الوصول إلى ما وصلوا إليه؛ فقال ـ سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [سورة الطور] – إنها الكفالة لعبور ذلك اليوم بسلام وأمان وسعادة من أرض المحشر حتى دخول الجنان، وقد قال الله ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الإنسان]، فسبحان الله كيف دلَّ الله العباد على ما يخفف ذلك اليوم الثقيل بكرباته وأحداثه ومفاجآته .. الثقيل بطوله العظيم حيث لا يرى مَن حضرهُ إلا أنه لا نهاية ولا لشمسه غروب، فقال ـ سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ

هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾، فسبحان الله؛ فلولا أن قيام الليل يقي ثقل اليوم الثقيل ما دلَّ عليه المؤمنين وهو أرحم بهم من أنفسهم، وما جاء الله بذكره إلا وقاية من ذلك اليوم، ولولا أنه وقاية ما قدَّم القيام أولًا كما يقدِّم المحارب الصادق عدته قبل الحرب، وقد قال الله ـ سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقال ـ سبحانه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الإنسان].

فهنا وقبل أن يذكر ربنا ﷻ صعوبة ذلك اليوم الثقيل بادر الله ﷻ رسوله ﷺ بما يدرأ مخاطره؛ فقال له ـ سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٦] ثم قال له بعدها مباشرة: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان:٢٧].

السبب الثالث: العظمة بأنها ألف آية شكرًا لنعمٍ لا تُحصى:

ماذا يعني حفظ ألف آية عن ظهر قلب: فـ[الألف آية] عدد معروف، وهكذا تأتي الأعداد ليُنبِّهنا الله على وجوب شكره على نعمٍ تُعَدُّ ونعم لا تُعدُّ ولا تُحصى، كما بيَّن لنا رسول الله ﷺ وجوب شكر نعمة كل يوم على نعم تُعدُّ وكيف تُشكر؛ فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ**

صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»[(١)] .. وثمَّة نعم لا تُعدُّ ولا تُحصى فقد تبين لنا أن ثمة من نعم الله فينا ما لا يمكن أن نحصيها، فقال ـ سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] .. فهل يستطيع الإنسان إحصاء أعداد الخلايا الحية في جسمه .. وهل يستطيع أي واحد منا أن يعرف كم عدد الخلايا التي تتهدم كل يوم منا فيصنع الجسم نفسه ما يكفينا، وهكذا دواليك .. إنها أرقام فلكية كما يقال، ألا يود كل واحد أن يقدم شكر الله على كل خلية من خلاياه كل يوم؟ وما هذه إلا نعمة واحدة تشير إلى عدم علمنا بنعم الله علينا التي لا تُعدُّ ولا تُحصى كثرة، فكانت الإجابة الشافية للقلب المؤمن في هذه [الألف آية] .. فهل تتصور أن هذه [الألف آية] هي فوق ذلك بما لا يحصى؛ فـ[الألف آية] تُضْرب بكم حرف، فالألف في آلاف مضروبة في آلاف مضاعفةٍ مضاعفاتٍ؛ إذ مضاعفات الأجر كما أخبر النبي ﷺ على الحرف، وليس على الكلمة كما قال ﷺ: «**لَا أَقُولُ: (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[(٢)]، فسبحان مَن جعل في هذا العدد شكرًا مدخرًا في هذا الحديث العظيم لهذا الزمن الذي اكتشفت فيه الخلايا وما لا يرى من نعم الله علينا .. فكان فضل الله أن كشف للناس هذا الفضل بهذا المقام [مقام المقنطرين] وسَهَّله حتى جعله في حفظ هذين الجزأين والقيام بهما ليلًا أو نهارًا، فالحمد لله على هذه النعم، والحمد لله أن بصَّرنا ـ سبحانه ـ بها، وقد قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، والحمد لله أن دلَّنا على نعمة المقنطرين، وسلك بنا سبيله وسهَّله وقرَّبه في هذا الزمان .. أليس هذا نوعًا من الإعجاز الحق؟ والحمد لله رب العالمين.

السبب الرابع: العظمة في أن عمر ألف سنة لا يساوي شيئًا بجوار [ألف آية] عندنا:

يا رب أشهد أني لا أودُّ أن أعيش [ألف سنة] كما تمنَّاها قوم؛ فلقد ذكر ربنا

---

(١) رواه مسلم (٧٢٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

- سبحانه - ذلك عن أناس تقبيحًا لمودتهم تلك ودناءتهم، وسفول هممهم، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، ولكني يا رب أود أن ترزقني حسن حفظ هذه [الألف آية] فأقوم بها بين يديك .. خاشعًا متذللًا متململًا أرجو رحمتك، وأخاف عذابك، فاللهم إني أشهدك ربي أن حفظي [الألف آية] أحب إليَّ أن من أعيش ألف سنة .. فأنت ربنا الأكرم الذي صرفتنا على طلب إكرامك من أول يوم أنزلت فيه كلامك الكريم على رسول الله ﷺ فقلت - وقولك الحق المبين: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، وسوف أقرأ وأقرأ إلى أن أحفظ .. وأنا راجٍ منك ربي من الآن أن تجعل [الألف آية] عوضًا عن ألف سنة أفديها من هذه الحياة فلا أطلبها ولا أتمناها تزلفًا إليك ربي رجاء ألف آية من آياتك أن تهبها لي ربي فتجدها في جوفي، وتجعلها بمضاعفاتها في صحيفتي .. وهذا ليس كثيرًا على ربي الأكرم، فهؤلاء جعلوا لهم رقمًا وأنا جعلت لي رقمًا، فلقد نويت بهذه [الألف آية] الألف سنة في الدنيا .. والله ـ سبحانه ـ عند ظن عبده به .. وهذا من تزلُّفنا إليك ربنا وتملُّقنا لك .. وهو تزلف بأعظم شيء تحبه يا رب وهو كلامك الكريم وسؤالك اللهم بالقرآن فالألف بالألف يا رب، وإن الله كما قبَّح ـ سبحانه ـ اليهود على مودتهم عيش ألف سنة .. فإنه - سبحانه - يعلم أننا نحب ما يحبه ـ سبحانه - كما يعلم - سبحانه - أن هذه الألف سنة التي تمناها المغضوب عليهم لا تساوي عندنا شيئًا أبدًا إذا وُضعتْ في كفة، ووضعت ألف آية من آيات الله في كفة .. هذا والله ميزاننا، وكفى بالله شهيدًا، إذن فكيف ستكون الحسبة عند الله ـ سبحانه ـ وربنا هو الأكرم؟ .. نعم هو تزلُّف .. هو تملُّق .. فما أجمله لله وفي ذات الله! وقد صح في الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ، وَثَلَاثَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللهُ؛ أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ: فَرَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللهِ، وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بِقَرَابَةٍ بَيْنَهُمْ فَمَنَعُوهُ، فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ، فَأَعْطَاهُ سِرًّا لا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللهُ وَالَّذِي أَعْطَاهُ، وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ نَزَلُوا، فَوَضَعُوا**

رُؤُوسَهُمْ، فَقَامَ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتْلُو آيَاتِي، وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ، فَلَقَوْا الْعَدُوَّ فَهُزِمُوا، فَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَفْتَحَ اللهُ لَهُ، وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُبْغِضُهُمُ اللهُ: الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ، وَالْغَنِيُّ الظَّلُومُ»[1].

السبب الخامس: ادخار [الألف آية] لليلة بألف شهر:

يا رب أسألك أن تجعل - بفضلك - الألف آية على الألف شهر وتبارك وتضاعف، وأنت البر الكريم: يا رب إني لمشتاق إن لم أكن حفظت القرآن كاملًا أن أكون من المقنطرين، فأقوم بين يديك كل ليلة بألف آية، أو كل أسبوع .. وفي رمضان كله أقومه كله! كل ليلة بألف آية، وبذا أدرك ليلة القدر يقينًا بإذن الله .. وإذا لم تكن هذه العدة لمثل هذه الليلة العظيمة فلأي ليلة تكون؟ أو أقوم لياليه الوترية، وإذا بي قد أصبحت من المقنطرين عندك ..

أقوم بها ولو أول الليل أو أوسطه أو آخره، فلعلَّ ربي يمنُّ بضرب [الألف آية] وزيادة بالألف شهر وزيادة، فيكون الحساب الذي لا يحصيه أحد سواك يا رب العالمين.

أقوم بهذه [الألف آية] بين يديك بحفظي، وأكمل بعد ذلك ما يسرته لي من كتابك الكريم من المصحف .. فعسى الله أن يأتي بالأيام التي أقوم فيها بين يديك بأكثر من ذلك وأكثر متبتلًا إليك تبتيلًا.

السبب السادس: ادخار الألف لأصعب الأرقام وأمرّها وأكبرها:

ومن الصعاب ما يُعرف، ومن الصعاب ما لا يُعرف الآن، ورب العالمين يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، وكم أعظمت هذه الكلمة العظيمة من رب العالمين خوف العلماء والأتقياء كلما مرُّوا بها .. على مرِّ العصور في هذه الأمة!

فلقد اتخذنا علاج أصعب الأرقام [بألف آية]: يا رب كم اختبرتنا بأرقام وطول

(١) رواه أحمد (٢١٣٥٥)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.

أزمان فعجزنا عن حسابها كما عجزنا عن إدراك مرادك منها! .. فلما أخبرتنا بهذا الرقم العظيم [ألف آية] للمقنطرين هان علينا كل ما استصعبناه ... وهنا يحضر بين عيني أكبر رقم من الزمان ذكرته في القرآن؛ وهو خمسون ألف سنة، وذلك في قولك ربي ـ سبحانك: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] حيث يقول النبي ﷺ: «**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَيُهَوَّنُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَتَدَلِّي الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ**»(١)، وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ، أَلَا أُبَشِّرُكُمْ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ، خَمْسِمِائَةِ عَامٍ**»(٢)، والظاهر – والله أعلم – أن اليوم واحد لا شك في ذلك ولا ريب، ولكنه يختلف بحسب الناس وما قدموا، واختلاف الأمم وما اعتدت، وما جاءت من اعتقاد في هذا اليوم وعمل، فإذا بحفظ [الألف آية] هذه والقيام بها خمسين مرة تساوي خمسين ألفًا ورحمة الله سبقت غضبه .. فإذا بالرقم يقابل الرقم، وأي شيء يقابل كلام الله ﷻ؟ كيف وهنا الحسبة أن خمسين ألف سنة مقطوعة تقابل خمسين ألف آية مباركة غير مقطوعة ولا ممنوعة؟ فكيف وربنا ـ سبحانه ـ قد وعد بمضاعفة الأجور والحسنات على الحرف الواحد من كلامه الكريم، ولم يجعل ـ سبحانه ـ للمضاعفة حدًّا ولا منتهى .. بينما جعل لهذا اليوم الطويل قدرًا محدودًا ومنتهى، فقال: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]؟ كيف وأول المضاعفات للأصل الحسنة بعشرة والحرف بعشر والحبة بعشرة وهنا عندنا [الألف آية] بعشرة، فماذا إذا ضربنا هذا بسبعمائة ضعف، ولا حدَّ للمضاعفة .. كيف إذا تكرر هذا الأصل أيامًا وليالي بعد ليال وليال ... وهو يضع كل ليلة عند ربه ـ سبحانه ـ ألف آية بسورها الكثيرة المباركة وآياتها العظيمة المباركة

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٣٧) رقم (١٨٣٤٨): رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَالِدٍ، وَهُوَ ثِقَةٌ.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٢٤)، وصححه الألباني.

وكلماتها التامات المباركات، وأحرفها النيرات المباركات، وربنا يقول ـ سبحانه ـ له: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ٣].

وهذه الحسبة لحفظ [ألف آية] بما لم نكن نحتسب لنعدها عند ربنا ليوم يظهر لأناس ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، والرجاء بالله أن يجعل هذه لهذه، وهو ربنا الرحمن المستعان في ذلك اليوم العظيم، وهو ـ سبحانه ـ أبر وأكرم.

السبب السابع: عظمتها أنها ليست نوعًا واحدًا من الثمرات في الدنيا، ولا من الأجور عند الحساب:

لـمَن أراد الحسبة بشكل محسوس:

إن المثال التطبيقي المحسوس المنضبط لهذا هو من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**»[(١)] ..

وبناء على هذه القاعدة العظيمة فإن الابتداء بحساب أجر المقنطرين لا يبتدئ بناقة واحدة إنما الابتداء بألف ناقة عظام سمان، هذا هو مبتدأ الأجر، وهذا يظهر عظيم الأمر .. فكم ستكون المسألة عند المضاعفات؟ هذا من غير المضاعفات المضمونة، كما وعد الله ـ سبحانه ـ على الأساس، وذلك حين تدخل على الحسبة، فالألف ناقة تُضرب في عشرة، **ثم الناتج يُضرب** في مائة ضعف، كما قال ربنا ـ سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، **ثم يُضرب ناتج ذلك** كله في سبعمائة ضعفٍ، وكما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ**»[(٢)].. ثم ألقِ قلم الحساب من

(١) رواه مسلم (٨٠٢).

(٢) رواه ابن ماجه (١٦٣٨)، وصححه الألباني.

يديك، وارفعهما إلى ربك، وقل ما قال رسول الله ﷺ؛ [إلى ما شاء الله] .. إلى ما شاء الله .. إلى ما شاء الله .. إلى ما شاء الله.

لا، بل توقف، فنحن لم نحسب ما في الآية من كلمات وكل ما فيها من أحرف، فأجر الحرف شيء، وأجر الآية شيء آخر، والنبي ﷺ يؤكد على هذا، ويقول: «لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ، وَلَامٌ، وَمِيمٌ»(١).

ويجب أن ننتبه إلى أن المضاعفات هذه لشيء جماد كالدرهم، أو الدينار، أو الفلس، أو التمرة، أو الحبة .. أما المضاعفات هنا فهي لآية من آيات الله .. بل لألف آية مرة واحدة .. وهذه الآية حية، بل هي باعثة الحياة؛ ولهذا جاء في الحديث كأنهن خلفات عظام اثنتان أو ثلاث سمان .. أي حاملات في بطونهن للأجنة .. فكم ستستمر هذه الخلفات الألف في التكاثر، ومَن يستطيع إحصاء ما يلدن، وما يتوالد بعد ذلك منهن، فهل أدركنا ماذا يعني أن الألف هو الأصل ..؟

فإذا كُتبتَ من المقنطرين .. فقد أَسْلمتَ رب العالمين الألف، ومن هنا تبدأ المضاعفات.

إذن هكذا نقول: إن حسبة المقنطرين عند الابتداء ألف آية، فالآي بألف بركة، وألف نور، وألف حرز، وألف صاحب، وألف معراج، وألف هداية، وألف طابق في الجنة، وألف سكينة، وملائكة لا تُحصى، وألف حسنة، ودليل ما أقول موجود في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، وأساس هذه الحسبة هو كل ما ورد عن قراءة الآية في كتاب الله ومَن يحصيه، وما ورد فيها من سنة رسول الله ﷺ، ومنها على سبيل المثال:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، كَانَتْ لَهُ حَسَنَةً مُضَاعَفَةً، وَمَنْ تَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

---

(١) رواه الحاكم (٢٠٤٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦١٨٨)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد في كتاب فضائل سور القرآن الكريم ص (٨٨): صحيح.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**»(١).

وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْقُرْآنُ شافع مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**»(٢).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَيْرُكُمْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَأَقْرَأَهُ، قِيلَ: رَفَعَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقِيلَ لِشَرِيكٍ: رَفَعَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ(٣).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ، وَلَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ، عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ**»(٤).

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**»، - فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ - ثُمَّ قَالَ: «**وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»، فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ،

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٠٤).

(٣) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (١٣٧)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٠٦٢)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد في كتاب فضائل سور القرآن الكريم ص (٢٨): إسناده حسن.

(٤) رواه ابن ماجه (٢١٩)، وضعفه الألباني.

قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ، وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ هَدَاهُ اللهُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَوَقَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ سُوءَ الحِسَابِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣](٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ، فَاقْبَلُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللهِ، وَالنُّورُ الْـمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، اتْلُوهُ فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ كُلَّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ، وَلَامٌ، وَمِيمٌ**»(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُقَالُ** - يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ : **اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ، كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»(٤).

السبب الثامن: المقنطرون لا يزنهم إلا ميزان رب العالمين وحده:

لقد اختلف العلماء في تحديد معنى المقنطرين، حتى قال بعض أهل العلم: إن القنطار مقدار لا يعرفه العرب(٥)، ومقتضى هذا الاختلاف ومنتهاه هو أنه كما أن [القناطير المقنطرة] هي المقياس الأعلى في أوزان أغلى شيء، وهو الذهب لأغلى الأشياء، ومنها المهور لإباحة العرض الحرام بالزواج، وأن أقل الأوزان هو الذَّرَّة .. فإن المطلوب وهو كيف يبلغ العبد هذا المقام الذي بيَّنه الرسول ﷺ وحدَّده تحديدًا

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٩٤٧)، والحاكم في المستدرك (٣٤٧٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٣) رواه الحاكم (٢٠٤٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٤) رواه الترمذي (٢٩١٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٥) لسان العرب بتصرف (٥/ ١١٩).

دقيقًا بأعلى رقم عندنا في هذه الدنيا، وهو هذا الحديث الذي بين أيدينا، والحمد لله رب العالمين ... وحتى القول الأظهر من أقوال العلماء من أن المقنطرين مأخوذة من القنطار، وهو الأعلى في أوزان الذهب والأعلى في قيم مهور النساء، كما قال الله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، وهذا يؤكد على أن الأعلى في الأجور عند الله إنما هم المقنطرون الذين يحفظون ويقومون بألف آية ... كما أن القنطار هو الأعلى في الأوزان فإن الذرة هي الأقل في الميزان، كما قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [سورة الزلزلة]، وقول الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

لا تستكثروا – أيها الكرام – ذلك على ربنا ﷻ، فهذا كلامه الذي قال فيه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، والكلمات جمع كلمة .. فكم في [الألف آية] من بحورٍ لا متناهية.

تأكد: أننا حين نتحدث عن مقام **المقنطرين فإننا إنما نتحدث عن مقام عند الله عظيم، لا نعرف لعظمته منتهى ولا حدًّا .. نتحدث عن منزلة سيُكشف فضلها، وسيظهر للعالمين** مَن هم المقنطرون يوم الدين، ربما نعرف نحن وزن القنطار وعندنا وفي ميزاننا، وأنَّى لنا أن نعرف القنطار عند الله، والقنطار في الصحائف .. والقنطار في ميزان الله، والقنطار في درجات الجنة ونعيمها، والقنطار في ملكية أملاك في الأرض أراض، وجنان، وقصور، وأنهار، ومهور، وحور، والقنطار في القرب من الله، والقنطار في الأولية لكل شيء في الدار الآخرة .. فإن كانت في الميزان فإنهم الأثقل وزنًا؛ لأنه ليس فوق القناطير المقنطرة وزنٌ، وإن كانت في الأثمان فهم الأعلى تقديمًا للثمن؛ لأنه ليس فوق الذهب عند العرب ثمنٌ، وهم أهل لغة العرب التي نزل بها القرآن، وليس في ميزان الذهب عند العرب أعلى من القنطار، وإن كانت بلوغ الغايات فإن القنطار من القنطرة، والقنطرة هي الجسر الواصل، والقِنْطارُ: مِعْيارٌ،

قِيلَ: وَزْنُ أَربعين أُوقية مِنْ ذَهَبٍ، وَيُقَالُ: أَلف وَمِائَةُ دِينَارٍ، وَقِيلَ: مِائَةٌ وَعِشْرُونَ رِطْلًا، وَعَنْ أَبي عُبَيْدٍ: أَلف وَمِائَتَا أُوقية، وَقِيلَ: سَبْعُونَ أَلف دِينَارٍ، وَهُوَ بِلُغَةِ بَرْبَر أَلف مِثْقَالٍ مِنْ ذَهَبٍ أَو فِضَّةٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثَمَانُونَ أَلف دِرْهَم، وَقِيلَ: هِيَ جُمْلَةٌ كَثِيرَةٌ مَجْهُولَةٌ مِنَ الْـمَالِ، وَقَالَ السُّدِّيّ: مِائَةُ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ أَو فِضَّةٍ، وهو بالسُّريانية مِلءُ مَسْك ثَوْرٍ ذَهَبًا أَو فِضَّةً، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: قَناطِيرُ مُقَنْطَرَةٌ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾.

وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ قامَ بأَلف آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ**»؛ أَي: أُعْطِيَ قِنْطارًا مِنَ الأَجْر، وَرَوَى أَبو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**القِنْطارُ اثْنَا عَشَرَ أَلف أُوقية، الأُوقية خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرض**».

وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنه قَالَ: «**مَنْ قرأَ أَربعمائة آيَةٍ كُتِبَ لَهُ قِنْطارٌ؛ القِنْطارُ مِائَةُ مِثْقَالٍ، الْمِثْقَالُ عِشْرُونَ قِيرَاطًا، الْقِيرَاطُ مِثْلُ وَاحِدٍ**».

أَبو عُبَيْدَةَ: القَناطِير وَاحِدُهَا قِنْطار، قَالَ: وَلَا نَجِدُ الْعَرَبَ تَعْرِفُ وَزْنَهُ، وَلَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، يَقُولُونَ: هُوَ قَدْرُ وَزْنِ مَسْكِ ثَوْرٍ ذَهَبًا، والمُقَنْطَرة: مُفَنْعَلة مِنْ لَفْظِهِ؛ أَي: مُتَمَّمة، كَمَا قَالُوا: أَلف مُؤَلَّفة مُتَمَّمة، وَيَجُوزُ الْقَنَاطِيرُ فِي الْكَلَامِ، والمُقَنْطَرَةُ تِسْعَةٌ، وَالْقَنَاطِيرُ ثَلَاثَةٌ، وَمَعْنَى المُقَنْطَرة المُضَعَّفة، قَالَ ثَعْلَبٌ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْقِنْطَارِ مَا هُوَ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مِائَةُ أُوقية مِنْ ذَهَبٍ، وَقِيلَ: مِائَةُ أُوقية مِنَ الْفِضَّةِ، وَقِيلَ: أَلف أُوقية مِنَ الذَّهَبِ، وَقِيلَ: أَلف أُوقية مِنَ الْفِضَّةِ، وَقِيلَ: مِلْءُ مَسْك ثَوْرٍ ذَهَبًا، وَقِيلَ: مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ فِضَّةً، وَيُقَالُ: أَربعة آلَافِ دِينَارٍ، وَيُقَالُ: أَربعة آلَافِ دِرْهَم، قَالَ: وَالْـمَعْمُولُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَرَبِ الأَكثر أَنه أَربعة آلَافِ دِينَارٍ، قَالَ: وَقَوْلُهُ: الْـمُقَنْطَرَةِ، يُقَالُ: قَدْ قَنْطَرَ زيدٌ إِذا مَلَكَ أَربعة آلَافِ دِينَارٍ، فإِذا قَالُوا: قَناطِيرَ مُقَنْطَرة فَمَعْنَاهَا ثَلَاثَةُ أَدْوارٍ: دَوْرٌ ودَوْرٌ ودَوْرٌ، فَمَحْصُولُهَا اثْنَا عَشَرَ أَلف دِينَارٍ.

وَفِي الْحَدِيثِ:

أَن صَفْوان بنَ أُمَيَّة قَنْطَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وقَنْطَرَ أَبوه؛ أَي صَارَ لَهُ قِنْطارٌ مِنَ الْـمَالِ، ابْنُ سِيدَهْ: قَنْطَرَ الرجلُ مَلَكَ مَالًا كَثِيرًا كأَنه يُوزَنُ بالقِنْطار، وقِنْطار مُقَنْطَر: مُكَمَّل،

والقِنْطارُ: العُقْدة المُحْكَمة مِنَ الْـمَالِ، والقِنْطارُ: طِلاءٌ، هكذا في سائر النسخ، وفي «اللسان»: طلاء لعُود البَخُور[١].

وعلى هذا فهؤلاء هم الواصلون السابقون إلى الله، كيف لا يكون المقنطرون هم الأعلى، **وهم فوق القانتين .. وليكونوا ما يكونون فإن هذا مقام، ولا يكفي تحديد المقام ولو بالاحتمال، نحن لم نسمع في حديث صحيح في [المقنطرين] إلا هؤلاء القائمين بألف آية ...**

وهنا لا بد من تنبيه: فقد قال الله ﷻ في أمهات المؤمنين: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال عن مريم عليها السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وهذا لا يعني مطلقًا أن القانتين هؤلاء عليهم السلام أدنى ممَّن حفظ ألف آية، وقام بها - معاذ الله من هذا القول - لأن المراد هنا بالقانتين؛ أي: الطائعين، وهذا مقام يدخل فيه جميع الطائعين مصلين، وصائمين، ومتصدقين، ومجاهدين، وما إلى ذلك، وكذلك المقنطرون، فالمقنطرون من القانتين؛ لأنهم كذلك طائعون .. لكن يكفي المقنطرين أنهم ما بلغوا مقام المقنطرين حتى ارتقوا من القانتين مما يعرفهم الناس إلى درجة في القنوت؛ أي: في الطاعة إلى مما هو فوق .. ويكفي المقنطرين أن رسول الله ﷺ ما ذكر فوق درجتهم درجة أعلى منهم، ويكفي المقنطرين أنهم قد تجاوزوا مقام القانتين .. لذا ينبغي لهم أن يدركوا هذا ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم .. وليتطلعوا إلى أعلى وأعلى دائمًا وأبدًا؛ إذ هم بين يدي الله قائمون.

فما أعظمه من تفرد في المقامات بين أصحاب المقام المعلوم! وما أعظمه من تفرد في المقامات بين أصحاب الأثمان من الأعمال! وما أعظمه في الأثقال في ميزان الله يوم القيامة! والنبي ﷺ يقول: «**يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ ذُرِيَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ**

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ١١٨-١١٩).

وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْـمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْـمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ، مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْـمُوسَى، فَتَقُولُ الْـمَلَائِكَةُ: مَنْ يَنْجُو مِنْ عَلَى هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ، مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»(١).

فإذا عرفنا أن مَن بلغ أن يكون من المقنطرين قد بلغ من المقامات العليَّة عند الله، إذن فلنعرف أن [المقنطرين] ليس مجرد اسم من الأسماء .. فالله هو الحق ـ سبحانه ـ وإذا سمَّى أحدًا أو شيئًا باسمٍ فذلك الاسم عليه حق .. وليس كأسماء المشركين لآلهتهم، ولقد ذمَّها الله ـ سبحانه ـ فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، بل السلطان الكامل والمعنى الكامل في كل ما يُسمِّيه الله ـ سبحانه ـ بما يناسب الدنيا أو يناسب الآخرة، وهذا مما يزيد ذهول الألباب عن بلوغ المعنى للمقنطرين عند رب العالمين .. لكن ماذا يفيدنا إذا بلغنا معرفة معنى المقنطرين دون أن نكون من المقنطرين؟ وهل بيَّنه لنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث إلا لبلوغه؟ وبيَّن لنا رسول الله ﷺ كيفية بلوغه، فاللهم بلغنا، واكتبنا عندك من المقنطرين ... اللهم آمين.

السبب التاسع: [المقنطرون]: المقام العظيم للأمة العظيمة:

وأحسب أنه ما فتح لغيرنا هذا المقام أبدًا، فهذا مقام خاص لأمة محمد ﷺ، والله أعلم – فهذا القرآن العظيم وهذه سنة رسول الله ﷺ هل يوجد فيهما ذكر للمقنطرين في غير هذه الأمة؟ ولم يُذكر أن أحدًا منهم كان من المقنطرين؛ نعم سمعنا عن أناس عندهم أنهم من [القانتين] كما قال ـ سبحانه ـ عن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال عن امرأة فرعون آسية عليها السلام: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وسمعنا أن منهم من [الصادقين]،

(١) رواه الحاكم (٨٩٩٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

ومن [الأئمة]، ومن [المتقين]، ومن [الربانيين]، كما أن هذه المقامات موجودة في أمة محمد ﷺ، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله حين فتح لنا هذا المقام فإنه ما أخذ منهم حسنة، ولا أنقصهم من أعمالهم شيئًا .. ولعل السر العظيم في هذا هو هذا القرآن العظيم، فإن هؤلاء الأمم جميعًا لم يكن عندهم كهذا القرآن العظيم، وإن كانت لهم كتبهم الكريمة، أليس من أسماء الله [الكريم] ؟ أليس من أسماء هذا القرآن الكريم؟ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، فالحمد لله رب العالمين على هذا الإتمام الكبير.

السبب العاشر: عظمة البشرى لنا[١] بهذين الجزأين:

سبحان مَن هدى أهل العلم إلى أَنَّ تحقُّقَ مقام المقنطرين إنما يكون بالقيام بالجزأين الأخيرين، وأن القيام بهما يوفِّي الحسبة، ويبلغ بالعبد أن يكون من المقنطرين.

وقد قال الله – وصدق الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٨] .. وتلك هي من رحمة الله بآخر أمة محمد ﷺ كما هي رحمة الله في أولها، ورسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ مَثَلَ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ**»[٢]، وإن رعاية الله ﷻ لهذه الأمة لم تنقطع عند مرحلة معينة، بل ولا بوفاة سيد الخلق رسول الله ﷺ ... كيف وقد دعا لنا رسولنا ﷺ وخصنا واستخلفنا ربنا ـ سبحانه ـ وإن الله ﷻ إذا استودع شيئًا حفظه، وقد قال النبي ﷺ: «**وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[٣]، والله ـ سبحانه ـ يحب لهذه الأمة، ويحب هذه الأمة .. وأي حب كحب الله ﷻ لرسول هذه الأمة ﷺ ... يحب لهذه الأمة أن تعود إليه ليعطيها ويقربها ويحبوها، وأي عودة وإياب .. وأي قربٍ للأحباب مثل قرب أهل الليل من ربهم ﷻ.

---

(١) لنا: أي لنا نحن أهل هذا الزمان من أمة محمد ﷺ.

(٢) رواه أحمد (١٢٣٢٧)، وقال الأرنؤوط: حديث قوي بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن.

(٣) رواه مسلم (٢٩٣٧).

وهل هذه العودة إلى صلاة الليل لبعض الأمة إلا بشارة عظمى على عودة الأمة كلها إلى مقامها بين الأمم وهو مقام المقنطرين بالنسبة لغيرها، بل مقام المنقذين لغيرها من الأمم، ولقد كان قيام الليل هو المحضن الأول لهذه الأمة عند ولادتها وأوائل أيامها، ولقد حفظ رب العالمين لنا هذا الأمر منذ ابتدائها، وحفظه ـ سبحانه ـ بعدما رفعه وترك الأمة سائرة على طريقةٍ لا تستطيع فراق القيام أبدًا؛ لأنه من فراق ربها في أحب الأوقات إليه ـ سبحانه ـ فقال الله ﷻ في أول الرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [سورة المزمل]، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ ﷺ: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ اللهَ ﷻ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ[١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَلْيَفْتَتِحْ صَلَاتَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ**»[٢]، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا، أَوْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ**»[٣]، فالنوم عن صلاة الليل وتعوُّده دليل استحواذ الشيطان على الإنسان سمعًا وبصرًا وجوارح، نعوذ بالله من هذا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ**»[٤].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا**

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه مسلم (٧٦٨).

(٣) رواه أبو داود (١٣٠٩)، وصححه الألباني.

(٤) رواه مسلم (١١٦٣).

مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا»، قَالَ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ»**(١).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلْإِثْمِ»**(٢).

أخذ [الألف آية] حفظًا: العظمة في حفظ [الألف آية] عن ظهر قلب:

المقدمة: لا شك أن البعض سوف يستكثر على نفسه حفظ [ألف آية] .. ويستصعبها بعدما كبر عمره أو كَثُرَتْ أشغاله، أو نحو ذلك، **فيقول:** أنا أستطيع أن أقرأ في القرآن، أو في الهاتف.

نقول له: اقرأ في الهاتف، اقرأ في المصحف، فلك أجرك العظيم .. واستمر بالدعاء لنفسك ليبلغك الله، ويكتبك عنده من المقنطرين.

يقول آخر: أنا عندي عذري من عدم القدرة على الحفظ؛ لأني آخذ دواء ضد أمراض ذهاب الذاكرة .. وقد كبرت سنِّي؛ فكيف لي أن أحفظ؟

أقول له: لا تترك دواءك، واستمر بالقراءة من المصحف، وسل الله أن يعينك على الحفظ؛ ففي الدعاء الصادق تبلغ، وقد قال النبي ﷺ: **«مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»**(٣).

ومع أن لهؤلاء أجرهم، فإني أرى أن الغاية هي حفظ [ألف آية]، وكلُّ معذورٍ له عذره وله أجره، ما دام ناويًا للحفظ، وسائرًا على هذا الطريق، ولو حفظ في اليوم الواحد سورة من قصار السور، بل لو حفظ آية .. فهو ما دام على هذا الطريق فإنه كمَن قال فيهم النبي ﷺ: **«إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا**

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٠٣)، والحاكم (١٢١٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٤٩)، والحاكم (١١٦٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٣) رواه أبو داود (١٥٢٠)، وصححه الألباني.

كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»[(١)]، وفي رواية: «إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ»[(٢)]، ولكن عذر هؤلاء لا ينبغي أن ينزل بمقام المقنطرين؛ وهم المقنطرون، وما أدراك ما المقنطرون..!

والأدلة على أنه لا يُسمَّى من المقنطرين إلا مَن حفظ [الألف آية] كثيرة، سوف أذكر منها هنا ما ييسره الله لي:

الدليل الأول: اسم المقنطرين: أليس يُسمِّيه الناس مقنطرًا .. هو مَن يملك القنطار؟ نحن بين اثنين، مَن يقرأ القرآن من المصحف، ومن يقرأ القرآن من حفظه، فأي الاثنين أقرب شبهًا بمَن يملك؟ فالحافظ كالمالك، والقارئ كالمنتفع، وهو ليس بمالك حتى يحفظ .. ومَن قرأ ألف آية من المصحف كان كمَن انتفع بالبيت، أو السيارة تأجيرًا؛ فإذا ما انتهت مدة الأجرة عاد البيت إلى صاحبه، وعادت السيارة لصاحبها .. فمَن اقتصر على القراءة من المصحف ترك القراءة بشيء متى ترك المصحف، بينما مَن حفظها حازها إلى صدره وسُمِّيَ حافظًا، واستحق بحفظه ألف آية في صدره أن يسمى مقنطرًا .. فهل يستوي مَن حفظ ألف آية مع مَن لم يحفظها .. والجواب: لا؛ لأنه لا يستوي مَن استأجر زينة لعروسه مع مَن ملك الزينة، والقناطير المقنطرة بنفسه .. وأعود لأؤكد أن القارئ من المصحف مأجور، لكنه لا يسمى مقنطرًا ... فمَن لم يشترط الحفظ للمقنطر كمَن نزع ملكية القنطار من صاحبه، وكان كمَن منح مَن لا يملك ذاك القنطار إليه عدوانًا، وظلمًا، والله ﷻ لا يرضى بالعدوان ولا الطغيان، ولا الظلم، وهو القائل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [سورة الرحمن] حفظه ألف آية، إذن أصبح مقنطرًا.

الدليل الثاني: الحافظ ألف آية مَن أصبحت القناطير بيده: وقد روت أم المؤمنين

(١) رواه مسلم (١٩١١).
(٢) رواه مسلم (١٩١١).

عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهْوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ**»(١)، فمَن هم السفرة الكرام البررة؟ والجواب: هم الملائكة الذين جعل الله بأيديهم القرآن ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥]؛ ولذا ناسب أن يقابلهم في أهل الأرض مَن جعل الله في قلوبهم القرآن، أي حفظوا القرآن [عن ظهر قلب]، كما قال النبي ﷺ لـمَن زوَّجه مَن وهبت نفسها للنبي: «**أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**»(٢).

إذن فإن النبي ﷺ أقام حفظه الآيات مقام مُلْكِهِ المال الذي بيده، وأقام تحفيظه للمرأة مقابل تمليكها المهر .. فهل يستوي مَن حفظ [الألف آية] مع مَن لم يحفظها .. وهل مَن لم يملك المال يملك المهر .. فكيف يملك القناطير المقنطرة؟

الدليل الثالث: عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»(٣)، أيمكن أن يكون مقنطرًا، ويكون قلبه كالبيت الخرب؛ لأنه لا يحفظ شيئًا من القرآن؟ ومَن لا يحفظ شيئًا هو كمَن لا يملك شيئًا، فكيف لا يكون هو ضد المقنطر، والمقنطر هو أكبر المالكين؟

وأي حسرة في الآخرة لـمَن ظن نفسه مقنطرًا وهو لم يحفظ، إذا ظهر أن المقنطرين هم مَن قاموا بألف آية من حفظهم، نعم ينبغي أن نحتاط لأنفسنا ولآخرتنا، فالمفاجأة اليوم أحسن من المفاجأة في الآخرة، فَلْيسعَ الساعون القادرون على الحفظ، وَلْيدعُ الداعون ربهم بذلك، وليبتدئ الرجل بآية، والآية عند الله عظيمة، وكريمة، ومباركة، ولتمرَّ الأيام وكل يوم بآية، وما أسرع مرور الأيام! وما أعظم بركة الآية على الأيام! وما أعظم فتح الله ﷻ على الصابرين المرابطين على أبواب الآيات

(١) رواه البخاري (٤٩٣٧).

(٢) رواه البخاري (٥٠٣٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٩١٣)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

والسور .. فما بالك بسورٍ كأن كل سورة لسهولتها آية واحدة من آيات السور الطوال .. بل وأصغر، ثم مَن لم يستطع ذلك كله فليتكفل بألفٍ يحفظون ألفًا، أو مائة يحفظون ألفًا، أو واحد يحفظ ألفًا ... فلعل الله يبارك بالواحد فينشئ الله به ألوفًا مؤلفة من المقنطرين، وقلوبًا مؤتلفة من المؤمنين.

الدليل الرابع: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟**»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «**أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصلِّ عَلَيْهِمْ(١).

وَلْننظُرْ نظرةً سريعةً في هذا الحديث الشريف لينجلي لنا أكثر الطريق إلى المقنطرين، فحديثُ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ ﷺ بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يجمعُ بينَ الرَّجُلَيْنِ مِن قَتلى أُحُدٍ في الثَّوبِ الواحِدِ، وكان يسألُ: «**أيُّهما كانَ أَكْثرَ أخذًا للقرآنِ؟**»، فإنه وبالرغم من أنَّ الحديثَ واضحٌ، وأن المقصود بقوله ﷺ: «**أَخْذًا لِلْقُرْآنِ**» حِفْظُ القرآن، إلا أنه جاء التنصيص على ذلك في رواية أخرى؛ يقول فيها: «**أَكْثَرُهُمْ قُرْآنًا**»(٢)، فهل يُعقلُ أن يكون المراد بعد هذا أكثر جمعًا للمصاحف، ولم يكن في عهد النبي ﷺ مصحف واحد مجموع في مكانٍ واحدٍ؟

إذن كيف يفهمون حديثًا واحدًا عن إمام من أئمة الحِفْظ الذين استشهدوا في هذهِ المعركة وهو سالم مولى أبي حُذيفة ﷺ: بِئْسَ حامِلُ القُرْآنِ أَنَا إِنْ أُتِيتُمْ مِنْ قِبَلِي؟(٣)

وإذا كانت كلمة [قراءة] تعني من المصحف، فماذا أنتم صانعون في قوله ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقوله ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا

(١) رواه البخاري (١٣٤٣).
(٢) رواه الترمذي (١٧١٣)، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٣) تهذيب الطبقات الكبرى لابن سعد صفحة (٥١٧).

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فهل كان رسول الله ﷺ يقرأ من مصحف في صلاته - وهو النبي الأميّ - كما خاطبه الله ـ سبحانه ـ في الآيات السابقة؟ لقد حوَّل القرآنُ مصطلح [القراءةِ] إلى الحفظ، فأصبحت هي الأصل والأَولى؛ لأنها اختيار الله لرسوله ﷺ؛ ولأنها الأصل في الصلاة، والأصل في صحبة القرآن، وفي معيَّة القرآن، وفي أهلية القرآن، وهو الأصل عند الأمة الأُمية.

وقد قال النبي ﷺ: «**أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»(١).

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا، وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**»(٢).

وكيف يكون أقرأهم وهو لا يحفظ القرآن؟ ولم يكن القُرآنُ موجودًا في صحف ولا كتب .. ألا يكفي هذا الحديث وحده لفهم مصطلح [القراءة] إذا خُصَّ بالقرآن، وقد صح في رواية «**وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا**»؟(٣)(٤).

فهل يُعقل أن يأخذ أحد هذا اللفظ على ظاهره، فيقول: فَلْيؤمكم أكثركم جمعًا للمصاحف .. حتى لو لم يحفظ شيئًا من القرآن؟

أما الدليل الخامس: المقنطر صاحب [الألف آية]: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ**»(٥)، والسؤال هو كيف يستطيع المقنطر أن يقرأ ألف آية في الجنة إذا لم يحفظها؟

---

(١) رواه الحاكم (٢٠٤٦)، وأحمد (١٢٢٧٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه مسلم (٦٧٣).

(٣) رواه البخاري (٤٣٠٢).

(٤) من كتاب [كيف لا أحفظ القرآن؟] للمؤلف ص (٥٠ – ٥١) بتصرف.

(٥) رواه ابن ماجه (٣٧٨٠)، وصححه الألباني.

وكيف يفهمون حديث: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»(١)، كيف يستطيع أن يقرأ في الجنة [ألف آية] إذا لم يكن حافظًا لها، هل في علم أحدٍ أن أحدًا عنده مصحف يُعطاه أو يدخل به الجنة..؟

وفي حديث ابن مسعودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١١] قَالَ: «**أَمْسِكْ**»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ(٢)، فهل مرَّ على أحد أن ابن مسعود ﷺ كان يقرأ من مصحف؟ هكذا يُقال لـمَن في الجنة: [اقرأ]، كما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ: «**أَمْسِكْ**»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، فانظر كم مرة وردت كلمة [اقرأ]، بينما لم يقرأ ابن مسعود ﷺ إلا من حفظه.

إذ كيف يظهر أصحاب المقامات بعضهم عن بعض عند ربهم .. كيف يظهر الذاكرون عن الغافلين بعشر آيات، كيف يظهر القانتون ويعلون، كيف يقنطر المقنطرون بألف درجة .. كيف يعلو على الجميع الحافظون لكتاب الله .. لو كان الأمر قراءة في المصاحف؛ نعم، لا يُظلم أحد، واليوم يوم الجزاء الأعظم .. والحرف محسوب، والختمات محسوبة، والأضعاف مضاعفة .. إلا أن لحفظ الآيات قيمتها وعظمتها .. ولو كانت القراءة من المصحف هي الفارق في الدرجات لذهب المقنطرون بعيدًا بعيدًا عمن لم يحفظوا شيئًا إلا أنهم يختمون القرآن العظيم.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وغيرهما، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٢).

وهنا فلْننتبه:

ألم يَرِد التفريق بين الحافظ وغير الحافظ بقوله ﷺ: «**كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا**»؟ فهل يستوي مَن لا يستطيع الترتيل إلا بالمصحف مع مَن يرتل بمصحفٍ أو بدونه؟ فهل يجوز أن يُقال لهذا: مقنطر، كما يُقال لـمَن لم يحفظ: مقنطر؟ وهل يجوز لأحدٍ أن يساوي بينهما، وقد أسس الله ﷻ التفريق بينهما في الجنة على هذا الفارق في الدنيا «**كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا**»؟

ومَن لم يستطع في الدنيا أن يحفظ الألف، كيف له أن يرتل ألفًا بغير مصحف؛ إذ لم يحفظها .. نعم، هو له أجره، لكن هذا هو مقام يقوم له الحافظون دون سواهم.

الدليل الخامس: صاحب الألف كصاحب القرآن:

وماذا يمكن أن يقول هؤلاء في حديث بُرَيدةَ ﷺ قال: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ**»[(١)].

وهكذا الحافظ لألف آية، فإنه يصدق عليه ذلك ... فإنه صاحب القرآن، والقرآن صاحبه، فإذا سرنا جدلًا على أن صاحبه هو مَن صحب قراءته، وقلنا: إنَّ قولَه: «أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ» يدل على قراءته ظهرًا، فكيف يقرؤه ليلًا ويُسْهره إذا لم يكن يَحْفَظُه، ويحفظ منه عن ظهر قلب، وما كانت عندهم سُرُج توقد طوال الليل، أم أن ذلك غير محسوب؟ رضي الله عنهم، ورحمهم الله أجمعين.

وقد ورد حديث يوضح أن المقصود بقراءته ليلًا ليست من المصحف، وذلك لما ورد في رواية مسلم: «**وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»[(٢)]، فإذا لم يكن حَفِظَهُ فكيف يقول عنه النبي ﷺ: «**نَسِيَهُ**» إذا ترك القيام به؟

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٠)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) أخرجه مسلم (٧٨٩).

أليست الألف آية تحتاج لتعاهد بالليل والنهار؟ الجواب: بلى، فكيف إذا تركها نسيها وهو أساسًا لم يحفظها، لأنه يقرؤها من المصحف!

وفي حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ: قال: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ: إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»(١)، وفي حديث أبي موسى ﷺ أنه ﷺ قال: «**تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**»(٢)، فكيف يتفلّتُ القرآنُ إذا لم يكن أمسكه صاحبُه، وهل يكون إمساكُه إلا بحفظه؟ فكيف تتفلت منه [الألف آية] إذا لم يكن حفظها أصلًا؟(٣)

الدليل السادس: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ، لَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجِدَّ مَعَ مَنْ جَدَّ، وَلَا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ، وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى**»(٤).

قوله: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ**»: في هذا الحديث دلالة قاطعة على أن الأصل في قارئ القرآن هو الحافظ كما هو أصل كل قارئ للقرآن ومصدره كان حافظًا، وكان أميًّا ﷺ لا يقرأ ولا يكتب؛ فقوله ﷺ عن عظمة حافظ القرآن عن ظهر قلب: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ**»؛ فكأن رسول الله ﷺ يصوِّر لنا طالب حفظ القرآن وهو يحفظ الآيات فيضمها في صدره شيئًا فشيئًا، ودخول الآيات إلى الجوف ليس له إلا معنى واحدٌ وهو حفظها، وهو ما يماثل دخول النبوة إلى النبي ﷺ؛ إذ هي أعظم ما أنزل الله ﷻ على الأنبياء جميعًا من المعجزات كلها.

والشاهد هو أن هذا لا يكون أبدًا بغير حفظ، وبغير التدرج في الحفظ .. فالاستدراج من التدرج .. وكل هذا مبناه على قوله ﷺ عن «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ**»: «**غَيْرَ أَنَّهُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣٣).

(٣) من كتاب [كيف لا أحفظ القرآن؟] للمؤلف ص (٥١ – ٥٣) بتصرف.

(٤) رواه الحاكم (٢٠٢٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

لَا يُوحَى إِلَيْهِ»، ثم جاء قوله ﷺ ليقطع أن المقصود بقراءة القرآن إنما هو حفظ كلام الله، فقال: «**وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى**»، ولا يمكن أن يفهمها عاقل على أنه في جوفه ورق المصحف، إنما هو حفظه عن ظهر قلب؛ هكذا الأمر في [ألف آية] فقراءتها إنما هي حفظها، والقيام بها إنما هو قيام بحفظها .. مما استدرج في صدره وبين جنبيه.

وأخيرًا: ثَمَّ سؤال هنا: بناءً على أي اعتبار يكون الأكثر حفظًا للقرآن؟ أهو على اعتبار أعداد السور؟ أم أعداد الآيات؟ أم أعداد الكلمات؟ أم أعداد الأحرف؟ أم أعداد الصفحات؟ أم ماذا؟

والجواب: والله أعلم، إن كل تلك الأعداد عظيمة ولها مزاياها، ولها أجورها، سواءٌ كانت أحرفًا، أم كلمات، أم صفحات.

إلا أن الذي أراه أن المعتبر في الأخذ هو أخذ الآيات وحفظها، وذلك لحديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ ـ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ ـ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ**[1] **فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ! قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»[2]، فالعبرة بالآية كما هو نص الحديث .. ثم إن الأخذ أو التعلُّم أو نحو ذلك إنما أعلاه هو الحفظ بدليل: «**أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟**»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «**أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ، ولم يذكر في الحفظ - فيما أعلم - أبدًا حفظ الحرف، أو حفظ الكلمة .. وأقل الحفظ الآية، وكذلك حفظ السورة، فكيف وقد اجتمع في حفظ جزئي [تبارك وعَمَّ] الأكثر أعدادًا في الآيات، والأكثر أعدادًا في السور القرآنية!

---

(١) كوماوين: عظيمتين.

(٢) رواه مسلم (٨٠٣).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، فَكُنْ**»(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: لَا تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ **كَانَ لَا يَدَعُهُ، وَكَانَ إِذَا مَرِضَ، أَوْ كَسِلَ، صَلَّى قَاعِدًا**(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ قَالَ: «**ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ**» أَوْ قَالَ: «**فِي أُذُنِهِ**»(٣).

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٢) رواه أبو داود (١٣٠٧)، وابن خزيمة في صحيحه (١١٣٧)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤).

الفصل الثالث:
فصل التجاوب تجاوب الذاكرين .. والقانتين .. والمقنطرين

قوله: «**كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ**»: **فكم يكفي ليُكتب؟** ولئلا يخدع الإنسان نفسه، أو يخدع الواعظ غيره، ويغرر بالناس حين يوهمهم أن قيام ليلة واحدة بألف آية يكفي لأن يكتب من المقنطرين .. أو ليلتين أو ثلاث تكفي ... فإن الله لا يمنح الاسم والمقام إلا لـمَن يأخذ بأسبابه كما قال الله ﷻ، ومن هذا أن يداوم على هذا العمل أو ذاك حتى يُعْرَف عند مَن يعرفه من الناس بهذا، وإلا فإن الله بكل شيء عليم، فإنه لا بد من الاستمرارية والمواصلة والحرص على ذلك .. والحرص على دقائقه، ولقد صحَّ في الحديث: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»[1] ...

وهكذا باب الريان يدخل منه الصائمون، ولو كان كل مَن صام رمضان دخل من باب الريان، لدخل جميع المسلمين من باب الريان لمجرد صيامهم رمضان، ولكن المقصود من عُرف بصيام التطوع، وداوم عليه حتى عرف عند أهله أو صحبه أو عند الناس بالصيام عندها يكُتب عند الله صوَّامًا، واستحق هذا الاسم فيستحق أن يدخل الجنة من باب الريان، وهكذا باب المتصدقين، وباب الجهاد، وغيرها من أبواب الجنة الثمانية، حتى باب الصلاة؛ ولهذا فإنَّ مَن حافظ على صلاة الفريضة وحدها،

(١) رواه مسلم (٢٦٠٧).

وقال للرسول ﷺ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**»(١)، وما خصه بباب الصلاة، وفي رواية: «**أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ**»(٢)، وما قال ﷺ: [دخل الجنة من باب الصلاة]، بل المعنى دخلها دخولًا عامًّا، وخصوصًا أنه سأل عن أركان الإسلام وبعدما بيَّنها له النبي ﷺ قال: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ، فكان دخول الجنة مع الداخلين وهنيئًا لهم أجمعين، بينما ذهب الصِّدِّيقُ إلى أعلى فقال: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**»(٣).

وهذا المقام خاصة وهو أن يكتب عند الله اسمه من المقنطرين لا ينبغي للعبد أن يجازف فيه .. بأن يقوم ليلة واحدة في عمره أو ليلتين أو عشرًا، ثم يتركه لظنٍّ أنه أصبح من المقنطرين، بل لا بد أن يأخذ احتياطاته جميعًا حتى يكون - بإذن الله - ممن سُمِّي عند الله من المقنطرين، وهذا لا يكون حتى يتخذ العبد قيام ألف آية عنده ديمة .. لا يُشْترط أن يكون قيامه بها كل ليلة، بل يكفي أن يكون ديمة أسبوعية، أو شهرية، أو ثلاث مرات في الأسبوع، وكم يحصل للعبد الاشتياق لهذا القيام إذا ما تذوق لذته بحفظه فينتظر الليل إذا دخل، حين ينتظر موعده مع [الألف آية] كلما اقترب الموعد ... فهذه اللذة تصبح آسرة .. وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة السجدة]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

(١) رواه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).
(٢) رواه مسلم (١١).
(٣) رواه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، فإذا تدبرنا هذه الدرجات الثلاث وجدناها متضمنة لحديث رسول الله ﷺ أعظم التضمن، فلقد ابتدأ المقام الأول وهو ألَّا يكتب من الغافلين، أي الحصانة من أن يكون من الغافلين، وذلك لمحافظته على القيام بعشر آيات، كما أنها نصت على المقام الأعلى منه وهو [القانتين] فكونه لم يُكتب من الغافلين وارتقى وكُتب من [القانتين]، فهذان المقامان حققهما صاحبهما؛ لقوله ﷺ: «**وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ**»، ثم جاءت الإشارة للقانتين في قوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾، أي هذا حاله وشأنه في الليل، فهذه الديمومة الأعلى، ثم إن الله ﷻ في هذه الآية قد قدَّم ما هو مؤخَّر في الصلاة على ما هو مقدَّم، فقدم السجود على القيام لشرف قرب العبد من ربه زيادة على غيره من الأركان الأخرى، فهو المكان الأقرب، والحال الأقرب من رب العالمين، وهذا حاله كذلك فكان هو المقدَّم، وفيه الإشارة الكافية إلى الحال الأعلى والمقام الأسنى، وهكذا هم المقنطرون.

عظمة المناجاة بـ [ألف آية]، أو التجاوب مع ألف آية: لا زلت منذ صغري - كما هو شأن كل مسلم - وأنا أستمع إلى الأئمة في الصلاة يقرؤون فاتحة الكتاب، ثم يقرؤون وراءها سور الجزأين الأخيرين من بحور [الألف آية] الكريمة هذه .. ولا نزال نحن نقرأ ما تيسر منها في صلاتنا ... فهي الألف المألوفة التي سمعناها، وقرأناها كثيرًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين .. وكأن الله ﷻ أعدَّنا عمرًا طويلًا لحفظها، كما أعد مَن قبلنا لحفظها، فلا أحسب أحدًا ممن سبقنا إلا وحفظ الجزأين الأخيرين، هذا إذا لم يحفظ القرآن العظيم كاملًا .. وقد رأينا ذلك في آبائنا كما رأينا آخرين لم يحفظوا إلا أم الكتاب و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] وقصار السور .. لكن الشاهد هو أن كل الأمة متواصلة متواصية على حفظ الجزأين الأخيرين أو بعضهما، وورثوا ذلك من أئمة الصلاة أساسًا .. بل أساس التواصي بهما هو وصية رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، كما سيأتي معنا بإذن الله تعالى.

فمهما كان القرآن عند بعض المسلمين مهجورًا، **فإن هذين الجزأين - وبهما كان ختام القرآن - مألوفان قريبان حاضران** .. فهما الجزآن الأقربان المتجاوران، والمجاوران المألوفان لحافظتي - أنا المسلم اليوم - المُعدَّان لي، فليس عليَّ إلا أن آخذ منهما شيئًا فشيئًا، وأضع في حافظتي ... وهكذا شيئًا فشيئًا، وكلما جمع الله لي في حافظتي شيئًا أحكمت عليه الحفظ ما استطعت إلى ذلك سبيلًا .. وكررت على ذلك التلاوة، وعايشته وتلذذت به الليل والنهار .. حتى لو كان الحفظ الجديد قليلًا .. فهذه المعايشة تكون في الصلاة وفي غير الصلاة .. مع تحسين الصوت وتحبيره تلذذًا وتقرُّبًا وتزلُّفًا لله تعالى أكثر وأكثر، وأحيانًا مع الحدر بهما والإسراع .. بترتيب السور أولًا بأول كما هو ترتيبها في المصحف الشريف .. فتحفظ السور كما يُحفظ ترتيبها بمعايشة المعاني العظيمة .. فلكأن نفسي هي التي تُنْشَأُ إنشاء من جديد، ولكأن كلمات الله تعالى سحابة تطوف على قلبي فتنطف من عسلها وخيرها وبركتها ونورها عليه وفيه؛ فَعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ : أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ ظُلَّةً تَنْطُفُ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ، فَأَرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ مِنْهَا، فَالْمُسْتَكْثِرُ وَالْمُسْتَقِلُّ، وَإِذَا سَبَبٌ وَاصِلٌ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَرَاكَ أَخَذْتَ بِهِ فَعَلَوْتَ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا بِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا بِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ ثُمَّ وُصِلَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ، وَاللهِ لَتَدَعَنِّي فَأَعْبُرَهَا، فَقَالَ ﷺ: «**اعْبُرْ**»، قَالَ: أَمَّا الظُّلَّةُ فَالْإِسْلَامُ، وَأَمَّا الَّذِي يَنْطُفُ مِنَ الْعَسَلِ وَالسَّمْنِ فَالْقُرْآنُ، حَلَاوَتُهُ تَنْطُفُ، فَالْمُسْتَكْثِرُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْمُسْتَقِلُّ، وَأَمَّا السَّبَبُ الْوَاصِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَالْحَقُّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، تَأْخُذُ بِهِ فَيُعْلِيكَ اللهُ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ بِهِ، ثُمَّ يُوَصَّلُ لَهُ فَيَعْلُو بِهِ، فَأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ، أَصَبْتُ أَمْ أَخْطَأْتُ؟ قَالَ ﷺ: «**أَصَبْتَ بَعْضًا، وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا**»، قَالَ: فَوَاللهِ لَتُحَدِّثَنِّي بِالَّذِي أَخْطَأْتُ، قَالَ: «**لَا تُقْسِمْ**»[(١)].

(١) رواه البخاري (٧٠٤٦)، ومسلم (٢٢٦٩) باختلاف يسير.

وهكذا تكون كل سورة من هذه السور كأنها تلك الغمامة التي كانت تنطف .. والله ـ سبحانه ـ هو مَن يسوق هذه الرؤيا .. ويسوقها بأمر حسي هو أعظم من كل تصور، وكلام الله فوق التصور.

أنا لا أحفظه اليوم لأدخل مسابقة، وأربح جائزة، ثم أنساه .. فأنا والله منذ أن سمعت بمقام المقنطرين لا يزال يتردد في داخلي هتاف لا يكاد يخفت ولا يختفي: هذا لك وحدك فابدأ .. بل هذا لي ففرَّ إليَّ إليَّ ... لا تزال يا عبدي إليَّ ... وأنت تحفظ كلامي حفظًا على صدرك، فإنك في فرار إليَّ .. والليل عندك كالنهار سواء .. فنورك في صدرك في مطلع النهار أو ضحاه أو ظلمة الليلة الظلماء ..

تعال أسمعني، تعال يا عبدي وأقبل شبرًا، وذراعًا، وباعًا، ومشيًا، وهرولة .. فأنا أسرع منك إقبالًا .. تعال قف بين يدي .. واتلُ كلامي عليَّ ... فما من شيء في هذا الوجود أحب إليَّ أن تسمعه إياي من كلامي، أوما بلغك قول رسولي ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**»[1]، هكذا يتمايز الأنبياء عليهم السلام .. وبهذا يتسابقون .. فما بالك بأتباعهم رضي الله عنهم فهل يتنافس العباد بالمحافظة على الأذكار، وأي شيء من ذكري يشبه كلامي؟

أسمعني كلامي: هنيئًا لك يا مَن تذكرني مسبحًا مهللًا محوقلًا حامدًا مرجعًا ذاكرًا لي ذكرًا كثيرًا .. وكل ذلك عظيم .. فهنيئًا لك بهذا الذكر العظيم .. لكنني لا أسمعك تكلمني بكلامي.. لا أسمع ترتيلك كلامي .. لا أسمع أنينك وحنينك مع كلامي .. لا أسمع أناتك وآهاتك تتناغم مع آياتي .. إنها نبعت من إجلالك لي ولكلامي .. نبعت من معرفتك لي بآياتي .. من خشيتك النابعة من عظمة كلامي، أكثير ذلك عليك يا عبدي؟ فماذا ترى الجبل أن يقول لو أنزلت عليه كلامي ؟ هذا إن كان بمقدوره أن ينطق حين أُنزِلَ عليه هذا القرآن العظيم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

(١) رواه مسلم (٧٩٢).

أرأيت جمال استفتاح صلاة الليل ... فما أجمل أدعية رسول الله ﷺ! وما أجمل استفتاح الصلاة في العموم! وما أكثرها! هذا الاستفتاح بكل ما فيه إنما هو استفتاح للابتداء بالقرآن والصلاة .. وكل ما يأتي بعد القرآن إنما هو من جلاله، وجماله، وآثاره، وهداياته، وأنواره، وبركاته .. لذلك هو المادة العظمى في الصلاة .. هو المادة الأعلى والأغلى والأحب عند الله .. هو وحده كلامه، وكل ما سواه فلا، فالأدعية إما كلام رسول الله ﷺ، وإما كلام السائل، وهو أنت .. وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ لا تَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ**»(١)؛ يَعْنِي الْقُرْآنَ.

يا عبدي: لقد طلبتني كثيرًا وطلباتك تفرحني .. سألتني كثيرًا .. سبحتني .. استغفرتني .. هَلَّلْتَ لي .. وما أحسن ذلك! وما أحلاه! وما أعلاه! لكن هذا كله كلامك .. فأين كلامي؟ لِمَ هجرت كلامي عند لقائي؟ بل لم هجرتني إذ هجرت قيام الليل والنهار بكلامي؟ وأنا أعلم أن جوابك: وماذا أصنع يا رب وأنا لا أحفظ من كلامك إلا أم الكتاب وسورًا قصيرة قليلة؟ وما هي بقليلة.

قد جاءتك الآن ألف آية عظيمة كريمة خفيفة قصيرة معروفة مألوفة لديك متتابعة .. كأنها فِرَقٌ من طير صوافّ .. لها زَجْل من التسبيح والأرض بها ترتج .. هداياتها فيها .. فكل آية تهدي لما بعدها .. هذه هي مرحلة حياتك القادمة؟ مرحلة الحياة مع الله بكلام الله .. أَحْفَظُ فيها كلامَهُ العظيم، وأُجِيدُ حِفْظَه أعظم الإجادة والإتقان والإحسان، لأقف به بين يدي الله .. أُسْمِعَهُ لربي، وأي سامع لي مثل ربي ﷻ؟

يا عبدي! اذكرني بما تشاء متى تشاء بما تشاء من أذكار أخرى واردة .. ولكن فلتعلم أن ما رُوي عن رسول الله ﷺ من أذكار اليوم والليلة .. لم يكن هو ذكره كله يذكره في كل يوم وكل ليلة إنما هو مجموع ما رُوي عنه طوال حياته في صباحه ومسائه، ولم يكن كله في كل صباح، وفي كل مساء.

(١) رواه الحاكم (٢٠٥٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

أما قيامه الليل فكان في كل ليلة، وإذا فاته ورده من الليل قضاه في الصباح، كما صح في الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**»(١).

يا عبدي اجمع كل همومك وسؤالاتك واستغفاراتك واستغاثاتك وأنت تنهض إلى قيامك الليل؛ واهتف بربك: يا رب قد آثرت ذكرك على ذكر نفسي، وقدَّمت كلامك على شكواي وهمي .. وطرحت ذنوبي تحت جلال كلماتك ونورها وبركتها وهداها .. لتغفر لي ما قدمت من ذنبي، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، وأن تعفو عني؛ فإنك أنت العفو الكريم ..

عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ، تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا! قَالَ: «**إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ - إِنْ شَاءَ اللهُ - لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»(٢).

يا رب، هب لي ما أردت؛ أظهرتُ أم أضمرتُ، وفضلك أكبر .. يا رب أنت أبر وأكرم .. فما هذا بجوار كلماتك الكريمة التامة بشيء، وأنت القائل(٣): «**مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ، كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**»(٤).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ قَبْرًا لَيْلًا فَأُسْرِجَ لَهُ سِرَاجٌ، فَأَخَذَهُ مِنْ قِبَلِ

(١) رواه مسلم (٧٤٧).

(٢) رواه أحمد (٢١٣٢٨)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) في الحديث القدسي.

(٤) رواه الترمذي (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وقال أبو إسحاق الحويني: والحديث حسن بجملة هذه الشواهد. هامش فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٧٤.

الْقِبْلَةِ، وَقَالَ: «رَحِمَكَ اللهُ، إِنْ كُنْتَ لَأَوَّاهًا تَلَّاءً لِلْقُرْآنِ»، وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا[1].

بينما قائم ليله يتنقل بين المقامات العلية عند الله ﷻ ... ذاهبًا في العلو ذهابًا بعيدًا بعيدًا ... إذا بآخرين حافظين تركوا حفظهم، وعادوا لا قيام ولا تهجد، وللأسف ظنوا الأمر خيارًا لهم، وما علموا برؤيا رسول الله ﷺ ورؤياه حق التي رآها في هذا الصنف العزيز من الناس؛ فَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟»، قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: مَا شَاءَ اللهُ، فَسَأَلَنَا يَوْمًا، فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟»، قُلْنَا: لَا، قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ»، قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا، عَنْ مُوسَى: «أَنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ، أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا، حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلَاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا، حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ، عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ، بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا،

(١) رواه الترمذي (١٠٥٧)، وقال: حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ، وقال محقق جامع الأصول (١١/ ١٤٣): وهو حديث حسن.

فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلَانِي دَارًا، لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا، فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا، هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالَا: نَعَمْ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ، يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُو الرِّبَا، وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ، وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَالدَّارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْـمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»[1].

عظمة التجاوب في قِصَر الآيات:

قصر الآيات:

لو كانت هذه السور القصار والآيات الكثيرة اليسيرة كآيات سورة البقرة أو السبع الطوال كلها فكم نسبة الذين يستطيعون أن يحفظوا ألفًا من تلك الآيات، ويقوموا بها؟

إذن مَن مِن الأمة يستطيع أن يكون من المقنطرين إلا الحافظين أو المقاربين؟ إن هذين الجزأين بآياتهما القصيرات المباركات عطاء الكريم ـ سبحانه ـ لأمة حبيبه ومصطفاه رسول الله ﷺ؛ قدِّم قليلًا - وما هو بالقليل - وخذ ما لم تحلم به أمم سابقة؛ وكأن مناديًا ينادي على هذه الأمة: يا أمة محمد ﷺ، هذا طريق مَن أراد أن يبلغ أعلى مقامات المقربين؛ ومنه إلى مقام المقنطرين؛ قد فُتح لكم فهلموا .. إنه طريق ممهد واسع عظيم قريب يوصلكم إلى تلك الغاية في أقصر وقت، وبلا تكليف، وقصر هذا

(١) رواه البخاري (١٣٨٦).

الطريق من قصر الآيات المباركات، وكل خطوة في هذا الطريق غاية؛ لأن كل خطوة فيه آية، فهي ألف غاية، ومنتهى غايات الألف إنما هو [مقام المقنطرين] .. وما أدراك ما [مقام المقنطرين]؟ فماذا يا ترى في هذا المقام؟ وأي رفعة سيرفع الله إليها عبدًا من عباده حين يخصهم بما لم يخص به أحدًا من الناس، بل وكثيرًا من المؤمنين؟

ومَن كان يدري أن هذين الجزأين يبلغان ألف آية لولا فضل الله علينا الذي جعل ما بين الآية والآية فصلًا وعلامة وَصْل، وفي وسطها رقم.

كل فاصلة ما بين الآية والآية إنما هي منارة نور تستقي من كلمات الله نورها .. فكم أنوار الفواصل ساطعة في صفحات المصاحف في الجزأين الأخيرين على وجه الخصوص .. على وجهٍ لا مثيل له ... ثم يأتي مَن يقول: لِمَ هذه الآيات قصيرة ؟ إنها المزية الكبيرة والنعمة والشعيرة، حقًّا إنها آيات قصيرة .. لكنها آيات كما قال النبي ﷺ: «**لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللهِ مِنْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾** [الفلق:١]»[(١)] .. وهذه صبغة [الألف آية] .. تزيد من آية لآية، ولا تنقص أبدًا.

نعم إنها آيات قصيرة من كلمتين، أو ثلاث، أو أربع، تزيد قليلًا ولا تنقص .. لكن معانيها محكمة، وترابط آياتها واحد معجز منتظم، وسجعتها واحدة، فإن تغيرت فلا يزيدها التغيير إلا جمالًا، وانتظامًا، وإحكامًا، وبيانًا.

آياتها القصيرات ... الكاملات التامات .. تراها تسير منفردات، والحقيقة أنها تسير جماعات ... جماعات، كل مجموعة من المجموعات تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ... وانظر في أي سورةٍ منها شئت، انظر في سورة عَمَّ مثلًا، وسترى صنيع مجموع الآيات إذا توجهت لهدف في النفس أو في الواقع .. فيا ألله، أي صنيع تصنع هذه الآيات القصيرات وهن التامات وقد سِرن إلى غايتهن في مواكب تتلوها المواكب، وكتائب تتلوها كتائب؟

---

(١) رواه النسائي (٥٤٣٩)، وأحمد (١٧٣٤١)، وابن حبان في صحيحه (٤٣٢)، والحاكم (٤٠٣٠)، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

آيات مفردات فذات معدودات .. هن العجب العجاب، إذا تحدث الله فيهن فحديثه ليس مثله حديث ﷺ، فيهن من الجذب للعقل والتدبر ما يعوض عن التطويل الذي تستطيع العود إليه أحيانًا قبل أن تنتهي الآي .. لكن هنا العود سريع، والعود كثير ومتكرر وفوري .. فإذا بالقلب لا يكاد يستغيث كمثل مَن يسير في طريق فيه منارات كثيرات ساطعة .. فلا تكاد تغفل عن منارة حتى تأتيك التي بعدها، فإذا بك منتبه عائد حاضر، فأي نعمة مثل كونها آيات كثيرات في صفحة متزاحمة؟ والحمد لله رب العالمين.

فهذا قارئ يوقظه العدد الكبير من الآيات .. وهذا تنبِّهه الانطلاقة بعد التوقف .. وكلما زاد تكرار الانطلاقات سوف تستمر اندفاعته، وتشتد أكثر وأكثر، وهكذا هو القلب مع هذه الآيات القصيرات.

هذا ينقذه يوم القيامة عدد الآيات .. فعدد الآيات شفاعات .. وشهادات .. وصحبة .. فكثرتهن كثرة للخيرات.

وهذا يرفعه في الجنة كثرة عدد الآيات؛ إذ بكل آية درجة، وفي ألف آية ألف درجة في الجنة.

هذا ينفعه كثرة الطَّرْق، وشدة سرعته، وتلاحق نبرته، وعظمة سلطانها، فكم يستفيق السادرون في غيهم عند هذه الآيات، فهذا توقظه سرعة الآيات، وهذا قلة كلماتها بسرعة عودته لقرب عهده لنقطة فراق عقله أنوار كلمات ربه هي أعظم مشروع لصنع العبد الأواب.

فما أعظم الآيات القصيرات! وأعظم نداءها في ختام القرآن العظيم! يصيح بالقارئين كافة؛ أن يأيها الإنسان! ألا ترى قصر الآيات وقلة كلماتها؟ ألا تسمع تلاحق الأنفاس وشدة زفراتها؟

إذن أسرع؛ فإنك في ختام القرآن .. فالسابق مَن يسبق في الختام أسرع، والطريق سهل وقريب.

يا مَن حفظت [الألف آية] أسرع، فإنك أصبحت صاحب ألف آية، والنبي ﷺ يقول: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(١)، فمتى تبلغ ألف آية؟

أسرع يا مَن لزمك تبليغ ما حفظت، فإنك نَجْدة .. أسرع فإن الكثيرين يسقطون في مستنقعات الفتن والناس ينظرون ... وكثيرون كلَّ يومٍ يرحلون إلى النار وهم كافرون .. أسرع فإن لم تتحرك لإنقاذ هؤلاء فمَن ينقذهم؟

أدرك فقد فاتك القرآن العظيم كله فاستدرك، فلقد هيَّأ الله لنا الفرصة من جديد، فكم تصوَّر الناس بعد انتهاء موقف عرفة العظيم أنه لا عوض .. فإذا بالله يجعل مزدلفة بعد عرفة ليطيل المرء فيها الدعاء من بعد صلاة الفجر إلى قبيل الشروق، ليذكِّره ربه ـ سبحانه ـ بما نسي ومَن نسي في عرفة، فيقول ـ سبحانه ـ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [سورة البقرة]، وهكذا صنع النبي ﷺ في مزدلفة؛ **فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، وَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَدَعَاهُ، وَكَبَّرَهُ، وَهَلَّلَهُ، وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ**(٢)، وجعل ستة من شوال بعد رمضان، وجعل بعد صلاة الفريضة الاستغفار وصلاة السنن والدعوات مجابات، ومَن نسي، أو فرَّط، أو قصَّر طوال الجمعة، فقد ادَّخر الله له في آخرها ساعة الإجابة، وجعل ليلة القدر في العشر الأخير، وجعل لليوم الأخير من رمضان مكانة خاصة؛ ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُعْطَيْتُ أُمَّتِي فِي**

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسَ خِصَالٍ لَمْ تُعْطَ أُمَّةٌ قَبْلَهُمْ: خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ المَلَائِكَةُ حَتَّى يُفْطِرُوا، وَيُزَيِّنُ اللهُ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ، ثُمَّ قَالَ: يُوشِكُ عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمُ المَؤْنَةَ وَالأَذَى، وَيَصِيرُوا إِلَيْكَ، وَتُصَفَّدُ فِيهِ الشَّيَاطِينُ فَلَا يَخْلُصُونَ فِيهِ إِلَى مَا يَخْلُصُونَ فِي غَيْرِهِ، وَيُغْفَرُ لَهُمْ آخِرَ لَيْلَةٍ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هِيَ لَيْلَةُ القَدْرِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَكِنَّ العَامِلَ إِنَّمَا يُوَفَّى أَجْرَهُ إِذَا قَضَى عَمَلَهُ**»[(١)]، وجعل العوض في آخر اليوم كل الصيام .. فالله ـ سبحانه ـ أعلم بعباده وضعفهم، وأعلم بأوبتهم، وندمهم، فهيَّأ لهم ما يستثمر ضعفهم، ويعوِّض نسيانهم، أو تفريطهم.

وكم تذهب التفاعلات والتجاوبات والدعوات في الآيات القصيرة؛ إذ تتابع الآيات وتتسارع، وكأن القارئ يريد إيقاف التلاوة، لكي يسأل ربه ـ سبحانه ـ فلا يُمكِّنه هدير الآيات القصيرة وشدة ترابطها، وسلاسة سيرها، واندفاع بعضها إثر بعض، وقوة فيضها، فلا يملك التوقف إلا بعد كَمٍّ كريمٍ من الآيات، وبعدها يجمع كل سؤال خطر على قلبه بكلمة واحدة يفضي بها من قلبه إلى ربه: [يا رب]، أو نحوها مضمرًا فيضًا من الأدعية، كما قال النبي ﷺ في تجاوبه مع آيات ربه ـ سبحانه ـ تلك الليلة بقوله: «**اللَّهُمَّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**»[(٢)]، وكان لا يزيد، علمًا بأن همَّ الأمة عنده ﷺ وهمومها لا تُحدُّ ولا توصف ... كيف وقد أعلمه الله ﷻ بكل ما سيقع فيها، وكل ما ستقع فيه، فهو ﷺ يعلم مراد الله ﷻ بكل ما أنزل، فحال الأمة إلى يوم القيامة مكشوف عنده رأي العِيان، كما ورد في حديث، بل أكثر ..

في مثل هذا الحال المشفق، والخوف المقلق، والرجاء بالله وحده متعلق، ومن كلمات الله متدفق هنا علم الله كافٍ، ويقين القارئ ومعايشته وخشوعه عوض وافٍ

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٣٣٠)، وأحمد (٧٩١٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف جدًّا.

(٢) رواه مسلم (٢٠٢).

وشافٍ، هنا إعلان الدعاء بقول: يا رب، هنا الآهة دعاء، ورفع اليد أو الإصبع ضراعة، هنا الدمعة دعوة مجابة، هنا وبعد مجموعة واحدة من الأدعية وكلمة يا رب يصيح بها القلب، ويخافت بها اللسان عظمة مشرقة ودعوة محققة.

فالله ـ سبحانه ـ يعلم بباعث الإشارة، وأحيانًا بالآهات، وأحيانًا بالدمعة، وأحيانًا برفع اليد، وأحيانًا بقلب اليد؛ وأحيانًا برفع الشاهد كما في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَسْقَى، فَأَشَارَ بِظَهْرِ كَفَّيْهِ إِلَى السَّمَاءِ** [١]، قال النووي رحمه الله: قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرُهُمْ: السُّنَّةُ فِي كُلِّ دُعَاءٍ لِرَفْعِ بَلَاءٍ كَالْقَحْطِ وَنَحْوِهِ أَنْ يَرْفَعَ يَدَيْهِ، وَيَجْعَلَ ظَهْرَ كَفَّيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَإِذَا دَعَا لِسُؤَالِ شَيْءٍ وَتَحْصِيلِهِ جَعَلَ بَطْنَ كَفَّيْهِ إلى السماء[٢]، هنا ما يتجلجل في الصدر من عظائم الطلبات ولا تكفيه الكلمات مما لا يعلمه إلا الله .. ويكفينا فيه علم الله .. وتحريك القلب المفجوع كافٍ عن كل لسان وبيان .. ولقد تحرك قلب رسول الله ﷺ بهذا .. فبكى وبكى ثم بكى، «**اللَّهُمَّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ [٣].

وهذا الهتاف كله إنما يأخذ عظمته من كلمات الله؛ ولذلك فالله يعظمه .. وهذا كله نَبَع كأثرٍ من آثار جلال معاني كلام الله على القلب فتفجره، وهذا كله عند الله حبيب، ورفيع، وعليٌّ، وعظيم، ومجاب ..

فلا تَكَلُّفَ هنا ولا تطويل ... وكل واحدٍ بحسب حاله، والله ﷻ يعلم بكل واحدٍ وحاله ..

ولا أزال أذكر ليلةً في رمضان قرأت فيها البقرة، وقد قرأتها والهمُّ عظيم يومها

(١) رواه مسلم (٨٩٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (٦/ ١٩٠).

(٣) رواه مسلم (٢٠٢).

لنفسي وأهلي ولمن حولي ومن قرب وبعد ولأمة محمد ﷺ، فما كنت أزيد في التجاوب مع كل آية بأكثر من كلمة [يا رب] موكلًا علم ما في قلبي إلى ربي، وقد انبعثت كلمة [يا رب] من أعماق أعماقي إلا من أثر آيات سورة البقرة .. فما من آية قرأتها تلك الليلة من آيات سورة البقرة إلا فجرت في أعماقي تجاوبًا، وحركت قلبي بنشدة ربي: [يا رب]، وهكذا كان لكل آية نشدتها، ولكل آية نشيجها، ولكل آية على قلبي وطؤها، وأثرها، وما كنت أزيد على [يا رب] .. وربي وحده مَن يعلم حجم النشدة التي ينشدها كل عبدٍ ربه ﷻ، واستحثتني سورة البقرة أن أكرر هذه التجربة في التجاوب الحي المجيب.

وفي هذه الكلمة [يا رب] أو [يا ربي] أو نحوها دعاء الضراعة تضرعًا وخفية، فهي ضراعة؛ لأنها مسموعة: يا رب، وهي خفية؛ لأنها ظللت تحتها، وأشارت إلى مجاميع كثيرة من الطلبات، وأخفتها عن سَمْع أذني وما خفيت على ربي ـ سبحانه.

الفصل الرابع:
العظمة في سور الجزأين الأخيرين

العظمة في جزء تبارك:

إن رب العالمين ﷻ قد قدم للعبد بحكمته سورة لم يكن لها إلا أن تكون المقدمة وفي المقدمة، كيف، لا وهي [سورة الملك] هي التي جعلها في المقدمة؛ إذ العبد طوال حياته في قدوم على الله، فهي العُدَّة للإقامة لأول دار قادمة، ولأخطر المخاطر اللازمة – دار البرزخ – البرزخ، وما أدراك ما البرزخ! هو في دار الدنيا وهو أول دار الآخرة؛ فالبرزخ أول مراحل الآخرة؛ إذ دار الدنيا قائمة، هكذا إرادة الله، فالناس مشغولون بدنياهم، وهناك الحساب في البرزخ قد ابتدأ .. بل حساب الميت قد ابتدأ فعليًّا قبل أن يفارقه أهله عائدين إلى دارهم؛ إذ هو حلَّ في داره الغريبة .. ويا لها من دار، وقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْـمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ**»[(١)]، نعم: الآن يسأل قبل أن تفارقوه عائدين إلى الحياة الدنيا، وإن أخطر ما يخافه هو الذنوب التي ذهبت معه وصَاحَبَتْهُ؛ لهذا فالطلب منكم أيها الحضور الاستغفار، كما أن هذا الموقف موقف يزلزل ويجلجل؛ لذلك فإن الخطورة الآن في التزلزل وعدم الثبات؛ ولذا جاء الطلب: «**وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ**»، ويعلم الله ـ سبحانه ـ أن الأحياء بعد فترة سوف ينسون الآباء والأمهات والإخوة والأخوات والصحب والقرابات ... فمَن لهؤلاء في القبور، والشفاعات العظمى لم تبتدئ بعد لأن الحشر لم يبتدئ بعد؟ وكيف لا يَنْسى هؤلاء الأحياء تمامًا وقد عادوا ثانية إلى الحياة المذهلة عن الأحياء فضلًا عن الأموات؟ ولسوف يأتي بعد هؤلاء الأحياء أجيال وأجيال فكيف لا ينسى الأحياء الجدد أولئك

(١) رواه أبو داود (٣٢٢١)، وصححه الألباني.

الأموات وقد جاءت بعدهم أجيالٌ لم يعرفوهم إلا بحكايات وذكريات؟ كما نسي مَن قبلهم .. من هنا ما كان الراحلون بحاجة لشيء أعظم وأكبر من أول حماية لأول دار .. وهي دار الحساب، فالذنوب موجودة والحساب قائم .. والعذاب مفصل تفصيلًا .. ما كان هؤلاء الراحلون بحاجة صاحب، حارس، مدافع، وشاهد، وشافع، فكانت [سورة الملك] هي الجواب، وكانت هي الصاحب، بل هي أول الأصحاب .. وكانت هي الحراسة الكاملة لكل أنواع العذاب والحراسة لكل أعضاء حاملها وحافظها وصاحبها .. كما كانت سورة الملك هي مطلع [الألف آية] .. فما أكرمه من مطلع! وما أبركه على صاحبه! وما أعظم أمانهُ وضمانهُ! هكذا هو فضل الله، ورعايته لعباده ... آهٍ، ثم آهٍ، ثم آهٍ على مَن فرط .. رُحْماك ربي بمَن رحلوا، رحماك.

فَعَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: يُؤْتَى الرَّجُلُ فِي قَبْرِهِ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَتَقُولُ رِجْلَاهُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، قَدْ كَانَ يَقُومُ عَلَيَّ بِسُورَةِ الْـمُلْكِ، قَالَ: فَيُؤْتَى جَوْفُهُ، فَيَقُولُ جَوْفُهُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، قَدْ وَعَى فِيَّ سُورَةَ الْـمُلْكِ، قَالَ: فَتُؤْتَى رَأْسُهُ، فَيَقُولُ لِسَانُهُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، قَدْ كَانَ يَقُومُ فِي بِسُورَةِ الْـمُلْكِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هِيَ الْـمَانِعَةُ - بِإِذْنِ اللهِ ﷻ - مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَهِيَ فِي التَّوْرَاةِ سُورَةُ الْـمُلْكِ، مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْيَبَ[1].

إذن فالعذاب قادم قادم .. يزحف إلى هذا الذي عادت له روحه الآن، وابتدأت حياته الجديدة في البرزخ .. وأول ما يزحف من جهة رجليه .. يريد الابتداء بهما، فهنا طلعت سورة الملك في وجه العذاب فردته، وردته الرجلان باسم سورة الملك .. وهما يقولان: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، قَدْ كَانَ يَقُومُ عَلَيَّ بِسُورَةِ الْـمُلْكِ .. ويقوم عليَّ؛ أي: قيام الليل أو قيام النهار .. وهذا ما يعني أنه كان يحفظ سورة الملك، فيتجاوز العذاب الرجلين، ويتخطاهما إلى أعلى منهما، إلى الجوف من بطن

(١) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن ص (١٠٥) رقم (٢٣٢)، والحاكم (٣٨٧٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

وصدر وما هنالك، فيرده الجوف نفسه؛ وذلك لأنه حفظ سورة الملك ووعاها، فإنه إذا نسب القرآن للجوف فمعناه الحق هو حفظ القرآن في الجوف؛ فعن ابن عباس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»(١)، ثم يتجه العذاب - ويا له من رعب - إلى الضربة الأخيرة في الرأس .. فيقول لسانه - واللسان من الرأس: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، قَدْ كَانَ يَقُومُ فِي بِسُورَةِ الْـمُلْكِ، إذن فهذا العذاب ليس عشوائيًّا، إنما هو معروض على كل داخل ـ رجلًا كان أم امرأة ـ مستحق للعذاب، والعذاب مأمور بالتنفيذ على هذا المستحق .. هنا كان المانع الذي لا يمكن تجاوزه إنما هو معية سورة الملك له .. فهي معه في جوفه؛ إذ هو في قبره، فسورة الملك في الصدر، والقلب، والرأس، فهذا العبد والجديد على هذه الدار لم يكن معصومًا من الذنوب .. بل عليه ذنوب وذنوب، ولكنه كان قوام الليل بسورة الملك، وقد جاء في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لَا يَحْسَبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١] حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ، وَأَنَا لَا أَحْسَبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ الْـمَانِعَةُ، هِيَ الْـمُنْجِيَةُ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»(٢)، هكذا جاءت سورة الملك أولًا؛ لأن النجدة والإنقاذ أولًا .. وكان الابتداء بها أولًا، ومن يدري فلعل مَن لا يبتدئ بها أولًا في الحفظ يرحل قبل أن يتم الحفظ .. فليرحل، وليأخذ معه حراسته وكفالته، وكفى بالله وكيلًا.

وهكذا تمر بعد سورة الملك من هذا الجزء فإذا كل سورة عالم ... عالم في عالم، قصص أقوام إثر أقوام، وما من قصة إلا تعنينا - أمة محمد ﷺ - إذ القوم

(١) رواه الترمذي (٢٩١٣)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٠)، وذكره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ١٣١).

الذين مروا إنما هم ذهبوا، وأصبحوا عبرة لمَن أنزل القرآن عليهم أن اعتبروا .. وما من سورة إلا وتحمل البشارة القريبة القادمة لرسول الله ﷺ، ولأمة محمد ﷺ.

فبعد سورة الملك تأتي سورة القلم، ثم الحاقة، ثم المعارج، ثم نوح، ثم الجن، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم القيامة، ثم الإنسان، ثم المرسلات .. والمرسلات ترسلنا إلى الجزء الخاتم، ومطلعه سورة النبأ .. فما هذا الجزء إلا إحدى عشرة سورة مباركة كريمة.

فلننظر إلى هذه السور المباركة، وسنجد أنها سور لها دورها العظيم .. دورها التأسيسي في حياة رسول الله ﷺ، انظر في كل سورة:

العظمة في اجتماع أول ما نزل من القرآن فيهما: ماذا يعني أن يكون أول ما أنزل من القرآن العظيم في هذين الجزأين؟

ماذا يعني أن تكون أول كلمات الله إلى أهل الأرض في أعظم رسالة، وأعظم رسول، وأعظم كتاب، إنما هي في هذين الجزأين؟

أليس التأسيس الأول لهذه الأمة كان في الابتداء، وأن الأولية من آيات الله كانت في هذه السور التي أنزلها افتتاح قلب رسول الله ﷺ؟ فمن هذا الجزء ابتدأت قصة أعظم رسالة ... وبهذه الآيات الخمس الكريمات، ولحقها قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [سورة المدثر] إلى آخر السورة، ولحقتها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [سورة المزمل]، ومن بعد ذلك ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [سورة النجم]، مع تقديم أو تأخير .. لا يضر، ويكفي أن يكون من ضمن الألف الذي تحفظه ... وقد كانت تلك السور القصار ذات مهام كبرى في المرحلة الأخطر من رسالة رسول الله ﷺ.

العظمة في سور جزء عم، والعلاقات الوثيقة بها:

ويأتي جزء عمَّ وهو طعم جديد، وسياق جديد، ونسق جديد .. ولا أدري عن أي سوره أتحدث في هذا المختصر السريع، ومن سوره المتقدمة سور قال فيها الرسول

ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ»، فَلْيَقْرَأْ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار:١]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]»[(١)].

فسبحان الله فبعد سورة الملك ومفعولها في القبور والبرزخ والحساب فيه، يأتي هذا الجزء العظيم الأخير ليبتدئ بالسور التي تجعل القيامة كأنها رأي العِيان، وأترك هنا المسلم وهو يستمع أو يقرأ قول رسول الله ﷺ في سور من هذا الجزء لنرى جميعًا كيف خصها النبي ﷺ .. وكيف قسمها على يوم المسلم وليلته وعلى خلوة المسلم وجمعته، وعلى أعياد المسلم وشفعه ووتره .. إنها ليست تقسيمات مجردة، بل إنها صناعة حياة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .. إن النبي ﷺ حين يقسمها نعرف أنه ﷺ إنما يصنع علاقات بيننا وبين سور من هذا الجزء المبارك خاصة ومع كتاب الله كله عامة، والحقيقة أنها صناعة العلاقة بالله ﷻ في الليل والنهار .. ولو تدبر المرء الصلوات والتوقيتات وهُدِيَ لها لوجد أن في ذلك التخصيص تكمن الحكمة البالغة.

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ، بِـ** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، **و**﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١][(٢)].

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ بِـ** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، **و**﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[(٣)].

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: **كَانَ رسول الله ﷺ يَقْرَأُ فِي الوِتْرِ بِـ** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، **و**﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، **وَ**﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٣)، والحاكم (٨٩٧٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم (٨٧٨).

(٣) رواه أحمد (٢٠١٥٠)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[الإخلاص:١]، **فَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى مِنَ الْوِتْرِ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَفِي الثَّالِثَةِ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**(٢).

وَعَنْ جَابِرٍ ﵁ قَالَ: كَانَ مُعَاذٌ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي فَيَؤُمُّ قَوْمَهُ، فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ، فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ (الْبَقَرَةِ)، فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ، فَقَالُوا لَهُ: أَنَافَقْتَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ، وَلَآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَأُخْبِرَنَّهُ! فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ، نَعْمَلُ بِالنَّهَارِ، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَى فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ (الْبَقَرَةِ) فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ اقْرَأْ بِكَذَا، وَاقْرَأْ بِكَذَا**»، قَالَ سُفْيَانُ: فَقُلْتُ لِعَمْرٍو: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ حَدَّثَنَا، عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ: اقْرَأْ **﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾**، و**﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾**(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ لَهُ: «**اقْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ ذَاتِ ﴿الٓرۚ﴾**»، فَقَالَ الرَّجُلُ: كَبِرَتْ سِنِّي، وَاشْتَدَّ قَلْبِي، وَغَلُظَ لِسَانِي، قَالَ: «**فَاقْرَأْ مِنْ ذَاتِ ﴿حمٓ﴾**»، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ الْأُولَى، فَقَالَ: «**اقْرَأْ ثَلَاثًا مِنَ الْمُسَبِّحَاتِ**»، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَلَكِنْ أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللهِ سُورَةً جَامِعَةً، فَأَقْرَأَهُ: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾** [الزلزلة:١] حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا قَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا، ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ، أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**عَلَيَّ بِهِ**»، فَجَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ: «**أُمِرْتُ بِيَوْمِ**

---

(١) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد: إسناده صحيح.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٠٧٧).

(٣) رواه مسلم (٤٦٥).

الْأَضْحَى، جَعَلَهُ اللهُ عِيدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ»، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا مَنِيحَةَ ابْنِي، أَفَأُضَحِّي بِهَا؟ قَالَ: «**لَا، وَلَكِنْ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ، وَتُقَلِّمُ أَظْفَارَكَ، وَتَقُصُّ شَارِبَكَ، وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ، فَذَلِكَ تَمَامُ أُضْحِيَّتِكَ عِنْدَ اللهِ**»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**»، فَقَالَ: «**خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فَقَدْ رَأَيْتُهَا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾** [سورة النصر](٢).

لماذا أُبَيٌّ ﵁؟ حقيقة الأمر أن الله ـ سبحانه ـ يربط علاقة ما بين أبيّ بن كعب ﵁ وبين سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ [البينة: ١]، وَعَنْ أَبِي حَبَّةَ الْبَدْرِيِّ ﵁ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة البينة] إِلَى آخِرِهَا، قَالَ جِبْرِيلُ ﵇: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَهَا أُبَيًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ هَذِهِ السُّورَةَ**»، قَالَ أُبَيٌّ: وَقَدْ ذُكِرْتُ ثَمَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: فَبَكَى أُبَيٌّ(٣).

وهنا أمور؛ أما الأول: فكفى أُبيّ ﵁ شرفًا أن يقرأ النبي ﷺ عليه وبشكل خاص ومنفرد .. إلا أن الذي سأل عنه أبي ﵁ متحقِّقًا مستعظمًا أعظم الاستعظام: أن يأمر الله ﷻ رسول الله ﷺ بأمره ـ سبحانه ـ وأن يسمِّيه رب العالمين باسمه .. إذن فالأمر هنا ليس أمرًا معتادًا، لا؛ إنه أمر خاص وباسم أُبيّ .. فهل ترى بعد هذا سوف يتلقى أُبيّ هذا الخبر ويقرؤه كبقية سور القرآن، أو يقرؤه كما يقرؤه بقية القراء من الصحابة ﵃ فضلًا عن غيرهم .. إنها علاقة أرادها الله ﷻ لأُبيّ بهذه السورة، والله أعلم بأُبيّ

(١) رواه أحمد (٦٥٧٥)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه مسلم (٤٨٤).

(٣) رواه أحمد (١٦٠٠١)، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره.

ﷺ وأعلم بكلامه ـ سبحانه ـ مما يعني أبيًّا ﷺ .. ومثل أبي في الأمة كثيرون ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦] .. ولسوف يبقى أُبيّ ﷺ طيلة حياته يستخرج السرَّ وراء هذه الخصوصية له مع هذه السورة خاصة .. ولسوف يهيج مستغيثًا بالله الليالي تلو الليالي ليزيده الله مما فيها .. ولا شك أن الله ما أمر رسوله ﷺ ليُعْلِمَهُ، ثم هو ـ سبحانه ـ يحرم أُبَيًّا ذلك، بل الله ﷻ يُعْلِمَه ويفتح عليه ..

الأمر الثاني: أليست هذه أظهر ما تكون بالخصوصية لأُبيّ ﷺ؟ إلا أنها أعظم ما تكون من رسالة لكل واحدٍ في الأمة أن ابحث .. فما من أحدٍ إلا تستحثه الخصوصية للبحث عن كنزها وعظيم نفعها .. لأن ما من أحدٍ إلا وهو يعلم أن هذه السورة لم تنزل على أُبيٍّ وحده، ولن تبقى لأبي وحده، بل نزلت حالها حال أي سورة في القرآن العظيم فنحن المعنيون .. وهذا يدفعنا أكثر للبحث عن علاقة بين أُبيّ وبين هذه السورة العظيمة، وأن نتحقق من هذا الأمر، وذلك بأن نُقيم أنفسنا مقام أُبيٍّ ﷺ .. وهكذا يُنشئ رب العالمين العلاقة ما بين سور هذين الجزأين وبين المسلم حتى فيما يظهر أن السورة خاصة.

وأمر ثالث: هو أن أُبَيًّا ﷺ أقرأ أصحاب رسول الله ﷺ، ومع هذا فإن الأمر جاء لرسول الله ﷺ أن يقرأ عليه ليس القرآن كله ولا سورة البقرة وآل عمران .. وأنعم بهما وأعظم، وأنعم بالقرآن كله، ولكن لحقيقة اهتمام هؤلاء أئمة القرآن على طول الزمان بالجزء الأخير والذي قبله؛ لئلا يكون مصيرهما الإهمال ... بل ليكون نصيبهما مزيد الاهتمام لئلا يفوت ما جعل الله من خزائن فيما جعله في الآخر.

وأمر رابع: هذه هي الخصوصية لدرجة أن يذكر الله اسم أُبَيٍّ ﷺ .. هذه هي العلاقة العظيمة .. ومع هذا فها هي هذه السورة المباركة تبقى للأمة كافة وللناس أجمعين، وقد بقيت السورة وذهب أُبَيٌّ ﷺ، وله عند الله خصوصية بذاك الشرف .. أي أمر الله النبي ﷺ بقراءتها عليه، ويبقى الشرف لكل مسلم أقام نفسه مقام أُبَيٍّ ﷺ

.. إذ أقام نفسه هذا المقام العظيم وربنا بنا عليم .. وهذا يجعلنا كلما قرأناها تدبرناها أكثر وأكثر، وفتح الله علينا فيها وأكثر، وهذا من باب قول النبي ﷺ لِرَجُلٍ أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤] قَالَ الرَّجُلُ: أَلِيَ هَذِهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي»[(١)]، فإذا كان تلقي القراءة لأُبَيٍّ من رسول الله ﷺ، والأمر من الله لأبي، والتسمية من الله لأبي رضي الله عنه، فإن الإنزال وهو الأصل الذي يسع الجميع ويفيض ... فإنه لبقية الصحابة رضي الله عنهم، ولنا، وللناس كافة.

وإني لأحسب أن الله ﷻ أعطى أُبَيًّا ما خصه لهذا المقام وهذه العلاقة، وأنه أضاف له ـ سبحانه ـ ما استحقه وزاده، وأن أُبَيًّا قد قدَّم لهذه العلاقة أسبابها مع ربه، وهذا من باب: «**وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[(٢)] ... وهذا يجعل كل مسلم يقرأ كتاب الله قراءة خاصة ليكون له القرآن خاصة ... ولا يشترط أن يعلمها اليوم، أم لم يعلمها؛ فالله ﷻ عَلِمَها، ثم إنه لا يعود من صحبة كتاب الله أحدٌ خائبًا مطلقًا، ولن يفوت الله ﷻ مكافأة أي باذل وراجٍ وحريص بأحوج ما يحتاجه في الدنيا والآخرة.

العلاقة ما بين سورة [والتين والزيتون] وبين البراء بن مالك رضي الله عنه:

عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: **سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ**[(٣)].

رضي الله عنك يا صاحب رسول الله ﷺ؛ إذ رويت لنا ما هيَّج الأرواح نحو رسول الله ﷺ؛ إذ نحن الذين في آخر أمته .. وكأن ترددات ذاك الصوت العلي الجلي

(١) رواه البخاري (٤٦٨٧).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥).

(٣) رواه البخاري (٧٥٤٦).

الجميل من ذاك الزمان من رسول الله ﷺ يطرق قلوبنا فتحار في جماله وكماله وجلاله .. فكيف لو طرق ذاك الصوت الكريم أسماعنا؟

رضي الله عن سيد الشجعان المقدام راوي هذا الحديث، وهو شاهده – البراء بن مالك – الذي قذف نفسه من بين أُسد الله في الأرض – أصحاب رسول الله ﷺ – في الموت ولا يبالي ... وفي كل مرة إذا ضاقت الحيل على الفاتحين، وأغلق باب الفتح فتحه الله بالبراء بن مالك ﷺ؛ ولهذا أوصى الفاروق عمر ﷺ قادة الفتوح رسالة: لا تستعملوا البراء على جيش، فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم[(١)].

وهنا يروي البراء بن مالك بعد زمان من فراق رسول الله ﷺ وحنينه إليه بعد موته .. بفترة قصرت أو طالت سواء .. فإن ذلك الصوت الجليل الجميل ما فارق قلب البراء ﷺ وإن فارق الصوت أذنه وفارق صاحبُ الصوت هذه الحياة ..

وسبحان الله العظيم! سبحان الله وبحمده! ما استطاع البراء ﷺ أن يقدِّم لنا وصفًا محددًا لصوت رسول الله ﷺ، وما ذلك إلا لأنه فوق كلِّ وصفٍ؛ ولذا قال ﷺ عن صوت رسول الله ﷺ: «**فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا، أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ**».

كم سمع البراء بن مالك ﷺ من أصوات بالقرآن! كم سمع من ألحان هي أحلى وأجمل ألحان من مزاميرها العظام! وهل يخفى على أحدٍ بين أهل المدينة كافة صوت أبي موسى الأشعري ﷺ الذي قال له رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا مُوسَى، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[(٢)]؟ يقول البراء: لا وألف لا ... ولا صوت أبي موسى الأشعري ﷺ .. هنا صوت رسول الله ﷺ هنا شيء آخر ... فأبو موسى ﷺ ومزامير آل داود لا يذكرون في هذا الجناب العلي، وهو القائل ﷺ : «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ**»[(٣)]، وهل أذن الله ﷻ لنبي ما أذن لرسول الله ﷺ، رضي الله

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩٦)؛ أي لفرط شجاعته ممكن يدخل الجيش في معركة تهلكهم إذا كان أميرهم.

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨).

(٣) رواه مسلم (٧٩٢).

عنك يا إمام الإقدام: يا مَن تَهِيجُ عنده ذكرى رسول الله ﷺ كلما غاب الشفق عن الأفق، ودخل وقت العشاء، وقمت لصلاتها لله قانتًا تذكرت ذاك الصوت الحبيب ﷺ الذي لم تسمع أذنك ولا أذن بشر مثله أبدًا ... وجاءت كلمات الله في هدأة العشاء وصوت رسول الله ﷺ يسري ويسري، ثم يسري؛ فإذا به تجاوز الآذان وبلغ القلوب .. وتشرق به الصدور هنا نفهم بعض شيء من قول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

البراء بن مالك هذا الذي لا يزال ذوقه أسيرًا لنغم رسول الله ﷺ وجماله وجلاله؛ فقال قولته: فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ، فإنه ﷺ ذاك الرجل الذي يعرف التغني جيدًا.

فعن الإمام محمد بن سيرين قال: إن أنس بن مالك دخل على أخيه البراء وهو يتغنى، فقال: تتغنى؟

قال البراء: أتخشى عليَّ أن أموت على فراشي، وقد قتلت تسعًا وتسعين نفسًا من المشركين مبارزة، سوى ما شاركت فيه المسلمين؟[(١)]

وفي رواية: يا أخي، تتغنى بالشعر؟ وقد أبدلك الله به القرآن؟[(٢)]

هذا البراء ﷺ الذي روى أخوه أَنَسٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَمْ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ذِي طِمْرَيْنِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّ قَسَمَهُ، مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**»[(٣)].

ويوم أن لقي المشركون المسلمين في معركة تستر، وأثخن الفرس في المسلمين، جاء الناس إلى البراء فذكَّروه، يَا بَرَاءُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى**

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩٨)، وقال محققه: إسناده ضعيف لضعف أبي سهل، لكن الحاكم أخرجه (٣ / ٢٩١) من طريق: عبد الله بن عوف، عن ثمامة بن أنس، عن أنس، وصححه، ووافقه الذهبي. وذكره الحافظ في (الإصابة) (١ / ٢٣٦) عن البغوي، وقال: بإسناد صحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩٨).

(٣) مشكل الآثار (٢/ ١٥٧) رقم (٦٧٦)، والترمذي (٣٨٥٤)، وقال الأرنؤوط: صحيح.

اللهِ لَأَبَرَّكَ»، فَأَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، ثُمَّ الْتَقَوْا عَلَى قَنْطَرَةِ السُّوسِ، فَأَوْجَعُوا فِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا لَهُ: يَا بَرَاءُ، أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَألحَقْتَنِي بِنَبِيِّي ﷺ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا[1].

وهنا سؤال يقول: هل كان البراء بن مالك رضي الله عنه هو الوحيد الذي تعلَّقت نفسه بسورةٍ من القرآن العظيم عامة ومن هذين الجزأين خاصة؟

لا والله، فالأمر يطول .. إلا أن الله يحفظ لسنَّةِ رسوله ﷺ في هذا شاهدًا واحدًا، أو شاهدين، أو نحو ذلك ليكون ذلك شهادة للعالمين، وكفى بالشاهد مَن وثَّقهم الله ﷻ ومَن قال الله فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، إذن فلقد كانت العلاقة ما بين آيات الله وصحابة رسول الله ﷺ موثَّقة بأجمل صوت وأعظم قارئ على الإطلاق، إنه صوت رسول الله ﷺ.

وسبحان الله! كيف ساق رب العالمين البراء بن مالك رضي الله عنه؟ ليروي للأمة عذوبة قراءة رسول الله ﷺ وحلاوة صوته ... مع حلاوة التين، وما أحلاه وأطيبه! وبركة صوت رسول الله ﷺ مع بركة الزيتون، فكان المروي هنا خاصة هو ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، فكانت المقاربة بين ما تسمعه الآذان، ويقع في القلب، وتتذوقه الأرواح وما بين ما يتذوق حلاوته اللسان والإنسان ..وكان في هذا التقريب للإحساس بصوت رسول الله ﷺ عند كل مَن غاب عنه ممن لم يسمع صوته من أمته .. كيف

(١) رواه الحاكم (٥٣٥٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وقد عظَّم الله شأن التين والزيتون فأقسم بهما ... ليزداد حسن صوت رسول الله ﷺ وقراءته تعظيمًا في نفس كل مؤمن، كما يعظم في قلب المؤمن قسم الله، وإن صوته ﷺ لأعظم من كل تصور وفوق كل تصور، وبهذا كان التقريب لصوت رسول الله ﷺ تقريبًا بالمذاق الحسي.

ما كان البراء رضي الله عنه يروي معانيَ لكلمات عربية من معرفته بلغة العرب وهو رضي الله عنه ابنها الأصيل، إنما يروي شيئًا آخر للنفوس والأرواح .. شيئًا قد أسرها وملك سرَّها .. حين فاضت الكلمات من رسول الله ﷺ نورًا وجمالًا .. فتفيض كلمات الله على عباد الله، فكم عَذُبَتْ قراءة رسول الله ﷺ بالمعاني العظام، وفاضت بالإيمان والنور والبرهان، وألهم رسوله قراءتها فتعظم هدايتها، ويكون فيها أعظم البلاغ وأعظم البرهان، فلقد علَّمه الله إياها، وبينها له أحسن بيان حين قال له: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، كيف ورهبة نزول الروح الأمين عليه ﷺ بالقرآن باقية من يوم لقاء الغار بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١]؟ ولطريقة ذلك النزول - والله أعلم - مناسبة وحكمة، أليس هو جبريل الأمين عليه السلام؟ أليس هذا هو الذكر الحكيم؟ فقراءة رسول الله ﷺ القرآن بحرٌ عظيم جمع بتغنيه ﷺ كل تلك المعاني ... والجميع يجد فيه ضالته، بل شفاءه وغذاءه، بل وحياته.

أم يحسب أحدنا أن شيخه الذي تلقى منه القرآن علَّمه المعاني من خلال أدائه وعلمه ما علَّمه، بينما رسول الله ﷺ - كما يحسب هذا - أنه تلقَّاها جافَّة كجفاف الصحراء العربية، وقاسية كقسوتها، حادة كحدة ألحانها، من غير روح، ولا إيمان، ولا تغنٍّ ولا بيان! عياذًا بالله من ذلك.

فكيف وهذا رسول الله ﷺ الذي عَرَّفه الله ﷻ بمآلات كلماته التامات التي أنزلها الله عليه ـ سبحانه ـ وما تحمل فيها من غيوب قادمة لأمته، أو أحوال الآخرة، أو سر السماوات والأرض ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، فكل ما نراه عَلِمَه رسول الله ﷺ من ربِّه، فكيف سيكون لحنه

بالقراءة ﷺ؟ وهو جامع الإحسان في معاني القرآن أثناء تلاوة القرآن .. إذ كلمات ربه تتكشف أمام عينيه غيوبها، فتحمل ألحانه ﷺ في قراءة الآيات ما تحمل من أحداث، ومعان، وإيمان، وألحانه طوع تلك المعاني .. شحنات من العلم، والحكمة، والإيمان، والزكاء .. يا هذا: قف هنا؛ فهنا كلام الله ـ سبحانه ـ وهنا رسوله ﷺ وكفى.

فهل من الغريب أن نجد المبْلَغ الذي بلغه أصحاب رسول الله ﷺ؛ إذ كانوا يتلقون كلام الله ﷻ بصوت رسول الله ﷺ سواء كانوا في مسجده أو خارج مسجده ... في الحضر كما هم هنا في السفر، فيجتمع لهم ما في السفر وما في الحضر وَقْعُ كلام الله عليهم مع ما هو فيه، سواءٌ كانوا في المدينة، أم كانوا في طاعة كالحج والعمرة وافدين على ربهم، أو السفر في غزوة، أو سريَّةٍ مجاهدين.

فكيف سيكون وطء كلام الله على قلوبهم وبقاء ذاك اللحن الأعلى، والأعلم، والأحكم، والأعظم، والأجل، والأحلى في أرواحهم حاضرًا إلى يوم وفاتهم.

فاللهم هب لنا اليوم الذي نسمع فيه صوت رسولك ﷺ بكلامك الكريم وقرآنك العظيم في جنات النعيم ... فإذا بصوت رسول الله ﷺ بكلام الله نعيم وأي نعيم؟ وروح تسري في ذاك النعيم، كما سرت في أرواح مَن سَمِعَها من أرواح الصحابة ﷺ في الدنيا .. وشتان ما بين النعيم في الدنيا وبين نفس النعيم في الآخرة، ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، فالشبه هنا بالاسم فحسب، أي باسم [الصوت]، أما حقيقة الصوت هناك، وما تصنع في أولئك المنعمين فلا يعلمها أحدٌ إلا الله.

وإذا نودي على الحفظة: أن تعالوا، وليقرأ كل واحد ما حفظ في الدنيا؛ فإنَّ اليوم هو يوم رسول الله ﷺ سواءٌ كان هو أول القارئين، أو كان هو خاتمة القارئين ... فأينما كان فهذا هو معجزته في الدنيا، واليوم يشهد الناس معجزته في النعيم، فإذا بها إعجاز في النعيم .. وإذا بهم يشهدون ظهور إعجاز النعيم ولذة النعيم من تلاوة رسول الله ﷺ القرآن العظيم.

الختام في جزء عم:

عظمة الختام بالمعوذتين: وفي ختام هذين الجزأين يأتي حرز القرآن العظيم كله، وحرز صاحب القرآن، فسبحان الله! تدبر كيف ابتدأ قارئ القرآن العظيم قراءته بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإنه جاء إلى الختام وإذا به يكون بإغلاق الإحكام وإتمام الحفظ للكتاب الحكيم المحفوظ؛ لذا كان التمام بالمعوذتين بالختام، ألا يكفي لبيان قدرهما موقعهما .. فهما ختام خير كتاب أُنزل من الله إلى خلقه، والأمور بالخواتيم، والأعمال بالخواتيم، والختمات بالخواتيم، وكل القرآن عظيم، ورب العالمين يقول عن شراب أهل الجنان: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ألا تكفي هاتان السورتان في هذا الموقع العظيم إشارة من رب العالمين إلى أن الشيطان – نعوذ بالله منه – أعظم ما يكون خوفًا من كلام الله؟ وأن صاحب القرآن العظيم في حرز كتاب الله ما دام بين دفتيه يقرأ، عالمًا ومتعلمًا ... قارئًا ومُقرئًا غاديًا ورائحًا.

ألا يكفي أن يكون موقع المعوذتين شاهدًا على إعجاز هذا القرآن وصدقه؟ فإن المعوذتين دليل حفظه، وإن الإنس والجن لا يقدرون أن يأتوا بمثله أبدًا ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨] إذ هاتان السورتان فيهما الاستعاذة من جميع الشرور في كل العصور.

ألا يكفي أن يكون موقع هاتين السورتين إعلان نتيجة التحدي الذي ابتدأه الله في أول البقرة بألف لام ميم، وبقوله ـ سبحانه ـ فيها: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]؟ فخابوا وخسروا وما أجابوا هم وشياطينهم، فكان في المعوذتين في الختام إعلان الحفظ وإعلان الانتصار.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى قَدَمِهِ، فَقُلْتُ: أَقْرِئْنِي سُورَةَ هُودٍ، أَقْرِئْنِي سُورَةَ يُوسُفَ، فَقَالَ: «**لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللهِ ﷻ مِنْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**»(١).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُهْدِيَتْ لَهُ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ، فَرَكِبَهَا، فَأَخَذَ عُقْبَةُ يَقُودُهَا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعُقْبَةَ: «**اقْرَأْ**»، فَقَالَ: وَمَا أَقْرَأُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**»، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ حَتَّى قَرَأَهَا، فَعَرَفَ أَنِّي لَمْ أَفْرَحْ بِهَا جِدًّا، فَقَالَ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا! فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا**»(٢).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**»(٣).

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ مِثْلُهُنَّ: الْمُعَوِّذَتَيْنِ**»(٤).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النِّقَابِ؛ إِذْ قَالَ لِي: «**يَا عُقْبَ، أَلَا تَرْكَبُ؟**»، قَالَ: فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عُقْبَ، أَلَا تَرْكَبُ؟**»، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً، قَالَ: فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَكِبْتُ هُنَيَّةً، ثُمَّ رَكِبَ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عُقْبَ، أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ**

---

(١) رواه النسائي (٥٤٣٩)، وأحمد (١٧٣٤١)، وابن حبان في صحيحه (٤٣٢)، والحاكم (٤٠٣٠)، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) رواه أحمد (١٧٣٤٢)، وذكره صاحب الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد في كتاب فضائل القرآن وتفسيره، باب ما جاء في فضل سورة الفلق (١٨/ ٣٥٣)، وقال: أخرجه النسائي وسنده جيد، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد: إسناده حسن.

(٣) رواه مسلم (٨١٤).

(٤) أخرجه النسائي في الأوسط (٢٦٥٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٤٩) رقم (١١٥٥٨): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ.

سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ؟»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَأَقْرَأَنِي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ بِهِمَا، ثُمَّ مَرَّ بِي، قَالَ: «**كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبُ؟ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ، وَكُلَّمَا قُمْتَ**»(١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**(٢).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، قُلْ**»، فَقُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، قُلْ**»، قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عَنِّي، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ ارْدُدْهُ عَلَيَّ، فَقَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، قُلْ**»، قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ: «**قُلْ**»، قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»(٣).

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ: سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ: فَاشْتَكَى، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ، قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ، وَيَقْرَأَ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ، حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، قَالَ: فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ، قَالَ: وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ(٤).

---

(١) رواه أحمد (١٧٢٩٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٣) رواه النسائي (٥٤٣٨)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) أخرجه أبو محمد عبد الحميد بن حميد في مسنده (المنتخب) (٢٧١)، والنسائي (٤٨٠)، وأحمد (١٩٢٦٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٨١) رقم (١٠٦٩١): رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِاخْتِصَارٍ، ورَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِأَسَانِيدَ، وَرِجَالُ أَحَدِهَا رِجَالُ الصَّحِيحِ.

من عظمة سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[١]:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ**»، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: «**سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»[٢].

فإن سأل سائل: لماذا كان هذا هو موقع سورة الإخلاص تحديدًا ... لماذا قبل المعوذتين؟ أي في ختام القرآن جميعًا وقبل المعوذتين؟

والجواب - والله سبحانه أعلم: هو ما يعطينا المفتاح المطلق الذي يفتح إصلاح كل ما اختلف عليه المسلمون في فهم معاني الآيات الواردة عن الله ﷻ، فلقد ترك الله ﷻ أهل العلم والاستنباط في آيات الله أن يتدبروا فيما أنزل الله عن نفسه ـ سبحانه ـ والحق في آيات الله واضح، وإن اختلف مَنْزَع كل فرقة .. ولا يزالون على هذا، وكلٌّ أتباع يزيدون من حججهم طوال المراحل والأجيال المتعاقبة، حتى جاءت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ختام القرآن العظيم، فكانت هي الفاصلة .. هي القاطعة .. هي الحاسمة ..

وما كان للحُكْمِ الفاصل أن يظهر إلا في الختام وينفضُّ المجلس بعد ذلك؛ ولهذا ما جاء بعد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلا المعوذتان، وأنعم بهما وأكرم! وما هذا إلا إشارة صغيرة على أن القرآن تم، وأنه لا بيان للعقيدة بعد سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وسيأتي - بإذن الله - أن وساوس الشيطان في دين المسلمين ولَّت، وعندي تفصيل هذا في كتاب: «الخلاص في بيان سورة الإخلاص»، وسيظهر متى يسَّر الله إخراجه.

---

(١) قد كتبت بيانًا وتأويلًا لسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مفصَّلًا ... ولعل الله ييسر إظهاره بفضله.

(٢) رواه مسلم (٨١٢).

من عظمة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾:

عَنْ أَنَسٍ ﷺ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يُقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى، فَإِمَّا تَقْرَأُ بِهَا، وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى، فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «**يَا فُلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ؟ وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟**»، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ**»(١).

وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ مَوْلَى آلِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**وَجَبَتْ**»، فَسَأَلْتُهُ: مَاذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**الْجَنَّةُ**»، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَرَدْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِ، فَأُبَشِّرَهُ، ثُمَّ فَرِقْتُ(٢) أَنْ يَفُوتَنِي الْغَدَاءُ، فَآثَرْتُ الْغَدَاءَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الرَّجُلِ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ ذَهَبَ(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٧٧٤).

(٢) فرقت: خِفْتُ.

(٣) رواه مالك في الموطأ (٧٠٩)، والترمذي (٢٨٩٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، والحاكم (٢١٠١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه البخاري (٥٠١٣).

وَعَنْ بُرَيْدَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»(١).

وَعَنْ مِحْجَنِ بْنِ الْأَدْرَعِ ﷺ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ، وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا أَللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ: فَقَالَ: «**قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ**» ثَلَاثًا(٢).

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ**»، فَقَالَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ: إذن نَسْتَكْثِرَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عَشْرَ مَرَّاتٍ بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَرَأَهَا عِشْرِينَ مَرَّةً بُنِيَ لَهُ قَصْرَانِ، وَمَنْ قَرَأَهَا ثَلَاثِينَ مَرَّةً بُنِيَ لَهُ ثَلَاثٌ**»(٤).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ جَبْرَائِيلُ عليه السلام وَهُوَ بِتَبُوكَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اشْهَدْ جِنَازَةَ مُعَاوِيَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩٣)، وابن حبان في صحيحه (٥١٤)، والحاكم (١٨٧٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أبو داود (٩٨٥)، والحاكم (٩٩٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (١٥٦١٠)، والحديث ذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٣٧) رقم (٥٨٩)، والحديث بمجموع طرقه بلغ رتبة الحسن.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨١)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد: مرسل رجاله ثقات، فإذا ضُمَّ إلى هذا المرسل الصحيح الحديثان الموصولان من حديث معاذ، وأبي هريرة، تقوَّى الحديث، وبلغ رتبة الحسن، والله أعلم.

وَنَزَلَ جَبْرَائِيلُ عليه السلام فِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْـمَلَائِكَةِ، فَوَضَعَ جَنَاحَهُ الْأَيْمَنَ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ فَتَوَاضَعَتْ، وَوَضَعَ جَنَاحَهُ الْأَيْسَرَ عَلَى الْأَرَضِينَ فَتَوَاضَعَتْ، حَتَّى نَظَرَ إِلَى مَكَّةَ وَالْـمَدِينَةِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَجَبْرَائِيلُ وَالْـمَلَائِكَةُ عليهم السلام، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «**يَا جِبْرِيلُ، بِمَ بَلَغَ مُعَاوِيَةُ هَذِهِ الْـمَنْزِلَةَ؟**»، قَالَ: بِقِرَاءَةِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَرَاكِبًا وَمَاشِيًا[1].

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة ص (١٤٨) رقم (١٨٠)، وقال الحافظ ابن حجر أيضًا في لسان الميزان في ترجمة محبوب بن هلال (٥/ ١٨) بعد أن ذكر هذا الحديث: وحديثه علم من أعلام النبوة، وله طرق يقوى بعضها ببعض، وذكرتها في ترجمة معاوية في الصحابة.

الفصل الخامس:
تفاصيل النور، والجمال، والجلال، والعظمة في الجزأين

عظمة ورقة المصحف:

أحقًّا أني أرى آيات الله .. أحقًّا أني أسمع كلام الله .. أحقًّا هذا الذي تبصره عيني هي كلمات الله .. إنه والله لأمر عظيم، لكن الناس عنه غافلون ..

أي شيء أحب للصحابة ﷺ من النظر إلى وجه رسول الله ﷺ في الوجود؟ أي مطلع أحب إليهم من مطلع رسول الله ﷺ لما رأوا وجه رسول الله ﷺ بعد أن يئسوا من عودته إليهم وإلى الحياة؟ فلما رآهم تبسَّم ضاحكًا ﷺ ..فكادوا يفتنون من الفرح؛ فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ وَكَانَ تَبِعَ النَّبِيَّ ﷺ، وَخَدَمَهُ وَصَحِبَهُ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الِاثْنَيْنِ، وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ، كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ؛ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَى الصَّلَاةِ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ**»، وَأَرْخَى السِّتْرَ فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ[1].

وَرَقَةُ مُصْحَفٍ: هذا هو المنتهى في المدح كله وفي الجمال كله .. وفي الجلال كله ... والناس يفوتون عليها من غير اكتراث!

وَرَقَةُ مُصْحَفٍ: ما أغلاها! ما أحلاها! ما أعلاها! هذه ليست مجرد أحرفٍ مكتوبة مخطوطة على صفحة عربية سوداء أو زرقاء أو حمراء، هذه أعظم من النجوم الزاهرات في الليالي الظلماء، إنها حاملة كلمات الله .. أغلى ورقة في الوجود كله ورقة المصحف .. فورقة المصحف حاملة كلمات الله تعالى ... وورقة المصحف هذه

(١) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

التي لن تجد قطعة في الوجود عَظُمَت أو صغرت أعظم ولا أكرم مما فيها، ولا أحب إلى الله مما فيها بما في ذلك السماوات العلى، والملائكة، والأنبياء عليهم السلام .. فكل هذه الأشياء الكريمة القاسم المشترك بينها أنها مخلوقة، بينما ما في ورقة المصحف إنما هو كلام الله .. وكم هو الفارق ما بين كلام الله الذي هو منه وبين خلقه أو كلام خلقه، ولقد صح في الحديث «**مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ، كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**»(١)، إذن وفضل هذه الورقة على سائر الأوراق لا يبلغه قياس ولا تقريب.

لا يوجد شيء في الوجود مثل كلام الله، ومن ثَمَّ فلا شيء في الوجود مثل صفحة تحمل كلام الله .. ولا حتى صفحة تحمل حديث رسول الله ﷺ رغم جلالها وإكرامها وعظمتها، نعم لا شيء في الوجود حتى حديث رسول الله ﷺ، فإنا لا نقول عن روايته إلا قال رسول الله ﷺ، ولا نقول في القرآن إلا [قال الله ﷻ]، فإن السُّنَّة هدي رسول الله ﷺ .. نعم هي وحي يوحى، لكنه كلام سيد البشر ﷺ وهديه، ولم يتحدَّ رسول الله ﷺ أحدًا بكلامه هو ﷺ، إنما تحدَّى الإنس والجن بكلام ربه ﷻ .. وإن كلمات الله هي التي ما قال الله إلا منها وعنها حيث قال ـ سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال ـ سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، وهي التي قال الله ﷻ فيها لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال ـ سبحانه ـ له ﷺ قولًا صريحًا واضحًا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحاقة].

(١) رواه الترمذي (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وقال أبو إسحاق الحويني: والحديث حسن بجملة هذه الشواهد. هامش فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٧٤.

وأما قول النبي ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»[١]، فليس المقصود هنا المثل في العظمة، ولا المثل في الإعجاز، ولا المثل في الأجر، ولا المثل في القراءة بالصلاة، ولا في غير الصلاة، ولا المثل في النسبة فهذا كلام الله، وذلك كلام رسول الله ﷺ فأين هذا من هذا؟ فحين قال رسول الله ﷺ: «**وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**»[٢]، إنما المقصود في الحديث بقوله ﷺ: «**وَمِثْلَهُ مَعَهُ**» إنما المثلية هنا في الطاعة، فطاعة رسول الله ﷺ كطاعة الله مع أن كليهما وحي من عند الله، وقد قال الله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠]؛ ولذا قال النبي ﷺ في نفس هذا الحديث في رواية أخرى: «**أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الْحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللهُ**»[٣]، وفي رواية أخرى: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ**»[٤].

ارجعِ البصر إلى صفحة المصحف:

أعد النظر إليها فعما قليل، وبإذن الله سوف تحفظها، سوف يُشرَّف أشرف ما فيك، ويستنير جوفك، وتحيا حياتك، ويوقد النور في صدرك، وينبثق البصر في بصيرتك .... نعم إنها صفحة .. ويا لعظمتها من صفحة! ويا لعظمتك إذا نقلتها إلى جوفك .. بحفظها عن ظهر قلبك.

أرأيت هذه الصفحة العظيمة الجميلة التي هي أنور وأكرم وأبهى صفحة في الوجود ..

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وقال أبو إسحاق الحويني: والحديث حسن بجملة هذه الشواهد. هامش فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٧٤.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٦٤)، هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٤) رواه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

أرأيت صفحة المصحف هذه الصفحة التي لا شيء مثلها مطلقًا ما بين السماء والأرض.

أرأيت هذه الصفحة التي غلاها إنما جاء من كونها حاملة لكلام الله .. أوَ لم يمتدح الله ﷻ الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة؛ لأن فيها كلام الله؛ كما قال ـ سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [سورة عبس]؟ وهكذا تأخذ هذه الصحف كرامتها، وعظمتها، وجلالها، وجمالها؛ لأن فيها كلام الله العظيم.

أرأيت كلمات الله العظمى؟ وما جادت به حتى على فواصل الآيات فنالها من العظمة بعض ما تراه في هذا الكتاب، أرأيت ذلك كله، وما لا تراه أكبر من ذلك بما لا يُحصى ولا يُعدُّ ولا يُحدُّ .. ذلك الذي لا تراه وما تراه كله حين تحفظ الصفحة الكريمة فإنما تنقل صفحة كلام الله هذه وما فيها إلى داخلك .. إلى صدرك .. إلى قلبك .. إلى عقلك .. أوَ ليست حافظتك جزءًا لا يتجزَّأ منك؟ فكيف لا تنتقل هذه الكلمات الكريمة والآيات العظيمة .. المتزاحمة الكريمة المتلألئة المزدانة إلى صدرك؟

أَلَسْتَ حين تحفظ السورة الكريمة من هذه السور إنما تحفظ كلماتها، وآياتها، وموقع السورة على الصفحة، وموقع ابتدائها، وكلٌّ حسب استطاعته وتركيزه وهدايته .. فأين انتقلتْ صورة هذه الصفحة؟ أليس إلى جوفك .. في موضع لا يعلمه إلا الله؟ أليس لو كان لديك جهاز تصوير وصوَّرت هذه الصفحة أو تلك ألا تنتقل الصورة إلى موضع حفظ الأفلام والصور من داخل الجهاز .. فما الفرق إذن إلا أن حافظتنا هي صنع الله، وحافظة الآلة إنما هي صنع ما صنع عباد الله .. أيْ صُنْع البشر ؟ ويا ليت شعري لو كان ثمة طريقة يتم فيها تصوير صفحة من كلام الله .. ولا أقول تصوير كلام الله – معاذ الله – .. إذ هو ينتقل من ورقة المصحف إلى داخل صدر الإنسان .. ليرى الناس ما الذي يجري في داخل هذا الإنسان الحافظ عند الانتقال وبعده، وأن

هذا الانتقال انتقال حقيقي .. وإذا أردت أن تتأكد أن هذا حقيقة بطريقة حسية؛ فخذ اثنين من أصحابك؛ أحدهما حافظ متقن، والآخر لا يحفظ شيئًا، وأعصب عيني الحافظ، واترك الآخر مفتوح العينين؛ ثم افتح المصحف، وقل للآخر: اقرأ [سورة محمد] ﷺ مثلًا .. سيقول لك: لا أحفظها عن ظهر قلب .. فتتحول لمعصوب العينين، تقول له: اقرأ [سورة محمد] ﷺ، فسيقرؤها لك كاملة، كما تراها بعينيك في المصحف الذي أمامك .. **والسؤال هو**: من أين قرأ هذا [سورة محمد] ﷺ وهو معصوب العينين .. وكيف لم يستطع ذاك قراءتها وهو رجل قارئ يختم القرآن نظرًا على الدوام؟

والجواب: هو أن هذا قرأ من جوفه من داخله .. وقرأ ببصيرته لا ببصره بشهادة ما تراه أمامك وأنه معصوب العينين .. العالم بالنسبة له ظلام دامس في هذه اللحظة، بينما الآخر مفتح العينين .. موصول مع العالم ببصره، وهذا بعض معاني قول رسول الله ﷺ والذي استشهدنا به من قبل على الحفظ: «**إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»(١).

يا ليت شعري ما التحول الذي يحدث في صدري وصدرك حين تنتقل إليه صفحة من كتاب الله؟ ما الذي يشرق فيه ... وقد دخلته صفحة من كلام الله .. ثم صفحة، ثم صفحة؟

حقًّا إنها تنتقل؛ وذلك لقوله ﷺ: «**أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ**»(٢)؛ أي محفوظة هناك حيث يعلم الله ـ سبحانه ـ موقعها من صدرك .. فلم يقل النبي ﷺ: أتقرؤهن من داخل قلبك، ولا من وسط صدرك، وإنما قال: «**أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ**»، فموقع الآيات [على] القلب .. كلمات الله تعلو ولا يعلى عليها .. تعلو [على] كل شيء، على الجبل تعلو، وهو أعلى ما على الأرض، كما قال ـ سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

(١) رواه الترمذي (٢٩١٣)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٢) رواه البخاري (٥٠٣٠).

عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وجبريل عليه السلام أنزل القرآن، وجعله بأمر الله وإذن الله [على] قلب رسول الله ﷺ، كما قال الله ـ سبحانه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، إنما هو علو المقام، والمكانة، والسلطان ... فهو علو كلام الله وكفى، لكن الفارق بين القرآن من قلب أي حافظ وبين القرآن من قلب رسول الله ﷺ هو أن القرآن أخذه الحفظة من الصحف وحفظوه، وأخذوه من المحفظين فحفظوه، ومع هذا فهو أصبح في صدورهم أعلى، ومن قلوبهم أعلى، ومن صدورهم أعلى .. أما رسول الله ﷺ فجبريل عليه السلام هو مَن وضعه بنفسه على قلبه، وجعله هناك بأمر ربه ـ سبحانه ـ وإذنه؛ لذا قال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وما دام القرآن على قلب المؤمن أعلى فالإيمان أعلى، والخلق أعلى، والطموح أعلى، والمسير أعلى، والأمة أعلى، وجذبة المؤمنين الناس دائمًا إلى أعلى ... حتى لو تدبرت القرآن في هذا الوجود كله؛ في السماوات العلى فهو أعلى وأعلى، كما قال الله ﷻ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [سورة الزخرف].

فيا ترى ما الذي تحدثه الصفحة الواحدة هناك في الصدور من النور؟ ما الذي يحدث هنا في القلوب من التحول في الإيمان، والأعمال، والأخلاق إلى أعلى وأعلى دائمًا وأبدًا؟

ما الذي يحدث؟ وهذا إشراق صفحة من آيات الله من جزء تبارك وجزء عَمَّ، وكل صفحة من هذين الجزأين أعظم تلألؤًا في الصدور من ليلة صائفة صافية قريبة بهيجة في الوجود.

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، واقْرؤوهُ وَارْقُدُوا، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ وَمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ**

رِيحُهُ كُلَّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَرَقَدَ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِيَ[١] عَلَى مِسْكٍ»[٢]، ولا حاجة هنا لنعدد .. فكيف كان صدر النبي ﷺ قبل القرآن؟ وكيف أصبح؟ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [سورة الشرح] .. ثم كيف كان العرب وغيرهم؟ وكيف أصبحوا بعدما أسلموا؟ وكيف أصبح العالم بعد ذلك؟

العظمة هنا في كثرة الفواصل:

كم يفوت أحدنا وهو يمرُّ بين الآيات القصيرة كثيرًا كثيرًا بهذه الفواصل، ولا ينتبه لعظمتها ولا يظنها إلا مجرد فواصل تفصل بين الآيتين ليس إلا .. نحن نظن أنها مجرد إشارة قاطعة آية عن آية.

وحقيقة الأمر أنها الذروة في التوصيل والتواصل، وأنها المنتهى في قوة الجذب والانجذاب، وأنها الحقيقة في الحكمة والإحكام، وأنها المنارات الزاهرة في البحور الزاخرة ... ما بين كلمات الله من هنا وكلمات الله من هنا!

وما هي إلا إشارة لأمرٍ عظيم؛ ذلك هو حفظ الطريقة التي نزلت على قلب رسول الله ﷺ من جبريل عليه السلام [بإذن الله] ... وهي الطريقة التي تلقاها جبريل عليه السلام من ربه ﷻ فإن القرآن ما أنزل ألواحًا حتى يكون نسخًا كما هو .. أو يكون هذا القرآن صورة عما أنزل متطابقة، لا بل هو شهادة على أنه هكذا قُرِئَ على رسول الله ﷺ.

نعم، ما كنَّا ندرك هذا الأمر، ولا نقدره حق قدره .. ولكي أبين حقيقة بعض عظمة هذه الفواصل بين الآيات فإني كثيرًا ما ساءلت نفسي: هل كان من السهل على أحد حفظ القرآن العظيم قطعة واحدة كاملًا من غير أن تكون سُوَرًا، ومن غير أن تكون السُّور آيات؟

---

(١) أوكي: أوكيت السقاء. إذا ربطت فمه بالوكاء، والوكاء خيط تُشد به الأوعية.

(٢) رواه ابن ماجه (٢١٧)، والترمذي (٢٨٧٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

كم نسبة الذين سيحفظونه بالنسبة للحفظة في عمر هذه الأمة؟ إذن فإن ربنا ـ سبحانه ـ حين قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] أربع مرات في سورة القمر، فإنما كان من أعظم التيسير أن جعل ـ سبحانه ـ هذه الفواصل التي أنزلت معه هداية .. منها أصبحت ما بين كل فاصلتين آية؛ ولهذا فإنه لا عظمة للفاصلتين بذواتهما مطلقًا .. إنما كل فاصلة نفخت روحها من آيتين كريمتين من آيات الله .. واستقت ريها ورواءها من كلمات الله، وتوهج نورها وعلت مناراتها من آيات الله، وأجواء القرآن العظيم، هذه الفواصل دلائل علم وهدى وسكينة مثل المنارات في البحور، لكنها هنا منارات وسط بحور لا منتهى لعظمتها في سور القرآن العظيم وآياته.

هذه الفواصل طرائق السالكين لحفظ كتاب رب العالمين .. ولولاها لتاه الكثيرون في بحور لا يعلم منتهاها إلا الله ﷻ ..

هذه الفواصل طرائق للقلوب، ومنارات تقول للقلوب والألباب والنفوس، تشير للسالكين: من هنا الطريق لتحفظوا ما تقرؤون بكل سهولة .. من هنا اعبروا .. هنا الغذاء لكم .. هنا الشفاء لأمراضكم .. هنا السعادة لحياتكم .. هنا النظام لأسركم ..

من هنا مرَّ أقوام وأقوام؛ هنا مرَّ أقوام فهلكوا .. هنا أخطأ آخرون الطريق فأغرقوا .. هنا طريق ديارٍ مَن بالصيحة صُعِقوا .. هنا طرائق خبيثة لقوم تحايلوا فمُسِخوا ...

وهذا هو الصراط المستقيم الذي توسَّط أم الكتاب والقرآن العظيم بدعائها الوحيد الجامع المانع الصريح أن امضِ في هذا الطريق .. فما دمت لزمت طريق [أم الكتاب] فاعلم أن الله استجاب دعاءك فيها؛ إذ دعوت: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [سورة الفاتحة].

وفي طرق هذه الآيات يهدي الله ﷻ المؤمنين إلى صراط مستقيم، فالحمد لله أن وصلنا إلى هذا الطريق، ولزمناه : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، وقال ـ سبحانه ـ عن عظمة آيات الله هذه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

العظمة في الترقيم للآيات:

والحقيقة هي أن الإنسان ليعجز وهو يحاول أَنْ يعدِّد حكمة الله ﷻ؛ إذ هو يحاول **جمع فضائل الفواصل بين آيات الله** .. إنه عالم عظيم نحن عنه غافلون ... فهل يُعقل أن تكون هذه الإشارات مجرد فواصل في وسطها أرقام، وهل يُعقل أن تكون هذه الكواكب النيرات مجرد دائرة مجردة جامدة في كتاب الله كله؟ لا والله بل هنا حياة وإحياء ... هنا إشارات، ووراءها ما يثير أذهان المؤمنين، ويفجِّر من هذه الفواصل عيون الخيرات والحياة الباقيات ..

نعم حتى أصل ترقيم الآيات من الله ﷻ .. ألم يرقم الله ﷻ أم الكتاب فقال ـ سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، ومن هذا المرصد الأعظم [أم الكتاب] كان الترقيم العظيم لكل سورة من سور القرآن العظيم ... وكان الترقيم سُورًا حفظ الله به آيات القرآن العظيم، وحفظ آيات كل سورة من سور القرآن العظيم.

وهل عرف هذا المقام الأعلى وهو [المقنطرون] إلا بأعلى رقم عند العرب [ألف آية]، فالرسول ﷺ لم يذكر هنا ألفًا وسكت، ولا ذكر ألف درهم، ولا دينار .. فهذا أمر عادي، لكنه ذكر [ألف آية]، فهذا أصل .. وليس هو من باب الزينة، وإنما هو ضرورة لآيات الله تعالى.

وكان في الترقيم حراسة من غفلة سقوط آية من آيات السورة، ولو كانت آية من حرفين أو ثلاثة أو أكثر، وكانت حراسة مُحْكمة تمنى العدو أن لو لم يكن ترقيم الآيات موجودًا حتى يدخل إلى آية من هنا فيخطفها وأخرى من هناك فيحذفها، وأخرى يحسبها البعض مكررة فيشطبها وهو لا يدرك حكمتها فيزيلها، ومع الأيام ينسى الحراس لآيات الله تلك الآيات، نعم إن الله حين تكفَّل بحفظ القرآن الكريم جعل له جندًا يحفظونه، وجعل هذه الفواصل وأرقامها ...

عَنْ حُذَيْفَةَ ﵁ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ

عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ! فَمَضَى فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا! ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا؛ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ[(١)].

وما أعظم نور الفواصل وأرقامها في وسطها... منيرة مزهرة في سماوات السور القصيرة والآيات القصيرة! وما أعظم انشراح القلب بالنظر لهذه الصفحة وعلى الأخص في عين مَن لا يعرف القراءة والكتابة! وما أحلى ذلكم الجلال في ازدحام الآيات في السطر الواحد وفي الصفحة الواحدة .. وهو يعددها! وقد قال النبي ﷺ معددًا الآيات تعدادًا .. مفاخرًا بها معظمًا لها ولعملها لصاحبها حماية واستعدادًا: «**إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾**»[(٢)]، ويعدِّد النبي ﷺ الآي، ويعدها عدًّا .. ففي «مصنف ابن أبي شيبة» عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: مَا فَضْلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْرَأْهُ مِمَّنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ عَدَدَ دَرَجِ الْجَنَّةِ عَلَى عَدَدِ آيِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِمَّنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَفْضَلَ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ[(٣)]، ومصطلح «قَرَأَ الْقُرْآنَ» المراد الأعلى والأعظم منه إنما هو مَن قرأه وحفظه، ولا يسمى القراء مَن لم يحفظوا القرآن ويجازوا بحفظه، فهل أدركنا كم هو حكم هذه النتيجة عظيم، إنها ألف آية .. ألف درجة في الجنة في فترة من العمر خاطفة، فاللهم لك الحمد.

فكيف لا نرقِّم الآيات وحكم درجات الجنة محسوب بأعداد الآيات المحفوظة .. فأعداد المحفوظ تساوي أعداد المحجوز لحافظها في الجنة .. وإذا دخل أهل

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٩٤٤)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد في كتاب فضائل سور القرآن الكريم ص (٥٣): إسناده ضعيف.

الجنة نودي على مَن يحفظ القرآن كله أو بعضه أن «**اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»، أفلا يتمنى يومها كل واحد لَمْ يحفظ القرآن أنه كان من المقنطرين الذين حفظوا في هذه الصفحات المعدودات ألف آية من كتاب الله؟

نعم، إن للآية الطويلة مزاياها، وكفاها أنها طويلة بكلام الله، وكلام الله كلما زاد زاد الفضل، وزاد العلم، وزاد النور، وزاد الأجر بزيادة الأحرف، ويبقى لمزيد حفظ أعداد أكثر من الآيات أفضال أخرى عديدة، ومنه الحديث عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ ـ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ ـ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ**[(١)] **فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ! قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ، أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»[(٢)].

عظمة السكتة بين الفاصلتين:

نطق السكتة عند الفاصلة: هنا توقف رسول الله ﷺ .. هنا تدبر .. هنا أعاد التدبر ثانية .. هنا سكتة اللسان خفيفة، لكنها عودة للقلب على المعاني لطيفة؛ إذ ما زالت ترددات الصوت وتموجاته العلية متواصلة متصاعدة من حيث نزلت كما في الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ لا تَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ**»[(٣)]، يَعْنِي الْقُرْآنَ.

هنا السكتة في ظاهر الأمر، لكن هنا حركة القلب أسرع وأنفع وأوقع ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا**﴾ [المزمل: ٦]، فكل توقف على رأس الآية إنما هو عَوْدُ

(١) كوماوين: عظيمتين.

(٢) رواه مسلم (٨٠٣).

(٣) رواه الحاكم (٢٠٥٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

القلب لصاحب الكلام ـ سبحانه ـ وهو تحقيق العودة من معايشة كلام الله أثناء الآية .. وهو المسك - وكل كلام الله مسك وأكرم من المسك - والختام مسك ذلك المسك، ومنه تنفجر المعاني العليا .. ويكون الوطء على القلب أعلى .. الله الله ... فمن ذا الذي لا يحب أن يكثر الله من طلبه إليه المرة تلو الأخرى .. ومن ذا الذي لا يود أن يعيده الله إليه عودة بعد عودة ..

الله أكبر ولله الحمد؛ ما هذه الزحمة من الآيات؟ما هذا الجمال فيما بين كل آية وآية؟ ما هذه النجوم المتلألئة في سماء أكرم صفحة مباركة؟ لقد علَّمتنا أم الكتاب أن عند نهاية كل آية توقُّفًا، وأنك سوف تسمع في لحظتها جواب ربك ﷻ.

عند هذا الحد الفاصل انتهى كلام الله في هذه الآية .. وسيبتدئ الآن الله ـ سبحانه ـ بكلام جديد، فماذا كان بين كلام الله وكلام الله؟ ماذا في هذا الذي يعده البعض فراغًا؟ ماذا عن الفاصلة؟ وماذا في الفاصلة بين الآية والآية؟ أما الذي غفل عمّا قرأ وغفل عما سمع من كلام الله ولم يتدبر فسوف تمر عليه آيات الله كلها لم يشعر بالآيات بها فضلًا عن الفواصل بينها ... فالفواصل من دون الآيات لا معنى لها .. إنما الفواصل تتشرَّب معانيها من كلمات الله، وتأخذ مقامها وقدسيتها من كلمات الله التي مرَّت، وما تركته من وطء عظيم على قارئها ... فكان ذلك النفس التفاعلي الذي تثيره الآيات على القارئ أو السامع، وخصوصًا عند ختام كل آية - حسب نوع حديث الله ﷻ - فيثور التجاوب بين عبد الله وبين كلمات الله عند هذه الفاصلة أو السكتة، فلكأن هذه السكتة هي موطن تنزل السكينة، فربما كان ذلك التجاوب تسبيحًا وإجلالًا، وربما كان التجاوب تكبيرًا وتعظيمًا لله رب العالمين، وربما كان التجاوب دعاء وسؤالًا يرفعه في نهاية الآية لله السميع العليم، وربما كان ذلك الفاصل استعاذة من خطر كبير، أو من الشيطان الرجيم، أو استعاذة بالله من نار الجحيم، وربما أثارت كلمات الله في نفسه استغاثة فاستغاث أول ما سكت عند نهاية الآية؛ إذ الله ﷻ يُلَقِّيه الاستغاثة ليرفعها إليه ثانية، وكأنه يقول له: الآن استغث بي أُغِثْكَ ..

الآن استغفرني أغفر لك .. الآن تقدم، وارفع توبة منك أتُبْ عليك، الآن وأنت مع كلامي وما شعرتَ به من تجاوبٍ فجاوب، الآن عند نهاية كل آية أو مجموعة آيات ادع .. فهذا الموطن هو أصدق ما يكون في إلهام الدعاء قبل الإجابة .. هذا أعظم موطن يعلِّمك الله ﷻ ويُعْلِمك بِطَلَبِك فاطلب فطلبك الآن مجاب، وما أحسن ما فتح الله به على الشاعر أبي الفتح البستي حين قال مخاطبًا ربه ـ سبحانه؟

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ ... مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلَبَا

فسبحان من أنزل الآيات وهو ـ سبحانه ـ إنما أنزلها بعلمه .. وهو أعلم بما يدور، وسيدور في نفس كل واحد .. وهو أعلم ـ سبحانه ـ ما تصنع كلماته في نفوس جميع عباده على اختلاف عباده واختلاف ما تصنع ... **إلا أن مركز الصناعة في العادة إنما هو نهاية الآيات الكريمة** ... فهل أبرك من هذا الوادي وادٍ؟ بل هل أكرم من هذا النجم الرباني الجذاب، المستخرج للتجاوب من قلوب العباد نجم؟ هذا النجم المتلألئ في كبد السماء، إنه الفاصل الذي هو ما بين الآية والآية.

ولعل السر في هذا أن كلمات الله تصنع في النفس صنعها ... وتحرك فيها رهبتها ورغبتها، وتبعث كلمات الله إجلال الله في صدر العبد حتى لا يكاد يتحمل عظمة معاني الجلال والعظمة .. فيتمالك العبد لهذا وهذا .. فتأتي نهاية الآية كالمتنفس للعبد فتثور النفس بما يريحها من تجاوب ذاتي قوي .. فيكون نَفَسُه تسبيحًا، وتعظيمًا، أو استغفارًا، أو دعاء، أو أنينًا، أو حنينًا، أو بكاء، ويكون تجاوب البكاء الصادق بكاءً صادقًا مثله .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿**أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ**﴾؟ [النجم:٥٩،٦٠] بَكَى أَصْحَابُ الصُّفَّةِ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَنِينَهُمْ بَكَى مَعَهُمْ، فَبَكَيْنَا بِبُكَائِهِ؛ فَقَالَ ﷺ: «**لَا يَلِجُ النَّارَ مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٩٨)، وضعفه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٣٢).

نعم لقد علَّمتنا [أم الكتاب] كل شيء في الكتاب الكريم كله .. ومن عظيم ما علمتنا هذه السورة أن توقفوا عند نهاية كل آية توقفًا لطيفًا، ومدُّوا في ختام كل آية آخر حرفين إن كان حقهما المد .. وليكن سكوتكم بهذا النوع من السكون .. فعند هذا السكون يرجى أن تتنزل السكينة؛ لأنها الفترة التي سكت فيها رسول الله ﷺ وسكن .. ولأن هذه السكتة والسكون هو ما يقدر عليه العبد من السكينة وهذا أعظم استدعاء للسكينة من عند ربه ـ سبحانه.

نعم علمتنا [أم الكتاب] أن توقفوا عند نهاية الآية، وانتظروا الإجابة الفورية بعد كل آية من ربكم ... توقفوا هنا؛ وسواءٌ دعوتم الله هنا أم لم تدعوه فإن الفاتحة بذاتها تحميد وتسبيح وتمجيد ودعاء مجاب ... وكذلك خواتيم البقرة؛ فإنها كالفاتحة كنزان جاهزان قد تسلّمهما رسول الله ﷺ له ولأمته، باقيان كما بقي كنز الغلامين حيث وضعه أبوهما الرجل الصالح لهما ليوم شدة حاجتهما، والأدلة على أنهما للأمة كثيرة؛ ومن ذلك أن الدعاء في السورتين جاء كله بضمير الجمع .. ولا يوجد دعاء واحد فيهما فردي أو شخصي .. وهذا هو مراد رسول الله ﷺ الأعظم .. وقد أعلمه ربه بالشدائد التي تنتظر أمته .. ومع هذا فهذان الكنزان ما زالا يفيضان على الأمة بحكمة الله .. أما يوم فتح الله لهما فلا يعلمه إلا الله، وأسأل الله أن يكون قريبًا ... وأقصد بفتح لهما؛ أي الإجابة العظمى لدعائهما، والإجابة العامة الشاملة الكاملة على الدنيا كلها .. فيا له من توجيه من [أم الكتاب] لنا في كل القرآن العظيم وآياته الكريمة.

نعم إن الدعاء والتسبيح والتحميد والاستغفار والاستعاذة يمكن أن يكون من أي موضع إن كانت الآيات طويلة، ولا يشترط أن تكون الآية قصيرة، ولكن الأصل الذي علَّمنا إياه ربنا ـ سبحانه ـ في [أم الكتاب] وفي الحديث القدسي الوارد فيها أن يكون ذلك بعد انتهاء الآية؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا، غَيْرُ تَمَامٍ**»، فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ

الْإِمَامِ!! فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢] **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦،٧] **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[(١)].

ومَن لم يملك نفسه أو دمعته، ولم يتمالك قومته أو دعوته أو شهقته حتى نهاية الآية فهو معذور مأجور مبرور.

فسبحان الله! كيف أقام الله آيات [أم الكتاب] مقام قول قارئها، فأقام قوله ـ سبحانه : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مقام تحميد العبد، وأقام الثناء في قوله ـ سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مقام ثناء العبد، وأقام التمجيد في قوله ـ سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ ولذا جاء جواب تمجيد الله ﷻ بقوله ـ سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مقام تمجيد العبد، فكل آية يقرؤها العبد مفصلة له تفصيلًا حمدًا وثناءً وتمجيدًا .. متقبلًا ثم دعاءً مجابًا آية آية إلى أن تختم آياتها السبع المثاني بالتأمين العظيم فيقول الله ـ سبحانه: قد أجبت، ولما كانت هذه الطريقة لا يمكن أن تتكرر في القرآن العظيم كله في سورة بأكملها، كان لا بد للعبد أن يكون حاضرًا متدبِّرًا حتى يأتيه ربُّهُ أسرع من مجيئه، يَقُولُ اللهُ ﷻ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ**

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

هَرْوَلَةً»[١] ... بهذا يكون القارئ لآيات الله هو مَن يتقدم بالطلب بنفسه، ويتفاعل مع آيات الله .. ويتجاوب معها، ثم يباشر الدعاء أو التسبيح، أو التحميد، أو التمجيد، أو الاستغفار، أو ما إلى ذلك من صور التجاوب مع كلمات ربه ...

وهذا هو ما علَّمنا إياه رسول الله ﷺ؛ إذ ما كان رسول الله ﷺ يدعو بشيء، ولا يقول شيئًا عند قراءته أم الكتاب بخلاف ما سواها من آيات القرآن العظيم، فما علَّمه إياه ربه ـ سبحانه ـ في أم الكتاب تعلمه ﷺ للكتاب كله، وهو ﷺ معلِّم المعلِّمين في الناس أجمعين، ومعلم القائمين بين يدي رب العالمين ... ومعلم القارئين القرآن العظيم، فَصَلِّ اللهم عليه وسَلِّم تسليمًا كثيرًا.

فكثيرًا ما تكون الفاصلة ما بين الآية والآية هي موطن لحصادك أيها القائم بين يدي ربك .. حصاد مفتوح لكل ما تفاعلتْ به نفسك أثناء قراءتك أو سماعك القرآن .. موطن لا تقطع فيه الآية، ولا تنس فيه ما قرأت، ولا تغفل عما هو قادم من آيات .. حتى لو نسيت رجعت للآية السابقة القصيرة، ثم أكملت، وهكذا وهكذا ...

فأي نعمة عند هذه الفاصلة؛ إذ الذي جعلها فاصلةَ آيةٍ عن آيةٍ هو مَن أنزل الآية رب العالمين ـ سبحانه ـ .. أي في الحقيقة أن رب العالمين هو من أعطانا الفرصة لنتوجه إليه، هو من منحنا هذه الوقفة الشرعية لنتجاوب مع كلماته متوجهين إليه ـ سبحانه ـ بالدعاء، أو بالثناء، أو بالتسبيح، أو نحو ذلك.

فالله ـ سبحانه ـ عند الفاصلة يستنطقنا .. وفي العديد من المواضع يدعونا .. فهل نتصور كم لله علينا من نعمة بكل فاصلة منحنا إياها ما بين الآية والآية! هل نتصور كم لله ﷻ علينا من تذكير عند نهاية الآية واستنطاق؛ أن أجبني! .. قل لي! .. تحدث معي .. أنا أستمع إليك .. تجاوب معي .. أليس عندك من تجاوب؟ .. ألم تلامس الآية فيك طموحًا؟.. ألم تثر فيك طلبًا؟.. ألم تذكرك في حاجة؟ .. ألم تطرق لقلبك بابًا؟ ... ألم تخف من عذابي؟ .. ألم تطمع في جنتي؟.. فالله أعلم بما أنزل ـ سبحانه ـ ..

(١) رواه مسلم (٢٦٧٥).

وحين يتخلف العبد فإن الله يُذَكِّره، وأحيانًا يعتب عليه، كما في الحديث عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا، فَقَالَ: «**لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ؛ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ**»[(١)]، وقد صح في الحديث عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦] إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ[(٢)]، وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ**»[(٣)].

إشارة عظيمة ... ولكنها!

ولقد أشار عليَّ أحدُ أئمة هذا الميدان - حفظه الله ورعاه، وبارك فيه وفي علمه وعمله - أن أتحدث عن [بسم الله الرحمن الرحيم] .. لكن هذا المقترح جاء أخيرًا .. وجاء بعدما وصل الكتاب إلى هذا الحجم الكبير بالنسبة لموضوعه .. ورجوت أن أرجئ الحديث عنها في كتاب مستقل بإذن الله، وأنا الآن - بفضل الله - أوشك على الانتهاء منه، واسمه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فاتحة أم الكتاب، وفاتحة سور الكتاب كله.

زينة الملك في صفحة سورة الملك:

تعال، فَلْنُلْقِ نظرة على أول طريق المقنطرين، إنها [سورة الملك] .. فلننظر إلى بعض ما جعل فيها نظرة عامة على الصفحة دون قراءة .. نظرة في أرقام آياتها المباركة وفواصلها المكرمة فإذا بها ثلاثون فاصلة ما بين الآية والآية .. أي ثلاثون آية .. بل

(١) رواه الترمذي (٣٢٩١)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٧).

(٣) مسند الشاميين للطبراني (٢٦٣٧)، وقال خالد بن ضيف الله الشلاحي في كتاب التبيان في تخريج وتبويب أحاديث بلوغ المرام: في إسناده عمران بن داود القطان مختلف فيه؛ فقد ضعفه ابن معين والنسائي، ووثقه أحمد، وللحديث شاهد.

ثلاثون فرصة من ربنا ـ سبحانه ـ للتجاوب مع كلامه .. ثلاثون فرصة لدعائه .. ثلاثون فرصة لتسبيحه ـ سبحانه ـ وحمده، والثناء عليه، والاستعاذة به من عذاب النار، وسؤاله الجنة .. ثلاثون فرصة بعد كل آية تمامًا، كأنك في الجنة تقرأ الآية، وتتوقف عند الفاصلة فترتقي درجة، ويا له من ارتقاء، ثم تقرأ الثانية فترتقي، وما أسعده وأعلاه وأحلاه من عروج! ثلاثون درجة .. وليست الدرجة سلمة درج، ولا محطة توقف، بل هو عالم آخر ومقام آخر، وكأنه دار أخرى من ذات الجنة حيث ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حين يقال للحافظ في الجنة: «**يُقَالُ** - يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: **اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»(١)، نعم كما كنت تقرأ في الدنيا، وترتقي عند ربك، وتعرج إلى ربك وأنت لا تدري في الدنيا إلا أنك اليوم تدري؛ لأنك اليوم في الجنة، فهذا المشهد حقيقة عيانية واقعية أمام أهل الجنة أجمعين، وهل من أحد أفضل وأكرم من أهل الجنة؟ كيف ورب العالمين على ذلك شهيد .. نعم ذلك حق، ولولا أن ذلك الارتقاء عند الله كان في الدنيا ما كان اليوم في الجنة؛ ولهذا قيد الحديث هذا بهذا؛ فقال: «**كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا**».

فهل عرفنا الآن بعض قيمة الصفحة من صفحات هذين الجزأين الكريمين؟ هل عرفنا ما ينبعث من خير عند كل فاصلة بين الآيتين؟ .. هل شكرنا الله ﷻ على كل فاصلة؟ .. هل عرفنا التميز لكثرة آيات الله في الصفحة الواحدة في صفحات سور [الألف آية] ؟ .. وكل صفحات القرآن عظيمة.

إن كثرة الآيات هنا في مشروع المقنطرين حقيقة .. والفضل لكثرة الآيات، فكم يحب الله ﷻ تجاوبنا بعد حفظنا! .. كم يحب الله قيامنا بها!.. وكم يحب الله أنفاسنا الساخنة الصادقة التي تبعثها فينا كلمات الله ﷻ!

فكل فاصلة ما بين الآية والآية منارةُ نورٍ عظيمةٍ تولدت من اجتماع الآيتين، فارتقت، وازدانت، وتباركت، وباركت ..

(١) رواه الترمذي (٢٩١٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

كم يتوقف الصوت بالقراءة ليعقبه فورًا السكون! بل تعقبه السكينة التي هي ثمرة من ثمرات تَنَزُّل السكينة مع آيات الله .. وكم ينبعث التدبر والتفكر بعد كل آية من آيات الله بعدما جاءت إشاراتها أثناء الآية لتنبعث في الإنسان الحكمة من كتاب الله الحكيم!

كم يصنع الله في قلب عبده ما يصنع من العلم والفهم الدقيق والحق والتحقيق في كل ميادين الحياة التي يَرِدُ ذكرها هنا في الآيات! وأي مجال من مجالات الحياة لم يرد ذكره في كتاب الله العظيم؟

العظمة في كثرة السور القرآنية:

ليست كثرة السور القرآنية في هذين الجزأين الكريمين بالأمر الخافي على أي قارئ للقرآن .. أفيظن مسلم بربه ﷻ إلا أن يكون له ـ سبحانه ـ وراء هذا التغيير في السياق حكمة بالغة ..

ولكل سورة من هذه السور في هذين الجزأين خاصية كما بالسور الأخرى .. فكل سورة لها سورها، ولكل سورة كيانها، ولها عالمها، ولها أجواؤها، ولها أهدافها، ولها فضائلها، ولها خصائصها، ولها وحدتها الموضوعية، كما أن لها ارتباطها بما جاورها من سورة قبلها وسورة بعدها على أقل تقدير .. ولكل سورة علاقة بالإنسان أولًا، وكل سورة تصنع الحياة وهي للحياة، ولها تأثيرها في الحياة، ولكل سورة هداياتها وفيها دعوتها كما أن فيها حجتها، وذلك أن لكل سورة نورها، ولها بركتها وهداها.

فكل سورة من هذه السور الكريمة سماها الله سورة، وفاخر بها ـ سبحانه ـ وتحدَّى بها ـ سبحانه ـ .. وهي كلامه ـ سبحانه ـ فقال ـ سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال ـ سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال ـ سبحانه :

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤]، وقال ـ سبحانه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، ثم إن كل سورة من هذه السور تتقدمها [بسم الله الرحمن الرحيم]، وقد بيَّنَّا شيئًا عن [بسم الله الرحمن الرحيم]، إذن فكل سورة منها رحمة عظيمة من رحمة الله الرحمن الرحيم، وكل سورة تبتدئ بـ [بسم الله الرحمن الرحيم] وغير هذا عند التفضيل، والتفضيل كثير؛ فكيف لا ينطبق على أقصر سورة ما ينطبق على أطول سورة بحكم أنها سورة عظيمة وكيانٌ مستقلٌّ، وأولًا وآخرًا هي كلام الله المنزل على الخلق في موضوع مخصوص اسمه سورة، فأي عظمة لهذين الجزأين قد جعل الله فيهما ما يقارب نصف سور القرآن كله في هذين الجزأين وحدهما إلا قليلًا، فهنا ثمان وأربعون سورة عظيمة، والقرآن أربع عشرة ومائة سورة، فكل سورة لها موضوعها العظيم، وموضوعها الذي يسوِّر آياتها، ولها إعجازها العظيم؛ لأنها جزء لا يتجزأ من القرآن العظيم .. وهذا في كل سورة من هذه السور القصار .. فكم جعل الله في كلماته التامات من عجب عجاب؛ ولقد ذكر الله ﷻ عن الجن قولهم هذا في سورة من سور جزء تبارك، وهي سورة الجن فقال ـ سبحانه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، فإن الكنز العظيم الكبير حين يجعل في موضع محدود جدًّا جدًّا رغم سره الكبير فإن هذا من أعجب العجب، ومن أعجب العجب أن تنظر في الكلمة الواحدة من كلماتها فتجد الكلمة الواحدة منها – ولله المثل الأعلى – مثل الحجر الكريم المشع، أنَّى نظرت إليه ومن أي جهة من الجهات أعطاك من الأشكال والأنوار والألوان العجب العجاب المنقطع النظير حتى تظن أن جميع الجهات الأخرى شكل واحد، فإذا نظرت إليه من جهةٍ أخرى، أو وقت آخر رأيت ما لم تره من قبل .. نعم، فالسور هنا قصار، لكن كم فيها من الإعجاز الكبير والسر العميق رغم سهولتها وبساطتها وسلاستها .. وسبحان الله! كم يخيل إليك أنك عرفت كل

شيء عن هذه السورة أو تلك! ثم يتبين لك أنك أمام بحر لا حدَّ له، ولا نهاية، ولا حدَّ لعمقه .. وقد رأيت هذا بنفسي في جميع سورها، ووالله إنه لعجب، بل أعجب العجب، وإلا فمن أي باب قال النبي ﷺ عن سورة الإخلاص وهو يقسم ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(١)؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(٢)، وهل كان هذا الرجل يرددها طوال ليله إلا لأنه لا يستطيع مفارقتها لشدة جذبتها .. وشدة أسرها للقلوب .. وغلبتها على العقول وعلى كل شيء حتى على النوم الذي هو ضرورة خَلْقية فغلب سلطانها سلطانه، وغدا النوم أمام سورة الإخلاص بلا سلطان، حقًّا يجب أن نعيد النظر، ونتدبر الأمر كثيرًا في عظمة هذين الجزأين وعظمة كل سورة من سورهما، وتدبرها لا يحتاج إلى قراءات كثيرة في كتب التفسير، فالتدبر عادة لا يحتاج إلا فهم ما أشكل فهمه من الكلمات فقط .. فالتدبر بها في الصلاة مقام لا يبلغه التدبر في خارج الصلاة، والتدبر في الليل مقام لا يبلغه التدبر إذا طلع النهار ... وأن تتدبر وفي جوفك الجزآن أو غيرهما من القرآن العظيم مقام لا يبلغه أبدًا التدبر وأنت تقرأ من المصحف وفي كلٍّ خير، والتدبر وأنت متقن لحفظك مقام لا يبلغه التدبر وأنت تَتَعْتَعُ في الحفظ؛ ولذا جعل الله ﷻ الماهر في حفظ القرآن مع السفرة الكرام البررة، بينما حظي المتتعتع بأجرين وما رجع فارغًا، وذلك دافع له أن ينظر إلى معية لا يبلغها حتى يصبح ماهرًا في حفظ القرآن العظيم، فقال رسول الله ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**»(٣)، وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ**

(١) رواه البخاري (٦٦٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٦٤٣).

(٣) رواه مسلم (٧٩٨).

يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟»، قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(١).

ومن هذا الباب كذلك قال النبي ﷺ: «لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ مِثْلُهُنَّ: الْمُعَوِّذَتَيْنِ»(٢)، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ يَا جَابِرُ»، قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «اقْرَأْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهُمَا، فَقَالَ: «اقْرَأْ بِهِمَا، وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا»(٣)، وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى قَدَمِهِ، فَقُلْتُ: أَقْرِئْنِي سُورَةَ هُودٍ، أَقْرِئْنِي سُورَةَ يُوسُفَ، فَقَالَ: «لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللهِ ﷻ مِنْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾»(٤).

العظمة في الكثرة وفي السهولة معًا: سهولة سور الجزأين - رغم كثرة آياتهما - وسهولة حفظهما للمبتدئين: فسبحان الله! كم لله من حكمة بالختام بالجزأين الأخيرين [جزء تبارك] و[جزء عَمَّ]! فهذان الجزآن من التسهيل والتيسير على مَن يريد تعلم القراءة .. حتى لكأنهما للتدريب على ذلك .. وللتدريب على حفظ أكبر من ذلك ... ولا تستوي الآية الكبيرة الطويلة مع الآية القليلة ذات الكلمات القصيرة.

والأمر كلٌّ متكامل: فعادة أئمة الصلاة هو القراءة بجزء تبارك وجزء عم أكثر، وما كان الناس يطيلون حتى في عهد النبي ﷺ حتى في صلاة العشاء، وقد روى جَابِرُ بْنُ

---

(١) رواه مسلم (٨١١).

(٢) أخرجه النسائي في الأوسط (٢٦٥٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٤٩) رقم (١١٥٥٨): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ.

(٣) رواه النسائي (٥٤٤١)، وابن حبان في صحيحه (٤٣٤)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد في كتاب فضائل سور القرآن الكريم ص (٤٣٣): إسناده صحيح.

(٤) رواه النسائي (٥٤٣٩)، وأحمد (١٧٣٤١)، وابن حبان في صحيحه (٤٣٢)، والحاكم (٤٠٣٠)، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

عَبْدِ اللهِ ﷺ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ﷺ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟**» ثَلَاثًا «**اقْرَأْ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، وَ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وَنَحْوَهَا**»[1]، فالناس اعتادوا سماع هذين الجزأين أكثر من غيرهما، فجاء معاذ ﷺ وقد صلَّى خلف النبي ﷺ ممتلئًا إيمانًا وتلذذًا بالقرآن، فردّه النبي ﷺ إلى ما تعوَّدوا عليه ... فأُلفة الذاكرة عند كل مسلم لهما عظيمة .. وحضور جزء عَمَّ في الذاكرة ليس مثله حضور في بقية أجزاء القرآن العظيم كله ..

وهنا تظهر حكمة عظيمة لقصر آيات الجزأين الأخيرين: فسبحان مَن جمع قلة الكلمات، مع كثرة الآيات، مع سهولة حفظ الكمية من الآيات في الجلسة الواحدة، مع سرعة المراجعة والصلاة بها، والمراجعة التلقائية مع أي إمام تصلي خلفه، وهذه السهولة والسلاسة في الحفظ جعلت أنسب ما يكون الابتداء بهذين الجزأين للصغار، وهذا هو المطلوب؛ إذ الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر، وبهذا أصبح بوابة حفظ الصغار للقرآن هي هذان الجزآن .. فسبحان مَن حفظه ويسر حفظه وتكفل بحفظه!

عظمة الختام بهما للحفظة: أما بالنسبة لحفظ الكبار فإن المعتاد أن الأكثر منهم مَن يقرر الابتداء من سورة البقرة باعتبار أن كل مسلم حافظ لسورة الفاتحة وهكذا، فإن الحفظ يستمر من البقرة وما بعدها حتى إذا وصل إلى هذين الجزأين جاءته فيوض الخيرات من كل مكان .. فيكون هذان الجزآن كأنهما المكافأة فالجزاء من جنس العمل، وأن الجزاء على الحفظ من جنس الحفظ نفسه وتسهيل الحفظ، وفي هذين الجزأين وحدهما من الآيات ما يقارب سدس القرآن، فتعداد آي القرآن هو

(١) رواه البخاري (٦١٠٦).

٦٢٣٦ آية، وهذان الجزآن فيهما ألف آية، وحتى من حفظ مبتدئًا بهما فإنه عند تمام حفظه سوف يستمر، ويستقر حفظه وتعاهده القرآن مبتدئًا من سورة البقرة حتى يختم بالجزأين الأخيرين، وهكذا يقبض مكافأته في كل مرة بقراءة ألف آية وآية في وقت لا يمر عليه سريعًا، ويترك أجور ألف آية عنده في دقائق معدودات، مع الأجور المضاعفة على الأحرف، وفوق ذلك أجور كل آية مستقلة من الآيات وما وعد الله عليها في كل مرة وأجور كل سورة وحدها.

وهكذا تكون مسك الختام في درجات الجنة كثرة الدرجات، وعظمتها، وسرعة تسلمها، ويا له من ختام فإن القبض للدرجة من درجات الجنة محدد بحفظ آية «**وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً**»(١).

عظمة النظرة الأولى للصفحة الكريمة: نظرة واحدة على أول صفحة كريمة من صفحات الجزأين الكريمين الخاتمين ترينا عظيم فيض فضل الله علينا ..

هنا ابتدأت آيات الله تتابع ... يتبع بعضها بعضًا كأنها ملائكة الله مردفين يتتابعون .. مسومين وبالنور والهدى والرحمة منزلين .. لا والله بل أعظم من ملائكة يتبع بعضهم بعضًا فهي كلمات رب العالمين .. وهكذا أنزلت سور هذين الجزأين .. فكل سورة أنزلت وحدها .. لم تنفصل عن آيات مباركة، بل أنزلت كسور مباركة كاملة.

فسبحان الله العظيم! فما هذا الجزاء العظيم ظاهرًا وباطنًا في سور هذين الجزأين، وفي كل صفحة من صفحاتهما!

هذه أول صفحة لسورة الملك تحمل اثنتي عشرة آية، والصفحة الثانية تحمل أربع عشرة آية .. لتتم هذه السورة وحدها ثلاثين آية في صفحتين وثلث صفحة تقريبًا ...

هل نحتاج أن نَذْكُرَ كَمْ ذَكَرَ الله عن آياته في القرآن العزيز؟ .. هل نحتاج أن نذكر ماذا يعطي الله على حفظ كل آية؟

الله أكبر، فما كانت سورة الملك إلا البداية في فيض الآيات العظيمة الكريمة لتأتي

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٨٠)، وصححه الألباني.

بعدها فتكتشف أن سورة القلم وحدها اثنتان وخمسون آية ... وما هي إلا حوالي صفحتين كريمتين ليس إلا .. لتحق سورة الحاقة وتلحقها باثنتين وخمسين آية في صفحتين تقريبًا، وما هي إلا أن تجمعها في صدرك فتجتمع الدرجات الموعودة، ووعد الله حق لا ريب فيه .. ومعها هنا أجورٌ أخرى على الأحرف والكلمات والآيات .. حقًّا والله إنه عطاء الله لأهل القرآن الذي لا نظير لعطائه ﷻ، فهم كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ لِلهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ**» قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»(١)، فما عليك إلا أن تتم هذا الجزء، ثم جزء عمَّ بعده، وإذا في صدرك ألف آية .. أصبحتْ كأنها جزء من كيانك .. لا فراق ما دمت حيًّا في هذه الدار .. لا فراق إلى جنة الخلد يا آيات الله ... لا فراق الليل والنهار .. نائمًا ويقظان .. تعاهدًا متصاعدًا كنت في الدار أم خارج الدار .. غاديًا غانمًا ... ورائحًا رابحًا ...قائمًا مع الملائكة الكرام البررة نائمًا محتضنًا آيات الله في صدرك .. فهي اليوم أجرك، وهي عند الله سرك، وفي القبر رفقتك، وفي الجنة رفعة ذكرك؛ إذ قد حجزت من الآن درجاتها الخاصة بها حتى عن أهل الجنة.

وسبحان الله العظيم! فإن المرء لا يكاد يختم هذا الجزء بسورة المرسلات بخمسين آية على الوفاء والتمام، والحفظ والإتقان .. حتى يدخل في جزء عَمَّ مفتتحًا بسورة النبأ، وهنا تجد أن السور أصبحت أقصر وأقصر، وهكذا حتى تصبح السورة في نصف صفحة، بل أقل .. فتخف على الحفظ وتلطف أكثر وأكثر .. ولكن تبقى المزية الكبرى هنا مثلما كانت في الجزء السابق وأكثر، ألا إنها أعداد الآيات، وإن شئت قلت: أعداد الدرجات، فهي في مزيد على أكرم صفحات، فمطلع هذا الجزء إنما هو سورة النبأ، فإنها أربعون آية تامة كاملة كريمة على صفحة ونصف ليس إلا، فتلحقها سورة النازعات في صفحة كريمة ونصف الصفحة في ستٍّ وأربعين آية، ثم سورة (عبس وتولى) في اثنتين وأربعين آية على صفحة كريمة واحدة فقط .. ثم سورة

(١) رواه الحاكم (٢٠٤٦)، وأحمد (١٢٢٧٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

التكوير وآياتها تسع وعشرون آية في أقل من صفحة .. فامضِ على رضوان من الله في الليل والنهار، واليقظة والمنام .. والله يجمع لك في صدرك آياته .. وينزل عليك ما لا تعلم من رحماته وبركاته ومواكب ملائكته، وكلما حفظت وأتقنت أعدَّ لك المكلفون في الجنة في نفس الوقت بتوسيع ملكك ومنحك درجات جديدة حسب حفظ الآيات الكريمات .. لا يتأخرون عن ذلك، ولا يفترون؛ ومَن أصبح له قطعة من الأرض لا بد أن يدخل ويتسلمها بشهادة ملكيته فيها .. ومَن أصبح له قصر حجته معه وصكه بيده أن يدخل ويسكن قصره، ومَن كان له جنان في الجنة لا بد أن يدخلها، فله فيها أهلون وغلمان وأهل سابقون ولاحقون، ولهم ولدان مخلدون.. وهناك الخلود، ونعم مفتاح العظيم القرآن العظيم!

وما عليك لكي تتسلم درجاتك العليا في الجنة إلا أن تقرأ كلام ربك ﷻ أمام ربك ﷻ بصوتك ومن حفظك وأنت ترتل كما كنت ترتل في الدنيا، فأي فخر في العالمين يجري في نفس القارئ في هذا المشهد الأعظم؟ أي إن الموت لم يأكل من حفظه حرفًا واحدًا، والزمان لم ينس منها آية .. بل حتى لو مرض الحافظ، ونسي بعض القرآن أو كله فإن الله بفضله يجمع له حفظه فهو كامل معه في قبره، وفي حشره، وهو معه في جنته .. فالله ـ سبحانه ـ أكرم من أن يحرمه فضله وهو ـ سبحانه ـ من ابتلاه بالمرض، والمرض هو مَن منعه القيام والتعاهد، والنبي ﷺ يقول: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[(١)]، والزهايمر وغيره من الأمراض المُنْسِيَةِ إنما هي أمراض منعته القيام بالقرآن وتعاهد القرآن بالليل والنهار .. فالله يكتب له ذلك عنده كما كان لم ينسَ شيئًا، ولم يفلت منه شيء، فلا حسرة ولا خوف مع مَن نسي القرآن في آخر عمره؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَابُ بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ إِلَّا أَمَرَ اللهُ ﷻ الْـمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَهُ، فَقَالَ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ، مَا كَانَ فِي**

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦).

وِثَاقِي»[١]، وفي الحديث الآخر يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: «**أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ**»[٢]، وما ضر حافظ القرآن إذا جاءه ما يكفِّر خطاياه، ويرحل بالقرآن والقيام صافيًا خالصًا .. مع ما يزيده الله من درجاته بالقرآن .. فالله ﷻ أبر وأكرم من أن يعامل العبد بهذا الظن السيئ، ويحشره هو ومَن لم يحفظ القرآن سواء .. وما ذلك إلا لأنه مرض! تعالى الله عن ذلك كثيرًا، حتى لو عاش بقية حياته ناسيًا نسيانًا كاملًا للقرآن بسبب الزهايمر، أو الحمى الشديدة، أو ما إلى ذلك من هذه الأنواع من الأمراض ... وإلا فلِمَ نهى عمر ﷺ عن كتابة كتاب كما طلب النبي ﷺ ذلك؟ وقال: قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمُ الْقُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللهِ[٣]، والهذيان إنما هو من الحمى الشديدة، وهذه لا عيب فيها .. لكن تحدث اختلاطًا، وتحدث نسيانًا، وتحدث أمراضًا خطيرة؛ مثل تلف أجزاء من الدماغ، ومرض التشنج، بل وتكون من أسباب الموت، وقد روى عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قال: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»، فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَجَلْ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مَرَضٌ، فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»[٤]، بل هناك إعانة الله تعالى تجبر كل تقصير ... إلا أن الله ـ سبحانه ـ يحب حفظ كلامه بإتقان وإحسان، وهو القائل في عموم الأعمال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[٥]،

---

(١) رواه أحمد (٦٤٨٢)، والحاكم (١٣٠١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٢) رواه أحمد (١٧١١٨)، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(٣) رواه البخاري (٥٦٦٩)، ومسلم (١٦٣٧).

(٤) رواه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).

(٥) رواه مسلم (١٩٥٥).

فكم يحب الله الإحسان في حفظ كلامه .. ألا أيها الحافظ حلِّق، وارتق في أجواء المقربين .. وزد حتى تكون مع السفرة الكرام البررة من ملائكة الله، بل أخص الخاصة عند الله، وذلك بإتقان حفظ القرآن، وقد قال النبي ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**»(١).

عظمة اسم السور:

ليس المقصود هو التفريق بين آيات الله – معاذ الله من هذا – إنما هو التنبيه لما نبَّه عليه رسول الله ﷺ، وحثَّ عليه، ونبَّه إلى عظمتها من سورٍ كثيرة مباركة وعظيمة، وإنها والله لكذلك.

أليست سور هذين الجزأين خاصة هي السور التي ربطنا النبي ﷺ أكثر ما يكون الارتباط في حياتنا كلها؟

أليست هذه السور على قصرها لها هدفها الذي تبلغه رغم قصر آياتها بسرعة كسرعة الانتهاء منها .. وإذا ما تدبرتها أكثر وكررتها أكثر أفاضت عليك ... لا يفتر هداها ولا يخف فيضها، بل تزداد هدًى ونورًا؟

أليست هي السور التي جاءت في ختام القرآن العظيم، وإنها للختم العظيم للقرآن العظيم .. والختام بالمسك العظيم للقرآن العظيم وكل القرآن العظيم مسك؟

أليست هي السور القصيرة التي باشرت الموضوع الذي تحدثت فيه فأشارت إلى هدفها في خطفة نور خاطفة عند عنوانها؟ ولهذا تجد أن كل سورةٍ من سورِ الجزأين الأخيرين العظيمين قد باشرت كل سورة منها بذكر اسمها أولًا، وذلك في مطلع كل سورة منها بشكل صريح .. وفي الآية الأولى منها وإلا فالثانية، وكأنها تقول لا يذهب قلبك بعيدًا ولا تسرح .. هاك التعارف أولًا، هاك اسمي، واستمع لقول الله فيَّ .. فإني إن فتك فقد فاتك من كلام الله ما لا عوض له .. ولا أَبْلَغَ منه، وكل كلام الله عظيم وبليغ.

(١) رواه مسلم (٧٩٨).

فانظر في أسماء السور، وأين موقع الاسم في كل سورة؟ .. أليس في أولها؟

سورة الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

سورة القلم: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

سورة الحاقة: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [سورة الحاقة].

سورة المعارج: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [سورة المعارج].

سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١].

سورة المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

سورة القيامة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١].

سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

سورة المرسلات: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١].

سورة النبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [سورة النبأ].

سورة النازعات: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١].

سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١].

سورة التكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

سورة الانفطار: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

سورة المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

سورة البروج: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

سورة الطارق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١].

سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

سورة الغاشية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

سورة الفجر: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١].

سورة البلد: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١].

سورة الشمس: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١].

سورة الليل: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

سورة الضحى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١].

سورة الشرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

سورة التين: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١].

سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [سورة العلق].

سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

سورة الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

سورة العاديات: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١].

سورة القارعة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ [سورة القارعة].

سورة التكاثر: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر: ١].

سورة الهمزة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١].

سورة الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١].

سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

حتى سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فاسمها الثابت الذي سماها النبي ﷺ به هو ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وأما تسميتها الإخلاص فهو لا شك صحيح، لكن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو المنصوص.

وأما سورة الماعون فإن اسمها كان في آخرها .. ففي ختامها تدرك أن سرها ومحورها في آخرها .. وأن هدفها في ختامها .. وهذا الذي يجعلك تعيد قراءتها بعد الانتهاء منها مباشرة ولن تخرج إلا والماعون قد امتلأ علمًا وفاض بإذن الله، كما أن الكثير من أهل العلم مَن يسميها سورة ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، وكذلك سورة المسد فقد جاء اسمها في آخرها، بل من العلماء مَن يسميها سورة ﴿تَبَّتْ﴾، والتسمية بأول آية في قصار السور هي ما ثبتت عن النبي ﷺ في العديد منها، والله أعلم.

فصل: عظمة آيات الله

آيات الله هي آيات كتاب الله ﷻ:

آيات الله مجموعها هو كتاب الله، وكتاب الله هو مجموع آيات الله.

فهل مرَّ على أهل المعرفة تعريفٌ بهذه العظمة .. تعريفٌ محسوسٌ ملموسٌ مكتوبٌ ومقروءٌ ومنظورٌ؟ .. هل بين السماء والأرض شيء .. أي شيء دون استثناء؛ مثل كتاب الله؟ .. مثل آيات الله؟ .. مثل كلام الله؟ .. مثل القرآن العظيم؟ فالله ﷻ يجمع آيات الله وكتاب الله معًا؛ لأنهما شيء واحد؛ فيقول ـ سبحانه : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، ويجمع الله ﷻ الثلاثة معًا: آيات الله، وكتاب الله، والقرآن العظيم؛ فيقول ـ سبحانه: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١]، ويقول ـ سبحانه: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، ونسب الآيات للرحمن وهي حقًّا آيات الرحمن فقال ـ سبحانه: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال ـ سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦].

فآيات الله هي آيات الله قصيرة كانت أم طويلة .. في أول القرآن، أم في وسطه، أم في ختامه، وكل ما في القرآن من آيات كله كلام الله ليس للبشر فيه آية واحدة، بل ولا يخالطه حرف واحد للبشر مطلقًا، ولولا أن هذا القطع أمرٌ عظيم جد عظيم .. لما جعل الله حبيبه ورسوله محمدًا ﷺ هو مَن يعلن الله ﷻ له هذا الإعلان بكل الصراحة والحزم في القرآن؛ ليقرأه كل مَن يقرأ القرآن، فقال ـ سبحانه : ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾ [سورة الحاقة].

ولهذا فإن للآية مثل ما للقرآن .. كيف لا ومجموع الآيات هو القرآن؛ هو كلام الله، فالآية شفاء؛ لأن القرآن شفاء، والآية معجزة؛ لأن القرآن معجزة، والآية حجة بالغة؛ لأن القرآن حجة بالغة، والآية نور؛ لأن القرآن نور، والآية مباركة؛ لأن القرآن مبارك، والآية سكينة؛ لأن القرآن سكينة، والملائكة تتنزل على مَن يقرؤون آية واحدة اجتمعوا عليها كما تتنزل على مَن يقرؤون جزءًا أو ثلاثين جزءًا.

إذن فمَن يحفظ آية فليفرح بها فإن له كل ذلك .. ولو قليل من الحفظ، ومَن يحفظ آية فقد حمل مِسْكًا فليطيب به الآخرين، ومَن حفظ القرآن العظيم فكأنما حشي كله مِسْكًا، وكأنما أصبح كله نورًا يمشي بين الناس، كما قال ربنا ـ سبحانه : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ومَن حفظ ألف آية فقد تحوَّل من مقامه الذي هو فيه أيًّا كان إلى أعلى مقام وهو مقام [المقنطرين]، كما في الحديث، ومَن حفظ القرآن كله فكأنما أصبح نبيًّا إلا أنه لا يوحى إليه، وحينما أقول: القرآن فالمقصود إنما هو مجموع آيات الله ... ومَن أوتي آيات الله علا ورفع بين المسلمين، وإن كان عبدًا مملوكًا، كما في حادثة ابن أبزى؛ فَعَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ - وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ - فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى، قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ ﷻ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(١).

ومن حفظ آية حملها إلى غيره، والنبي ﷺ يقول: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(٢)،

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

فتعظيم الآية والآيات كتعظيم القرآن العظيم والكتاب المبين، والله ﷻ ذكر ذلك عن الآيات وباسم الآيات؛ فقال ـ سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥]، وقال ـ سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وإبراهيم ﷺ أعلم بربه وأعلم بما يحب وأعلم بما دعا به ربه من دعوة عظيمة، فقال ـ سبحانه ـ عن ذلك: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وهنا نعود لنقول: إن مجموع الآيات الكريمة في هذين الجزأين يمثل سدس آيات القرآن كله إلا قليلًا .. علمًا بأن القرآن العظيم ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية[(١)]، فكم في هذين الجزأين من كرامة، وإكرام، وهدى، ونور، وبركة، وحماية، وكم فيهما من ناقة كوماء سمينة خَلِفَةٍ ثمينة.

هل نحتاج إلى كلام كثير عن آيات الله حتى ندرك نظريًّا ماذا تعني آيات الله؟.. إذن فلنتدبر هذه الحادثة؛ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ : أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ لِأَهَبَ لَكَ نَفْسِي، فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا، فَقَالَ: «**هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟**»، فَقَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ، فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا**»، فَذَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا وَجَدْتُ شَيْئًا، قَالَ: «**انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ**»، فَذَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي، قَالَ سَهْلٌ: مَا لَهُ رِدَاءٌ فَلَهَا نِصْفُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا**

(١) طبقًا للعدد الكوفي، مع العلم أن الجدول الموجود في الكتاب طبقًا للعدد المكي، وعدد آيات القرآن في العدد المكي ٦٢١٠ آية.

تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؟ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ شَيْءٌ»، فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى طَالَ مَجْلِسُهُ، ثُمَّ قَامَ فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: «**مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟**»، قَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا، عَدَّهَا، قَالَ: «**أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**»(١)، وفي رواية: «**انْطَلِقْ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا، فَعَلِّمْهَا مِنَ الْقُرْآنِ**»(٢)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه نَحْوَ هَذِهِ الْقِصَّةِ لَمْ يَذْكُرِ الْإِزَارَ وَالْخَاتَمَ، فَقَالَ: «**مَا تَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ؟**»، قَالَ: سُورَةَ الْبَقَرَةِ أَوِ الَّتِي تَلِيهَا، قَالَ: «**فَقُمْ فَعَلِّمْهَا عِشْرِينَ آيَةً، وَهِيَ امْرَأَتُكَ**»(٣).

هكذا بيَّن النبي ﷺ بأغلى ما عندهم في الجاهلية والإسلام؛ وهو العِرض، فإنه تحل حرمته بآيات الله ... وهذا ليس ثمن قراءة القرآن، وإنما مهر المرأة بما حفظ هذا الرجل من القرآن، والحديثان يشهدان بأن النبي ﷺ قسَّمهما قسمين كما هو الشأن في المهر؛ قسم معجَّل يعطيها إياه عاجلًا وهو تحفيظها أو تعليمها عشرين آية، وهي قد حَلَّت له بالعقد وبكلمة رسول الله ﷺ «**زَوَّجْتُكَهَا، فَعَلِّمْهَا مِنَ الْقُرْآنِ**»، والمعجل الذي به تصبح امرأته عشرون آية «**فَقُمْ فَعَلِّمْهَا عِشْرِينَ آيَةً، وَهِيَ امْرَأَتُكَ**»، وهذا ما قال به الإمام الشافعي رحمه الله وغيره، وجمع الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله وغيره ما ورد في هذا من روايات، وهو ما يشير إلى أنها أكثر من حالة.

هذه ليست مسألة فقهية فحسب، هذا عِرْضٌ يَحِلُّ بإذن رسول الله ﷺ وهبته هو لهذا الرجل بعد أن كان حرامًا عليه ... إذ الرجل ولَّى، ودعاه النبي ﷺ، وزوَّجه بهذا الشرط، وهذه الدعوة، وإعادته للرجل بعدما ولَّى إما القصد هو إظهارٌ منه ﷺ لعظمة الأمر، وإما أن الوحي جاءه في اللحظة من ربه يخبره بهذه الطريقة .. وكل شيء وحي من الله، وكل شيء يدل على عظمة آيات الله تعالى .. وأن مَن معه نقود أو مادة من

(١) رواه البخاري (٥٠٣٠).

(٢) رواه مسلم (١٤٢٥).

(٣) رواه أبو داود (٢١١٢)، وضعفه الألباني.

حطام الدنيا ليس بأغنى ممن معه آيات الله عند الله وعند رسول الله ﷺ، وهذه خاصة برسول الله ﷺ.. فوهبها رسول الله ﷺ للرجل بما معه من القرآن مَهْرًا ... فهل رأى الناس أغلى في عالم العقود عقدًا مثل ما تستباح به الفروج؟

وهل أغلى في عالم المهور مهرًا من آيات الله؟

إنها زوجة جديدة ﵂ لن يغيب عنها ما عاشت في هذه الدنيا أن زواجها كان بآيات من آيات الله وأنها حفظتها ... إنه زوج جديد لن يغيب عنه فضل حفظ آيات الله عليه من قبل الزواج وما بذله لأجل حفظه من ذهاب وإياب وتعلم قراءة أحرف القرآن العظيم ثم حفظه، وتعاهده بالليل والنهار قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه حتى استحق أن يقول للنبي ﷺ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا، وصدَّقه رسول الله ﷺ بإقراره السكوتي وهو أساسًا لم يحفظ للنكاح ولا لسواه، ولم يخطر له خاطر يومًا أن يأخذ في مقابل هذا شيئًا، بدليل أنه لم يلتفت إليه وهو معه وهو في شدة الحاجة حتى نبَّهه النبي ﷺ بسؤاله الشريف: «**مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟**».

فهل ينسى هذا الرجل مهره الأول، أم ينسى شكر الله الذي منَّ عليه بهذا، وشكر رسول الله ﷺ الذي وهبه مَنْ وهبتْ نفسها إليه، وأنه ﷺ من نبَّهه إلى ما عنده من ثروة هي الأغلى فيما بين السماء والأرض .. وأي شيء أغلى من آيات الله، إذن فكيف ستكون علاقته بالقرآن ... وعلاقته بما حفظه وما لم يحفظه؟

كيف سينشأ نشء هذه الأسرة الذين هم ثمرة غراس حفظ الأب لآيات الله وحفظ الأم لآيات الله من هذا الأب، وهذا نشء جديد في ذلك المجتمع العظيم الذي ما مرَّ ولن يمرَّ على هذه الأرض مجتمعٌ مثله مطلقًا؟

آيات الله هذه ليست شيئًا غير القرآن العظيم، فما القرآن العظيم إلا آيات الله ﷻ، أقول هذا مع أنه عند ذكره مُسَلَّم .. إلا أنني أردت الإفاقة لهذا الأمر المسلَّم عند حفظ الآيات وعند تعاهدها ..

إنها آيات الله التي تحدى الله بها العالمين ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن

يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤].

وكيف يحفظ الإنسان القرآن العظيم ويتم حفظه إلا بأن يحفظ آيات الله جميعًا ويتقن حفظه؟ وعلى أي شيء هذه الأجور العظيمة لحفظ القرآن العظيم إلا على آيات الله العظيمة؟ ولولا أهمية التنصيص على هذه المعلومة ما ذكرها الله ﷻ كثيرًا باسمها؛ فقال: ﴿ءَايَٰتِىٓ﴾ [الأعراف: ٣٥]، ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١]، ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٧١] ... ولولا أهمية الآية الواحدة والاثنتين لما جعل النبي ﷺ على الآية الواحدة وحفظها أو تعلمها أجرًا مخصوصًا؛ فيقول عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ - أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ - فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ[1] فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ! قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»[2].

ولا بد من ملاحظةٍ في هذا الحديث، وهي قول النبي ﷺ: «**أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ**»، مع أنه لو ذهب يومًا واحدًا، وحفظ أي قدر لحصل على ما ذكر النبي ﷺ، ولكن «**كُلَّ يَوْمٍ**» تفيد معنى زائدًا ... تفيد المواصلة والاستمرار، تفيد الفرح بحفظ أي آية، تفيد الإتقان لأي آية .. تفيد ربط الآية بالآية .. تفيد بلوغ الغاية، وهي إتمام حفظ القرآن العظيم الكريم كاملًا، وإلا إتمام ما قرَّره المرء على نفسه كحفظه البقرة أو البقرة وآل عمران، أو حفظه ما يبلغ به أن يصبح عند الله من المقنطرين، كما هو هذا المشروع بهذين الجزأين والقيام بهما .. ويا لها من غاية عظمى وطريق سهل مبارك، وهكذا هي

(١) كوماوين: عظيمتين.

(٢) رواه مسلم (٨٠٣).

آيات الله عند النسيان؛ فالنسيان للآيات شيئًا فشيئًا، فإن التحذير من نسيان القرآن العظيم إنما هو بنسيان الآيات الكريمة، وإلا كيف يكون؟ ... فالقرآن لن يرفع جملة واحدة إلا في آخر هذا الزمان، والنبي ﷺ يقول رحم الله فلانًا ... لقد ذكرني آية كذا: «**بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**»(١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ**»(٢).

وَعَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: مَا فَضْلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْرَأْهُ مِمَّنْ دَخَلَ الجَنَّةَ؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ عَدَدَ دَرَجِ الجَنَّةِ عَلَى عَدَدِ آيِ القُرْآنِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِمَّنْ دَخَلَ الجَنَّةَ أَفْضَلَ مِمَّنْ قَرَأَ القُرْآنَ(٣).

عظمة حراسة رسول الله ﷺ السور القصيرة والآيات القصيرة: فلننظر في هذه الكوكبة المباركة من آيات الله تعالى وأحاديث رسول الله ﷺ، فهل فرَّق رسول الله ﷺ بين أنواع في الأجر؟ هل فرق رسول الله ﷺ بين آيات وآيات؟ وقبل ذلك؛ هل فرَّق الله ﷻ بين آياته من ناحية حجم الآية إن كانت كبيرة أو صغيرة؟ ألم يقل الله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ألا يعني هذا أن ما في المصحف الآن من آيات الله دون استثناء كله هو الخير ولا خير فوق هذا أبدًا؟ ولا ينبغي الحديث في هذا ولا التردد في هذا .. ولننظر ماذا قال الله ﷻ في آيات الله - وليس بعد قول الله قول: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ

(١) رواه البخاري (٥٠٣٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٩٤٤)، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد في كتاب فضائل سور القرآن الكريم ص (٥٣): إسناده ضعيف.

لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة النحل]، وقال ـ سبحانه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [سورة الأعراف]، فكل آية في القرآن العظيم مجتباة بشكل مطلق قصيرة كانت أم طويلة، **فكم هو فضل الله ﷻ علينا وعلى الناس بأن جعل آيات [جزأي تبارك وعَمَّ] ألف آية، وجعل آياتها بهذه الأحجام الخفيفة اللطيفة القصيرة .. حتى يصدق على حفظ كل آية من آياتها جميع ما ورد في فضائل آيات الله تعالى** .. فاحفظ وخذ .. واحفظ وراجع ...

إنه لأمر عظيم حقًّا؛ فإن الميزان هنا لم يكن بطول السورة، ولا بطول آياتها، ولا بكثرة آياتها .. وكل كلام الله عظيم .. فهنا يعطي النبي ﷺ درسًا بليغًا لأمته أجمعين أن القياس ليس عندكم، وأنكم لن تبلغوه، وأن الأمر لن تبلغوه، وأن الأمر لن يكون بكل ما تعرفون من آيات وكلمات وأحرف وأرقام .. إن الأمر عند الله .. والميزان ميزان الله، وأنا أخبركم عن الله ..

وهذه سورة هود ثلاث وعشرون ومائة آية، وهذه سورة يوسف تتبعها من بعدها مباشرة مائة وإحدى عشرة، وآياتها ليست بالقصيرات .. ولسان حال الصحابي رضي الله عنه ومَن حضر يقول: فأين هذا من هذا .. ولعل عقبة بن عامر رضي الله عنه كان قد حفظ كل ما نزل في وقتها، ووصل الآن إلى سورة هود ومن بعدها سورة يوسف؛ ولهذا رتَّبها له وخيَّره يختار ما يشاء ﷺ له ولم يلتفت إلى قصار السور إما لحفظه لها أو لأنه تركها كلها ... فسورة هود أعداد صفحاتها أربع عشرة صفحة، وسورة يوسف ثلاث عشرة صفحة ونصف الصفحة تقريبًا، وسورة الفلق لا تكمل نصف صفحة وكذا سورة الناس، فرسول الله ﷺ أُهْدِيَتْ لَهُ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ، فَرَكِبَهَا، فَأَخَذَ عُقْبَةُ يَقُودُهَا لَهُ، فَقَالَ

رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعُقْبَةَ: «**اقْرَأْ**»، فَقَالَ: وَمَا أَقْرَأُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**»، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ حَتَّى قَرَأَهَا، فَعَرَفَ أَنِّي لَمْ أَفْرَحْ بِهَا جِدًّا، فَقَالَ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا! فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا**».

فرسول الله ﷺ رأى إلحاحه وإقباله وقرأ رجاءه من خلال وضع يده على قدم رسول الله ﷺ فقدَّم هذا الرجل الرجاء فقال: [فَقُلْتُ]، وهكذا سياق الحديث الأول: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى قَدَمِهِ، فَقُلْتُ: أَقْرِئْنِي سُورَةَ هُودٍ، أَقْرِئْنِي سُورَةَ يُوسُفَ».. وهو رسول الله ﷺ، ولم ينكر رسول الله ﷺ رجاءه في طلب إقرائه القرآن، بل ولا أنكر عليه أمر وضع يده على قدمه وهو يقدم طلبه .. مع أن هذا ليس من عادات العرب، لكن لما كان الطلب عظيمًا وهو القرآن، وكان المطلوب عظيمًا لم ينكر عليه النبي ﷺ، ومع هذا فإن هذا لو كان منكرًا أو لا يليق لبيَّن رسول الله ﷺ ذلك، ونهاه، أو أنه ينهاه عن فعله مع غيره إلا الوالدين مثلًا مثل قوله ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**»[(١)]، أو قال له: «**زَادَكَ اللهُ حِرْصًا وَلَا تَعُدْ**»[(٢)] .. لكن تركه على رجائه، وأعطاه ما هو خير له من مطلبه، وجاء في الرواية الأخرى وهي صحيحة: «**اقْرَأْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**»، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ حَتَّى قَرَأَهَا، فَعَرَفَ أَنِّي لَمْ أَفْرَحْ بِهَا جِدًّا، فَقَالَ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا! فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا**».

والرواية الأخرى ولا تعارض بين الروايات مطلقًا نرى أن عقبة رضي الله عنه طلب إقراءه ليحفظ سورتين هما سورة هود ويوسف، إلا أن النبي ﷺ أعطاه سورتين هما الفلق والناس .. ثم يثبتهما النبي ﷺ عمليًّا حيث صلَّى بهما في الناس، ولم يقل له: هذه لك خاصة، أو يقول من بعده: هذه لعُقْبة خاصة لظروف عرفها رسول الله ﷺ عنه، ولم يتهاون بهما ولم يتقالهما، ولم يتحاش تقالّ المصلين لهما، وجماع ما ذكره النبي ﷺ

(١) رواه الترمذي (١١٥٩)، وقال الألباني: حسن صحيح.
(٢) رواه البخاري (٧٨٣).

في سبب ذلك قوله ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[١]، وفي رواية أخرى: «**أُنْزِلَ - أَوْ أُنْزِلَتْ - عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ**»[٢]، وفي الرواية الأخرى: «**فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا**»، وفي الرواية الأخرى: بَيْنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَقْبٍ مِنْ تِلْكَ النِّقَابِ؛ إِذْ قَالَ: «**أَلَا تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ!**»، فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ!**»، فَأَشْفَقْتُ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً فَنَزَلَ، وَرَكِبْتُ هُنَيْهَةً، وَنَزَلْتُ، وَرَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ؟**»، فَأَقْرَأَنِي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَتَقَدَّمَ فَقَرَأَ بِهِمَا، ثُمَّ مَرَّ بِي، فَقَالَ: «**كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ؟ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَقُمْتَ**»[٣]، وفي رواية: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»[٤]، وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**[٥]، ولا يُستبعد أبدًا أن تحمل الروايات على تعدد الحالة بين النبي ﷺ وبين عقبة بن عامر ليؤكد له ﷺ وللأمة من بعده عظم شأن هاتين السورتين وأمثالهما من سور الجزأين الأخيرين.

مَن ذا الذي يستطيع بعد هذا أن يُقيّم السور بناءً على طول أو وسط أو قصر .. من ذا الذي يستطيع أن يتهاون في ألف آية؛ لأن سورها قصيرات بالنسبة لأغلب سور القرآن، أو أنها أخيرات في ترتيب القرآن العظيم، أو أنها كثيرات الآيات وقليلات الأحرف، والله ـ سبحانه ـ يعلم أن ذلك سيقع في نفوس الناس .. فجاء بمطلب كبير .. يحتاج لجهد

(١) رواه مسلم (٨١٤).

(٢) رواه مسلم (٨١٤).

(٣) رواه النسائي (٥٤٣٧)، وقال الألباني: إسناده حسن.

(٤) رواه النسائي (٥٤٣٨)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

بالنسبة لسهولة المعوذتين كبير، فأتى الله ـ سبحانه ـ بمَن في نفسه هذا الظن، وهو راوي الحديث عقبة – وكأنه ذهب نيابة عنا – فأخبره النبي ﷺ بما وقع في نفسه من تقالٍّ، فقال له الرسول ﷺ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا؟**»، ثم قال له: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»، وبهذا صنع النبي ﷺ علاقة بين الصحابي رضي الله عنه وبين السورتين الكريمتين، بل صنع ﷺ بين السورتين الكريمتين وبين أمة محمد ﷺ؛ إذ ما من أحد يخلو من واحدةٍ من حالتين؛ إما يسأل الله أي سؤال، أو يستعيذ بالله من أي شر .. فإن قرأتهما بنية سؤال عام أو سؤال مخصوص، وإن استعذت بهما من شر عام أو شر مخصوص بالنية التي في قلبك، ففيهما الكفاية، وفيهما البلوغ، وفيهما الإعاذة والحفظ، وكفى بالله كفيلًا، وكل شيء يدخل فيهما «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»، فالسؤال يدخل فيه سؤال الثناء وسؤال الطلب، كما يدخل فيه سؤال المغفرة؛ أي: الاستغفار، وسؤال العفو والعافية، والرزق، وصلاح الولد والزوجة، وصلاح الأمة، وصلاح الدنيا والآخرة .. وهكذا الاستعاذة فهي شاملة .. ونية العبد يعلمها الله، وهي التي تحدد مطلبه وتوجهه، وحيثما تولوا وجوهكم فثَمَّ وجه الله.

إنها إعادة الالتفات إلى هذه السور السهلة القصيرة التي ختم بها القرآن، أن الكنوز في الختام .. فإياكم أن يعجلكم قصر آياته على الإسراع للانتهاء من الختمة، الكنوز مدخرة لـمَن أعطى نفس الاهتمام، وإن الكنوز في القصار كما في الكبار وكلها كنوز، فقراءة هاتين السورتين كافية كالقرآن العظيم كله، كما في الحديث عَنْ عِمْرَانَ ابْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه أَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَارِئٍ يَقْرَأُ، ثُمَّ سَأَلَ فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ**»[(١)]، ويبقى العجب حقًّا هو الخصوصية الشاملة لهما والمقام العظيم العام بين سور القرآن العظيم؛ حيث قال فيهما النبي ﷺ هذا القول الكبير والفضل الشامل العميم: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**».

(١) رواه الترمذي (٢٩١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٤٣).

والملاحظة الثانية هنا: هي أنه يُقدِّم حفظ هاتين السورتين؛ لقول النبي ﷺ له بعد إقرائه إياهما فقال: «**يَا عُقْبَةُ، قُلْ**»، قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾»، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ: «**قُلْ**»، قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»(١).

فالحفظ أولًا وإتقان الحفظ فهو ما يهيئ للسؤال والاستعاذة، ثم الثالثة وهو العمل بما تعلمت حيث الصلاة بهما وإمامة الناس فيهما، وهذا المنهج العظيم ينبغي أن يجري مع جميع سور الجزأين الأخيرين؛ فإن فيهما كنوزًا ينبغي للمرء التوقف عندها مرددًا مضمرًا في نفسه عن لسانه مفصحًا لربه بقلبه عن سؤاله، مكتفيًا بعلمه ـ سبحانه.

والملاحظة الثالثة: ألا والله ما أعظم حماية رسول الله ﷺ أمته في عهده ومِنْ بعده من خطأ جسيم كاد الصحابة ﷺ أن يورِّثوه ويتوارثوه وهم لا يشعرون! وهو أن يهملوا الجزأين الأخيرين للقرآن العظيم والسور القصيرة على وجه الخصوص في القراءة والإقراء وفي الإمامة .. إذ هو ﷺ لم يبيِّن للصحابي فضيلتهما فحسب، ولكنه بيَّن الحقيقة الخفية التي دارت في نفس عقبة من كون هاتين السورتين قليلتين .. هينتين .. معروفتين .. محفوظتين، وما إلى ذلك من أساليب التفريق بينهما وأمثالهما من السور وبين سور القرآن الطوال أو المفصل .. كيف وهناك معاذ ﷺ يصلي إمامًا في صلاة العشاء في قومه بسورة البقرة، وهنا عقبة يطلب إقراءه سورتي هود ويوسف .. والحقيقة أننا عشنا مرحلة لم نسمع مَن يقرأ بجزء تبارك وجزء عَمَّ .. حتى كان الكبار ينكرون هذا .. نعم القراءة بالجميع هي المشروع والقراءة في الإمامة، وخصوصًا صلاة الليل بالتخفيف هو الأولى، والله أعلم.

إلا أن النبي ﷺ أنقذ الأمة حين بيَّن الخطر؛ فقال عقبة راوي الحديث نفسه ﷺ:

(١) رواه النسائي (٥٤٣٨)، وقال الألباني: حسن صحيح.

فَعَرَفَ أَنِّي لَمْ أَفْرَحْ بِهَا جِدًّا، فَقَالَ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا؟**»، إي والله يا رسول الله وَكُلُّنا - لولاك - لتهاونا كما تهاون عقبة، بل ربما لوصل الأمر لنا عبر الأجيال التي مرت إلى التفريق ما بين كلام الله بعضه مع بعض؛ ولهذا في هذا الحديث بيَّن النبي ﷺ الأمر؛ حيث إنك لن تقرأ شيئًا عند الله ﷻ مثلهما، ثم هو ﷺ عَمِلَ بهذا الأمر من فوره، فصلَّى بالناس بهما.

مستغنيًا بكلام ربه عن طلبه بكلامه وبيانه .. وسيجد كل واحدٍ في هذين الجزأين من مواطن، كل موطن منها بحر فيه، وكأنما يمر بالوادي المقدس ما لا يعدُّ ولا يحصى بإذن الله .. والذي يبعثك على السؤال بكلام الله إنما هو الله ـ سبحانه ـ ومَن بعثه الله وناداه قال له ما قال لموسى وإن لم يسمع: [قد أوتيت سؤالك يا فلان]، فيا رب أنت أبرّ وأكرم.

وهذا منهج معروف عند أصحاب رسول الله ﷺ؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(١).

هكذا يقوم رجل ليلة بأكملها وهو يردد سورة الإخلاص .. فهل تراه ليس له حاجة ولا طلب وهو الفقير إلى ربه، وما ألجأه إلى هذا المقام إلا عظيم افتقاره إلى ربه، فهو ملحاح بالقراءة؛ إذ هو ملحاح بالسؤال؛ سؤال التعظيم، وسؤال الاستغاثة، والطلب، والاستعاذة، والاستغفار، فالليلة بكاملها قد حملت من هذه الآداب حملًا عظيمًا، وهكذا كانت بيوتات المدينة آنذاك، وما يظهر من هذا وذاك إلا عينات ونماذج تشريعية يسوقها الله ﷻ إلى رسوله ﷺ؛ ليشرع لنا حين يروي ذلك، ويصل لنا كما نراه، ولم يعرف سؤاله ربه أحد، وكفى بالله عليمًا الذي قال لرسوله ﷺ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [سورة الشعراء]، وأول الساجدين

(١) رواه البخاري (٦٦٤٣).

هم مَن حولك؛ صَحْبك الذين من حولك، فهم قرة عينك؛ لأنهم هم مَن كانوا على شفا حفرةٍ من النار فأنقذهم الله ﷻ بك من النار، فارتقوا وعرجوا في ليلهم ونهارهم وحلِّهم وترحالهم ﷺ.

وورد اسم هذا الرجل في «مسند الإمام أحمد»؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ[١] ﷺ قَالَ: بَاتَ قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ يَقْرَأُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ، أَوْ ثُلُثَهُ**»[٢].

(١) قال ابن حجر ﷺ في فتح الباري (٩/ ٥٩) رقم (٥٠١٥):والذي سمعه لعله أبو سعيد راوي الحديث؛ لأنه أخوه لأمه، وكانا متجاورين، وبذلك جزم ابن عبد البر.

(٢) رواه أحمد (١١١١٥)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف؛ لضعف ابن لهيعة، وبقية رجاله ثقات.

ماذا بين هاتين السورتين من اشتراك؟

قال ربنا سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [سورة الفلق].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس].

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(١).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُهْدِيَتْ لَهُ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ، فَرَكِبَهَا، فَأَخَذَ عُقْبَةُ يَقُودُهَا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعُقْبَةَ: «**اقْرَأْ**»، فَقَالَ: وَمَا أَقْرَأُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾**»، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ حَتَّى قَرَأَهَا، فَعَرَفَ أَنِّي لَمْ أَفْرَحْ بِهَا جِدًّا، فَقَالَ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا! فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا**»(٢).

ولا شك أن السورتين موضوع واحد من أوجه عديدة؛ ولذا جمعهما النبي ﷺ في الحديث الأول وفي حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، قُلْ**»، فَقُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، قُلْ**»، قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عَنِّي فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ ارْدُدْهُ عَلَيَّ، فَقَالَ: «يَا

(١) رواه مسلم (٨١٤).

(٢) رواه أحمد (١٧٣٤٢)، وذكره صاحب الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد في كتاب فضائل القرآن وتفسيره، باب ما جاء في فضل سورة الفلق (١٨/ ٣٥٣)، وقال: أخرجه النسائي وسنده جيد، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد: إسناده حسن.

عُقْبَةُ، قُلْ»، قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ: «**قُلْ**»، قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»(١)؛ ولذا فإني سوف أبدأ بما بدأ الله به، وأنتهي بما انتهى الله به؛ فلْنبدأ بسورة الفلق من حيث الحيثية التي خصَّها النبي ﷺ بالذكر، وهي الاستعاذة بالله من الشرور.

كما ورد تخصيص ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ في رواية وحدها منفردة بهذه الخاصية، وذلك حقًّا والله فما أُنزل على رسول الله ﷺ سورة مثلها .. من جهات نعلمها وجهات كثيرة لا نعلمها، والله بها عليم.

انظر في سور القرآن الكريم كلها فلن تجد الشر ذُكِرَ اسمه في سورة أكثر من مرة واحدة فقط، اللهم إلا سورة الأنفال، مع أن الشر الوارد ذكره في الآيتين شيء واحد؛ وهو قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

والآية الثانية هي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

وفي سورة الإسراء كذلك مرتين؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

والآية الثانية هي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

وكل ما ذُكر في القرآن باسم الشر فإنما هو عشرون مرة موزَّعة على السور كما ذكرت مرة مرة، حتى سورة البقرة وآل عمران .. فمرة مرة، إلا هذه السورة العظيمة، فإنها خمس آيات كريمات ذُكر الشر فيها في أربع آيات متتابعات، والآية الأولى هي الابتداء بالاستعاذة من الشر القادم ذِكْره ... سورة تفرَّغت للاستعاذة بالله من الشر ..

(١) رواه النسائي (٥٤٣٨)، وقال الألباني: حسن صحيح.

وذكرته بجميع جهاته الأربع في أربع آيات .. وقدمت الاستعاذة بالله من الشر قبل ذكر الشر.

وذكرت جميع الشرور ما ظهر منها وما بطن، ما كان في الماضي والحاضر والمستقبل، فاستغرقت الشر استغراقًا، ما علمنا منه، وما لم نعلم في هذا العالم.

ويبقى لكل سورة جوُّها .. ومن الصعوبة أن نتصوَّر جوَّها، ولكن لو تخيَّل الإنسان هذا العالم نفقًا، ودخل فيه، فسوف يرى فيه من الشرور ما يأتيه ليس من جهة واحدة، بل من كل جهة .. وليست شرورًا منتظمة، بل مفاجئة تنحدر من كل صوب، وبتوقيتات لا يحسب لها الإنسان حسابًا .. وليست نوعًا واحدًا، بل أنواعًا وأنواعًا، وليست في صورة واحدة، بل في صور كثيرة مرعبة ..

وفوق هذا وذاك فالله ﷻ قال عن مصدر الشر الأكبر - نعوذ بالله منه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] .. فكيف النجاة؟! كيف الخروج من هذا النفق بسلام؟!

فجاءت هذه السورة خاصة التي لو دخلْتَ بها هذا العالم لخرجت منه بسلام وأمان وعافية ... ولهذا فإن النبي ﷺ قال لعقبة بن عامر ﷺ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا! فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا**».

ويا لله، ما أعظم كلمات هذه السورة الكريمة! وما أبلغ حكمتها العظيمة! فلقد جاءت كلمات هذه السورة - رغم كثرتها - مركِّزة على كلمة واحدة وأمرٍ واحد ﴿مِن شَرِّ﴾، ﴿وَمِن﴾، ﴿وَمِن شَرِّ﴾، ﴿وَمِن﴾، ومع هذا فقد بقيت أكبر الصعوبة أن يجزم أحد بمعنى محدَّد للكلمة التي بعد كلمة ﴿مِن شَرِّ﴾، ويحدِّد تحديدًا قاطعًا نوع الشر المذكور.

انظر في كتب التفاسير الموسوعية بالمأثور .. هل ترى لأي كلمة من كلماتها معنى واحد؟

فهذا كتاب الإمام الماوردي، والذي وُلد في القرن الرابع، ومات في الخامس ٣٦٤ هـ - ٤٥٠ هـ، قد ذكر الأقوال باختصار على عادته؛ وكل قول ونسبته إلى

صاحبه.

فكلمة ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ وهذه أول كلمة وردت في الآية الأولى قد ذكر الاختلاف في ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ على ستة معانٍ مختلفة، وأما الآية الثانية: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فقد ذكر الاختلاف فيها فبلغت خمسة معانٍ مختلفة، وأما الآية الثالثة فقد ذكر الاختلاف في قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ على أربعة معانٍ مختلفة، وأما في الآية الرابعة؛ وهي قوله سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ فلم يثبت الماوردي ﷺ على قول محدَّد، إنما هي أقوال مختلفة وأوجه متعددة، وهكذا الاختلاف في المراد بالآية الخامسة؛ وهي قوله سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

والله سبحانه بكل ذلك الخلاف عليم، فهو القائل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، فهو سبحانه أراد ذلك .. إذ أراد بيان حقيقة الشر، وأنه لا مدخل له محدد، ولا باب موحَّد، فالله ﷻ قد كشف حقيقة طريقة الشر والشيطان – نعوذ بالله منهما – من خلال الاختلاف في المراد بالألفاظ الكريمة ذاتها .. ولو زدت البحث، وشققت الألفاظ هذه باحثًا عن حقيقة معانيها لما ازددت إلا إيغالًا في غياهب الظلمات والمتاهات اللغوية؛ لذا لا وقاية من الشرور تلك إلا بالله، والله ﷻ جعل الوقاية بهذه السورة العظيمة، وسورة الناس كذلك .. ولذا فلا مثل لهما، ولا استغناء عنهما .. فأنت لا يعنيك تتبع الشرور، ولا معرفة أبواب الشيطان ومداخله ومخارجه؛ إذ الشيطان يريدك أن تجري وراءه، وتتبع خطواته، يريدك أن تبحث وتبحث وراءه، ولن تصل إلى شيء أبدًا، فمن تيهٍ إلى تيهٍ أكبر، وأبعد، وشر.

ولهذا فهذه الآيات تحذِّر ضمنيًّا تحذيرًا عظيمًا من اتباع خطوات الشيطان والجري وراءه .. وهذا – للأسف – ما يقع فيه الكثيرون من المسلمين من باب الاستطلاع، ومن باب ما يسمونه بالعلاجات النفسية والنفسانية والتربوية؛ فلا تسمع

في محاضرة كاملة، ولا في كتاب كامل استعاذة بالله من الشيطان الرجيم، ولا من شَرِّهِ وشِرْكِهِ وشَرَكِهِ، فالله ﷻ في هذه السورة تكفَّل هو بهذا الموضوع، وكفانا جميع الشرور، ما علمنا منها، وما لم نعلم .

فما لنا والبحث بأيدٍ حاسرة مكشوفة في جحور مسكونة مسمومة، وعندنا كلمات رسول الله ﷺ في سورة الفلق وسورة الناس!

وفي النهاية فإن هذه المذكورات في هاتين السورتين إنما هي جامعة لجميع الشرور الموجودة، والتي ستوجد ... إلى يوم القيامة. ومن استعاذ بالسورتين استعاذ من الشرور جميعًا .. فإن ألفاظها جامعة؛ ولهذا ورد في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**»(١).

فالاستعاذة بهاتين السورتين تشمل جميع ما استعاذ بالله منه الرسول ﷺ، وجميع الأنبياء عليهم السلام، وعباد الله الصالحون رضي الله عنهم ورضي عنهم أجمعين.

ومن الشرور المستعاذ بالله منها في هاتين السورتين الكريمتين شرور الفهم الخاطئ لآيات تتعلَّق بالمعتقد؛ أي بالله – سبحانه وتعالى عما يصفون – .. فما من شر يصيب وأصاب المؤمنين مثل هذا الشر .. فإنه قد وقع وفرَّق ومزَّق، وأُحكم عليه بقفل معقَّد غاية التعقيد .. وقد عقد عليه بالعقد .. لأنه خلاف عقيدته والمُعْتَقَد! هكذا صوَّرها كل أحد! ومن ثَمَّ فلا تنازل في عقد العقيدة! وهذا سبب واحد وعظيم من أسباب الختام بسورة الإخلاص الفاصلة القاطعة، والتي هي وحدها ثلث القرآن العظيم، ومن بعدها جاءت الاستعاذة بالله من الشرور، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

وهذه هي الطريقة المنهجية التي قد كشفها الله ﷻ وبيَّنها أعظم بيان .. إذ جعل عدم القدرة على تحديد طرق الشر مقرونة بعدم القدرة على تحديد معاني كلمات السورة نفسها .. فكان ما ظنه البعض إعجامًا، فإنما هو أعظم بيان لأخفى شرور وأخطرها، وكشف لمنهجية الشيطان – عياذًا بالله منه – كما أن هذه الاستعاذات

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

والكلمات تحمل الوقاية مما علمتَ وما لم تعلم .. فخذ العمل النافع والوقاية الآمنة، ولا تبالِ بتفاصيل الشرور، فمَن دخل في تفاصيل الشرور والشياطين - نعوذ بالله منه - فإنه لا يكاد يخرج سالمًا أبدًا.

أما سورة الناس المباركة فلم تذكر أنواع الشرور كما ذكرتها سورة الفلق، إنما ذكرت أنواع الاستعاذات بالله ﷻ لحماية الإنسان من شيء واحد، هو مركز الشر المذكور كله؛ وهو الشيطان - نعوذ بالله منه - وبهذا أُحكم الختام بنقطة واحدة، فكما بدأ قارئ القرآن العظيم بـ«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقد اختتم القرآن بإعاذة الله تعالى عبده القارئ والسامع فعليًّا من الشيطان الرجيم .. وبهذا كان هذا الجواب لأول سؤال بعد قراءة القرآن العظيم كله .. وكما ابتدأ سورة البقرة بقصة أبينا آدم عليه السلام، وجاءت القصة الأولى والعظمى محذِّرة من اتباع الشيطان وتصديقه - نعوذ بالله منه - فقد ختمت سورة الفلق والناس بالمعاذ والملاذ؛ وهو الله رب العالمين، وما أنزل في هاتين السورتين الكريمتين، فلم يكن ختامًا لكتاب يشبه هذا الختام في أي كتاب آخر أبدًا.

وربما تقول: فَلِمَ لَمْ تأتِ الإجابة مباشرة بعد الاستعاذة الأولى؟

كان الجواب: أن الجواب قد جاء قطعًا مرارًا طوال الرحلة مع القرآن، وأول جواب على إجابة الله لـمَن استعاذ به إنما هي بعد الاستعاذة مباشرة في قوله سبحانه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهذه كافية وافية مُعيذة شافية.

ومع هذا فإن إجابة سورة الناس كانت هي الإعاذة المقابلة مباشرة للاستعاذة، وقبل هذه الإجابة المباشرة يبقى العبد من أول القرآن إلى آخره على حذر من أن يدخل عليه الشيطان .. لذلك كلما توقف عن القراءة وعاد يعود للاستعاذة .. فخطر الشيطان قائم - نعوذ بالله منه - وقراءة القرآن تزيدنا حذرًا كما تزيدنا حراسة منه .. حتى نبلغ الحصن الذي ليس مثله حصن مطلقًا؛ وهو: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ومَن فهمهما وبلغهما فقد بلغ مأمنًا.

فصل: عظمة الشروع في أعظم مشروع

إلى [الألف] يا أهل الله[١]:

الخطوة الأولى: استعذ بالله من الشيطان الرجيم: لأن القرآن عظيم، فلا بد من الحرص عليه والتحرز عليه، والتحرز به وإليه، فإن الشيطان الرجيم - نعوذ بالله منه - لن يقدر على النيل من القرآن نقطة ولا ذرة، ولكنه يحاول بكل طريق أن يفصل قارئ القرآن عن القرآن، ولو بفكرة، ولو بمسَّة، ولو بهمسة، ولو بطائف، ولو بهاتف؛ ولهذا فلقد علم الله ـ سبحانه ـ بهذا الأمر، فمنحنا منه التحرز، وجعله واجبًا عند قراءة القرآن، وهو أول اللجوء إلى الله ﷻ، وذلك بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ... فقال ـ سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

أي إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، استعذ بالله ليست من باب تحصيل الحاصل، بل من باب ما لا يمكن تحصيله إلا بإعاذة الله لنا من الشيطان الرجيم .. من باب أن الاستعاذة واجبة، وليست مستحبة فحسب .. من باب أن الشيطان قاعد لك في طريق حفظك، ولا يصرفه عنك وعن طريقك إلا الله رب العالمين؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ، وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ، وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ؟ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ، فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ**»، فَقَالَ

(١) هذا الاسم مأخوذ من قول النبي ﷺ: «**أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»، رواه الحاكم (٢٠٤٦)، وأحمد (١٢٢٧٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(١).

وإياك والتخوفات الشيطانية - نعوذ بالله منها - والتخوف من ألّا تكمل، أو تحفظ وتنسى، جاعلًا ذلك وراء ظهرك، مقبلًا على ربك وعلى كتابه ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ لذلك فهو لا يفارق الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فكلما عاد الشيطان والتخذيل والتخويف عد إلى الاستعاذة؛ فسيذهب عنك ما تجده من فوره، وعليك بالاستعاذة بالله من الهم، والحزن، والجبن، والخوف، وكلها مراكب الشياطين، نعوذ بالله منهم أجمعين.

الخطوة الثانية: انوِ وأعظِمِ النية: يجب أن نتنبه هنا إلى رقم الألف أولًا، وأن ننتبه لما هو قادم من الدواهي الطويلات العريضات، ومن المصائب والكُبْرَيَاتِ ما نحن عنه غافلون .. أرقام من الأهوال ينبغي أن نعدّ لها مثلها، ومن المستحيل أن يكون الله أخبرنا بأرقام الأهوال وأثقالها وكرباتها ولم يخبرنا بما يقابلها! يخبرنا بها، ثم لا يعطينا ما يقابلها من الأرقام مع خصائصها! لا والله هذا لا يكون؛ فالله ـ سبحانه ـ قال - وقوله الحق: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، فأي عمل عندي يكافئ ألف سنة؟ .. وإذا كان عندي ليلة القدر وأصبحت من نصيبي فهذه ألف شهر .. فماذا نصنع بألف سنة إذا حاسَبَنَا الله بعدله؟ .. فكيف إذا لم يكن ألف سنة .. بل خمسين ألف سنة؟

وكيف لا يهتف القلب المؤمن: ليت لي من عمل يخفف الله ﷻ به عني طول يوم الحساب؟ ... ليت لي حسبة الألف بالألف وأضعافها من الله ﷻ، ويزيد الله من فضله ما يشاء .. والله ذو الفضل العظيم.

(١) رواه النسائي (٣١٣٤)، وصححه الألباني.

فإذا بالله ﷻ يقول: قد جاءتك العدة كاملة وزيادة .. فخذها ولا تتردد .. خذها ولا تلتفت .. خذها بهذه النية .. خذها، وهي على هذه النية التي أخذتها مبنية؛ وهكذا يصنع الله ﷻ النية الحق .. والهمة الحق؛ فنشرع في طريق الحق بأن نحفظ لنعالج الألف بالألف .. والألف مع مضاعفاتها بالخمسين ألفًا وأضعافها .. هذه النية في القراءة والقيام والحفظ كفيلة بالعلاج؛ لأنها كفيلة ببلوغ مقام المقنطرين .. وما أعظم النية بقراءة القرآن!

فالنبي ﷺ قد علَّمنا أن القرآن لما قُرئ له .. وأن الدعاء بالقرآن مجاب، وأن خير الدعاء ما كان بالقرآن، فَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه أَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَارِئٍ يَقْرَأُ، ثُمَّ سَأَلَ فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ**»[(١)]، وسؤال الناس به هو طلب الناس شيئًا من الدنيا بقراءتهم للقرآن؛ ولهذا جاء أمر النبي ﷺ بسؤال الله بقراءة القرآن ودعائه به، فذلك لمَن قرأ القرآن، وأنه مجاب، ففي الحديث الآخر: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، وَسَلُوا اللهَ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجِيءَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ النَّاسَ بِهِ**»[(٢)]، ثم إن الإنسان إذا قرأ القرآن، ونوى به أعطاه الله ما نوى، وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[(٣)].

وقد ورد في صحيح السنة أن تخصيص الإعداد لعرصات القيامة وكرباتها مقبول عند الله، بل محبوب عنده ـ سبحانه ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَانَ رَجُلٌ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى إِعْسَارَ الْمُعْسِرِ، قَالَ لِفَتَاهُ: تَجَاوَزْ لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا**»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَقِيَ اللهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ**»[(٤)]، فالرجل هنا نوى نية،

(١) رواه الترمذي (٢٩١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٤٣).
(٢) رواه أحمد (١٩٩٩٧)، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره.
(٣) رواه البخاري (١).
(٤) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٤٤).

وحددها في مقابل العمل الصالح الذي عمله، فقال: «**تَجَاوَزْ لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا**».

وَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ ﷺ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةً فَأَطَالَهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، صَلَّيْتَ صَلَاةً لَمْ تَكُنْ تُصَلِّيهَا، قَالَ: «**أَجَلْ إِنَّهَا صَلَاةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ فِيهَا ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا**»[(١)]، فالنبي ﷺ منذ الابتداء بالصلاة هذه، بل قبلها قام لها ناويًا فيها نية، وأعلن عن هذه النية حين سألوه، فكانت كما نواها رغبة ورهبة؛ لأمر عظيم فيه أعظم الرغبة، وخوف فواته، وهو أعظم الرهبة.

الخطوة الثالثة: اهرع إلى الوضوء تطهرًا: تَقدَّم لله بطلبٍ وإلحاح وتوسَّل إليه أن يكتبك من الآن من المقنطرين خشية أن يحول دون بلوغك هذا المرام والمقام حائل، أو يحبسك حابس، أو يصرفك صارف، أو يقطع الطريق هاذم اللذات .. فلا يُبَلِّغُنا إلى الذروة - حيث القناطير المقنطرة عند الله - إلا الله رب العالمين، فاللهم برحمتك يا أرحم الراحمين .. أطل عمري كي أقوم الليالي مقنطرًا، وسأبقى يا رب - من الآن - لهذه الليالي والأيام منتظرًا ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة طه].

أيها المشتاق لهذا المقام: حقِّق هذا الاهتمام بأن تُري ربك صدقك وهو بك عليم .. حققه بأن تسمعه ربك بدعاء الضراعة والإلحاح ومعه الحنين والأنين، وافزع إلى الصلاة .. **فإن النبي ﷺ كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى**[(٢)]، أو هرع إلى الصلاة.

فاهرع إلى الوضوء ولو كنت متوضئًا فتوضأ لهذا الأمر العظيم، واحرص على وجه الخصوص في كل مرة على الاستنشاق والاستنثار جيدًا، واحرص على دلك الوجه جيدًا، وكذا تخليل اللحية .. فأول نقطة نور في هذا الطريق بعد الهداية والنية

(١) رواه الترمذي (٢١٧٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه أبو داود (١٣١٩)، وحسنه الألباني.

هو الوضوء: والقرآن نور، وحفظه نور، فلا أنسب من الوضوء، والوضوء كما في الحديث عَنْ نُعَيْمٍ الْمُجْمِرِ قَالَ: رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ فَتَوَضَّأَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ**»(١)، وقم بعد وضوئك، وربك ـ سبحانه ـ يراك حين تقوم؛ أي قبل الصلاة يراك من وضعك الذي انبعثت منه وأثرتَ عنك دثارك، وانبعثتْ فيه عزيمتك، وقمتَ إلى طهارتك، وهو ـ سبحانه ـ يشهد عظيم ما يجول في نفسك، وقطرات وضوئك حاضرة شاهدة لك أن عبدك يا رب نفض التراخي، وفتور الهمة.

الخطوة الرابعة إلى الألف: الركعتان الركعتان: لا أحسب عبدًا أبدًا صلَّى هاتين الركعتين إلا أعطاه الله سؤله وزاده من فضله، ركعتان أُظهر فيهما لربي الاشتياق لحفظ كلام ربي .. ركعتان لتهبني يا رب ألف آية تجمعها في صدري، ركعتان ترفعني فيهما في القرب عندك يا رب، ركعتان أديم فيهما الوقوف بين يديك بألف آية يا رب .. فأذْكُرُ فضلك عليَّ؛ إذ وهبتني هذا الكنز؛ [القناطير المقنطرة] وأعظم وأعلى، وبلَّغتني عندك مقام المقنطرين الأعلى ... ولولا ربي فمَن يجمع لي ألف آية في صدري .. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [سورة القيامة] ركعتان يا رب مفتاح عليك سبحانك .. تفتح لقلبي الطريق إلى كلامك .. ليكون كلامك بها ربي ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي.

يا رب قد قرأت في كتابك الكريم قولك العظيم: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، وهذه صلاتي، وهذا ذكرك وكتابك، وسمعت قولك ربي ... يا رب التفتُّ إلى أي عمل أعظم مباشرة وسرعة شروع معك يا رب العالمين فلم أجد أسرع من [الله أكبر]، وإذا بي داخل الوادي المقدس؛ الصلاة ... فهرعت إليها، بل هرعت بها إليك

(١) رواه البخاري (١٣٦).

ربي لأطلبك هذا الطلب مستحضرًا قولك: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٥]، يا رب صلاة رغبة في مقام المقنطرين من حظي، ورهبة أن أحرم هذا المقام .. فما أعظمها من صلاة!

هنيئًا لمعلم صنع طالبًا واحدًا مقنطرًا، فصنع الله له بهذا الطالب ألف طالب، فهذا مَن فاقت حسبته كل الصور .. وامتد خيره وأجره إلى ما لا حد له عند الله، هنيئًا لتاجر فرَّغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في مشروع المقنطرين هنا، أو في أي مكان في هذه الدنيا.

يا طالب [الألف آية]: ألا ترى أن حفظ [الألف آية] هذه زلفى إلى الله .. زلفى بكلام الله إلى الله .. زلفى ليس مثلها زلفى، والله قريب ودود يغار على عبده يتزلفه، ثم هو لا يعطيه - عياذًا بالله - بل الله يعجب من أساليب المتزلفين وقوة إقبال المتزلفين ... فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عَجِبَ رَبُّنَا ﷻ مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ، مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحَيِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، وَمِنْ بَيْنِ حَيِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، فَانْهَزَمُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ، وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي، حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ**»[(١)].

ويا لها من زلفى لأجل أعظم زلفى لأجل ألف آية أرحل لها شهرًا، أو شهرين، أو سته أشهر، أو سنة، أو فلتكن ما تكون، ولأقطع لها صحراء العمر حارثًا معمرًا حتى أدركها .. وهل من كنز أثمن من القناطير المقنطرة؟ أم من المقامات أعلى من أن أُحْتَسَبَ من المقنطرين؟ فكل ما فيها تزلف مني لربي لعلي أحظى بأعظم غنيمة فأحوزها إلى رحلي ورحل أهلي، وربي يعلم أنها رحلة كل ما فيها إليه زلفى؛ فَعَنْ

(١) رواه أحمد (٣٩٤٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ لا تَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ**»(١)، يَعْنِي الْقُرْآنَ.

وهذا حديث ما أجمله! وأعظمه! لو صح، لكن لعله يعتضد بالحديث الذي سبقه؛ فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِعَبْدٍ فِي شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ يُصَلِّيهِمَا، وَإِنَّ الْبِرَّ لَيُذَرُّ عَلَى رَأْسِ الْعَبْدِ مَا دَامَ فِي صَلَاتِهِ، وَمَا تَقَرَّبَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ بِمِثْلِ مَا خَرَجَ مِنْهُ**»، قَالَ أَبُو النَّضْرِ: يَعْنِي الْقُرْآنَ(٢).

ورضي الله عمّن شرع الله به صلاة ركعتين وأقرهما رسول الله ﷺ، وما نهى ﷺ عنهما ولا عن الصلاة لمثلهما ولأي حاجة أخرى .. ذاك هو خُبَيْبٌ الْأَنْصَارِيُّ ﷺ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَأَةِ، وَهْوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ، يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو لَحْيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْ رَجُلٍ كُلُّهُمْ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ تَمْرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا رَآهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَؤُوا إِلَى فَدْفَدٍ وَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ، وَلَا نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا، قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ: أَمَّا أَنَا فَوَاللهِ لَا أَنْزِلُ الْيَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ، فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةٍ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ الْأَنْصَارِيُّ وَابْنُ دَثِنَةَ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، وَاللهِ لَا أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ فِي هَؤُلَاءِ لَأُسْوَةً، يُرِيدُ الْقَتْلَى، فَجَرَّرُوهُ، وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى فَقَتَلُوهُ، فَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَابْنِ دَثِنَةَ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ

(١) رواه الحاكم (٢٠٥٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.
(٢) رواه الترمذي (٢٩١١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا، فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عِيَاضٍ: أَنَّ بِنْتَ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا، فَأَعَارَتْهُ، فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حِينَ أَتَاهُ، قَالَتْ: فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِي، فَقَالَ: تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكِ، وَاللهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: ذَرُونِي أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا، اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فَقَتَلَهُ ابْنُ الْحَارِثِ، فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا، فَاسْتَجَابَ اللهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ وَمَا أُصِيبُوا، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبُعِثَ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِنْ رَسُولِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا(١).

ركعتين.. رغبة ورهبة .. مفتوحة على كل ما يسعه هذا من الحدين .. أو هما مخصوصتان بالموضوع الواحد المحدد أو الموضوعين تأتيك بعون الله بكل طلب؛ فَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ ﷺ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةً فَأَطَالَهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، صَلَّيْتَ صَلَاةً لَمْ تَكُنْ تُصَلِّيهَا، قَالَ: «**أَجَلْ، إِنَّهَا صَلَاةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ فِيهَا ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِيهَا،**

(١) رواه البخاري (٣٠٤٥).

وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا»(١).

الخطوة الخامسة: خطوة نحو الألف: البداية بهذه الألف لا تقبل التردد عند الابتداء، ولا التريث عن الانطلاق، ولا التأخير عن الشروع ... بل هي خير مشروع، فهل مَن يبتدئون بألف ميل خير أم مَن يبتدئون بألف آية من آيات الله خير؟ هنا يحق قول الله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، هنا الفرصة لتحقيق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ [سورة الواقعة]، ثم هذا حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه كان حديثًا عامرًا طريًّا كما تراه في روايته، حيث قال رسول الله ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢).

هذا وقد جاء عُقْبة بن عامر رضي الله عنه أساسًا لرسول الله ﷺ كما مرَّ معنا يريد أن يُقرئه رسول الله ﷺ سورة هود، وسورة يوسف، أو إحداهما، فاختار له النبي ﷺ ما هو خير له، **وأقرأه من فوره ولم يدَّخر ذلك أبدًا**، ولم يشاوره في هذا أبدًا.

وذلك كما في الرواية التي مرَّت معنا؛ فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُهْدِيَتْ لَهُ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ، فَرَكِبَهَا، فَأَخَذَ عُقْبَةُ يَقُودُهَا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعُقْبَةَ: «**اقْرَأْ**»، فَقَالَ: وَمَا أَقْرَأُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**»، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ حَتَّى قَرَأَهَا، فَعَرَفَ أَنِّي لَمْ أَفْرَحْ بِهَا جِدًّا، فَقَالَ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا! فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا**»(٣).

ويا عجبي ماذا ينتظر المسلم بعد هذا العرض؟ هل عندك من عرض أعظم منه؟

---

(١) رواه الترمذي (٢١٧٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه مسلم (٨١٤).

(٣) رواه أحمد (١٧٣٤٢)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.

هل ما يشغلك اليوم من أعمال يستحق أن يشغلك عن هذا؟ .. ألا توجد لك أوقات ضائعة، أو شبه ضائعة، أو تشاغلات مكررة يُضحى بها لأجل هذه؟

الخطوة السادسة نحو الألف: إنشاء علاقة مع السور والآيات:

ما رأيت في القرآن العظيم كله بعد أم الكتاب جزءًا أو جزأين مثل هذين الجزأين عقد النبي ﷺ بهما العلاقة ما بين المسلم وبين سورهما، وإذا نشأت العلاقة نشأت الصحبة، ونشأت الألفة، ونما التلذذ، واستحال التفريق.

نعم ليست كل سورة ورد فيها .. إلا أن هذه المجموعة العظيمة أخذت هذا الطابع الخاص لكثرة السور الوارد قراءتها في مناسبات، وصلوات، وبعد صلاة، وبالصباح والمساء، وعند اليقظة، وعند المنام، وفي أول الليل وآخره، وما إلى ذلك، انظر وتدبر فيما ورد في هذين الجزأين من فضائل سوره ستجد أن الرسول ﷺ جعل لك علاقة من خلال ذكر فضائلها؛ فهذه سورة الملك ومن بعدها سورة القلم، والحاقة، والمعارج، ونوح، والجن، والمزمل، والمدثر، والقيامة، والإنسان، والمرسلات، والنبأ، والنازعات، وعبس، والتكوير، والانفطار، والمطففين، والانشقاق، والبروج، والطارق، والأعلى، والغاشية، والفجر، والبلد، والشمس، والليل، والضحى، والشرح، والتين، والعلق، والقدر، والبينة، والزلزلة، والعاديات، والقارعة، والتكاثر، والعصر، والهمزة، والفيل، وقريش، والماعون، والكوثر، والكافرون، والنصر، والمسد، والإخلاص، والفلق، والناس، لكن في هذه المرحلة تكون قدم الصدق الثابتة على الطريق المستقيم طريق حفظ القرآن العظيم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ومن أعظم العلاقة الأُلفة بعد الحفظ .. حيث الاستمتاع بالحفظ الصحيح بالتجويد المريح، من غير تكلف قبيح، مع رفع الصوت به أحيانًا، والتخافت فيه أحيانًا أخرى، وما بين ذلك، حتى يأخذ على المرء مشاعره وعواطفه؛ فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ،

فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَرَدَدْنَا عليه السلام، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللهِ وَاقْتَنُوهُ**»، قَالَ قَبَاثٌ: وَحَسِبْتُهُ قَالَ: «**وَتَغَنُّوا بِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْمَخَاضِ مِنَ الْعُقُلِ**»[(١)]، هؤلاء الكرام في بيت الله .. يحفظون كتاب الله، فأمرهم بأمرين: تعلموا القرآن، وتغنوا بالقرآن.

الخطوة السابعة: لا تقطع يومًا: فما دمت تسير سوف تصل سريعًا - بإذن الله - وإذا لم تسر اليوم فلتتعاهد ما حفظت بالأمس وقبله وهكذا، وإذا شغلت في النهار بما يذهل المرء عن نفسه .. فلا ينشغل قلبك عن هذا الصاحب الجديد أبدًا، فهو الصاحب الوحيد الذي سيصحبك في الدارين، وإذا شغلت عنه بالنهار فلا تشغل عن تعاهده بالليل ... وإذا شغلك صاحب فأعطه القرآن، وقل له يسْمع وأنت تقرأ عليه .. وإذا لم تجد صاحبًا أو أحدًا يسمع لك فعندك البرامج في الهاتف، فثمة برامج خاصة تسمع لك وتقيمك وتعطيك النتيجة، وتحدد أخطاءك، وتعيد لك التسميع.

ثامنًا: حقق الحفظ وما يتعلق به تحقيقًا:

فلتكن هذه الألف في الذروة من حفظك .. ولتبلغ بك - بإذن الله - مع السفرة الكرام البررة .. احفظ السورة بعد السورة، وافرح بحفظ السورة بعد الفرح بالسورة التي قبلها، وتفاعل بهذا الفرح؛ فالله يحب هذا الفرح وهو ـ سبحانه ـ بفرحك يفرح، أو لم يقل الله ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]؟ واحفظ ترتيب السور .. وتعبَّد لله في حفظ ترتيب السور .. ولا تتهاون فيه أبدًا، وابدأه من أول الحفظ وأول سورة .. حتى تتعبد كثيرًا في قيامك بين يدي ربك .. احفظ ترتيب السور الكريمة بهذه النية فهذا الترتيب جزء لا يتجزأ من كتاب الله، وبهذا الترتيب قرأه جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ حين دارسه القرآن آخر عام مرتين .. اقرأه ولسوف تعيش مع سورٍ عظيمة وتصحبها وتصحبك فلا يليق بك ألّا تعرف خَيْرَ صحبك .. احفظ ترتيبها ومع القيام سوف يرسخ ترتيبها، وتتفجر حِكَمٌ

(١) رواه أحمد (١٧٣٦١)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.

وعلاقات عندك ما بين السورة والسورة التي قبلها والسورة التي بعدها .. وتعيش ذلك في صدرك حتى وأنت خارج صلاتك - بإذن الله.

وما ذلك إلا لأنك تريد أن تُسْمِع ربَّك قبل أن تُسْمِعه لشيخ أو غيره .. نعم حتى تسميعك لشيخك أو لغيره إنما هو لتحقق أخذ القرآن، كما يحب الله ويرضى وتسمعه إياه ـ سبحانه ـ فذلك هو الذي يحبه الله ويرضاه .. وكما أخذه رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام ودارسه معه، وتحقيق هذا النوع من الأخذ أمرٌ في غاية اليسر - بإذن الله - وذلك من خلال الحفظ بالإسناد كما سيأتي معنا بإذن الله، .. ومن الخطأ والخطورة أن يحفظ الطالب أول ما يحفظه باجتهاده الشخصي، أو يقرؤه مَن عنده فيقع في أخطاء، فترسخ الأخطاء عنده مع التثبيت، وهذا ما لا يرضاه الله ولا رسوله ﷺ.

وإن لم تستطع أن تحفظ صورة الصفحة، ولا موقع السورة من الصفحة، ولا أرقامها، فلا ينبغي أن تتنازل عن أن تحفظ حفظًا صحيحًا، ويكون حفظك للسورة حفظًا مرتبًا ... وإلا كيف ستقوم به بين يدي الله ﷻ؟ وكيف سيصحبك في قبرك وليس معك مصحفك، ولا هاتفك؟ وكيف ستقرؤه في الجنة لترقى بكل آية درجة؟ والذي يأمرك بالقراءة هناك يقول لك: «**كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا**»، آهٍ ثم آهٍ؛ من أمنية يتمناها كل واحدٍ يقال له: اقرأ وارق .. يتمنى أن لو طال به تسميع ما يحفظ، وابتعدت آخر آية أكثر وأكثر .. حتى يكون آخر ما يحفظ هو الجزأين الأخيرين هناك في ذلك الموقف الأعظم والأعلى؛ إذ فيهما وحدهما ما يقارب سدس أعداد آي القرآن العظيم.

تاسعًا: لا تثبيت بغير التعاهد: وهل ثبَّت حفظ الحافظين شيء مثل التعاهد لمحفوظ النهار والليل؟

فوالله ما أجمل الليلة! إذا طويت فيها صحيفتك وفيها عشر سور محفوظات أوتيتها بإتقان ومهارة، وقد سمعها الله منك لأول مرة في حياتك عن ظهر قلبك .. وجاء النهار وقمت بين يديه في صلاة السنن كذلك، فكنت متبعًا بهذا لما أوصى به

رسول الله ﷺ؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ: إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»(١)، وزاد مسلم في روايته: «**وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»(٢).

فهل علمت أي مرتقى رقيت؟ وأي معراج عرجت عند الله البارحة؟ .. لا تتخيل فالحديث واضح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ**»(٣)، أليس الجزاء من جنس العمل؟ .. لكنه هناك ينكشف لك ما حققته في هذه الليالي الطيبات المباركات في الصلوات ..

ثم إياك أيها الحافظ والاستعجال، فالاستعجال هنا إنما هو من الشيطان الرجيم ـ نعوذ بالله منه ـ فإن النبي ﷺ يقول: «**الْأَنَاةُ مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»(٤)، وقد شرع لنا رسول الله ﷺ ألّا ننظر إلى نهاية السورة، أو نهاية الجزء، أو نهاية القرآن إذا ابتدأنا القرآن.

دع آيات الله تعالى تأخذ طريقها إلى قلبك .. دعها تحقق تغييرها العظيم في نفسك، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، دع آيات الله تصنع شفاءك مما تعلم، وما لا تعلم صنعًا من الجذور، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣١).

(٢) رواه مسلم (٧٨٩).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٧٨٠)، وصححه الألباني.

(٤) رواه الترمذي (٢٠١٢)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي عَبْدِ الْمُهَيْمِنِ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلٍ، وَضَعَّفَهُ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ.

وليس كل تغيير كما قال البعض إلى الأسوأ، فإن ربنا ـ سبحانه ـ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فما في نفس هؤلاء هو السوء، فإذا غيروا النية غيرهم الله إلى الأحسن، كما قال ـ سبحانه : ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]؛ ولذا قال ـ سبحانه ـ بعدها: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، فكيف يكون المعنى: أن الله يغيرهم إلى الأسوأ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا؟

دع آيات الله العظيمة الكثيرة هذه تقلبك كيف تشاء .. دعها تقلب قلبك على وجه السرعة والرفعة .. دعها تناغم أنفاسك القصيرة وتصنعها .. دعها تعوِّد عقلك الخطفة في تقليب الفكر .. دعها تأخذ عقلك في رحلة حقيقية في ملكوت السماوات والأرض في سورٍ قصيرة، وآيات متقاربة، مما ليس إليه رحلة بأي وسيلة من وسائل الاتصالات ولا المواصلات.

دع الآيات القصيرة تحرك فيك سرعة البديهة حتى تحيا وتنتعش، حتى تُحدِث في فكرك تحولًا كتحول ما هو في عالم الآلة من الحركة اليدوية الثقيلة إلى الحركة الليزرية.

وهذه الطريقة في التعاهد لا غنى عنها للمسلم أبدًا، وخصوصًا في هذين الجزأين الأخيرين، إلا أن هذين الجزأين بعد إتقان حفظهما يصعب - بحمد الله - نسيانهما لكثرة ما يسمع المسلم قراءتهما، خصوصًا في صلوات الجماعة .. وكيف ينساهما وبينه وبين نسيانهما ضياع مقام المقنطرين؟ وهل يفرِّط أحد بهذا المقام العظيم، وهو إنما ابتدأ بهذا المشروع لبلوغه؟ بل لو جاءه شاغل أو مشاغل في طريق قيامه وتثبيته لأزاحه من طريقه وأكمل المقنطرين.

وحاشا للمسلم الحافظ لألف آية من كتاب الله أن يكون له مثل السوء الذي ضربه الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢].

فصل: العظمة في موضوعات سور الجزأين

العظمة في اجتماع أول ما نزل من القرآن فيهما:

ما أول ما أنزلت على رسول الله ﷺ في العلم، وأصل العلم والقلم والقراءة؟

ما أول ما أنزل على رسول الله ﷺ في القيام؟ أليست سورة المدثر؟

ما أول ما أنزل على رسول الله ﷺ في النفرة للدعوة إلى الله ومواجهة الباطل؟ أليست سورة المدثر؟

ما أول ما أسس بنيان العلاقة بالله تعالى؟

ما أول النذير العظيم للنذير العظيم بيوم القيامة؟ سورة عظيمة تتبعها سور.

هنا تأسيس الإسلام كله .. هنا تأسيس رسول الله ﷺ.

ومن هنا كان تأسيس رسول الله ﷺ للجيل الأساس في الأمة؛ أصحابه ﷺ أجمعين، ومن بعدهم كانت هذه الأمة، وبقيت وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وأمر هذين الجزأين عظيم جد عظيم - وكل كلام الله عظيم - وتفصيل هذا يقتضي الوقوف عند كل آية إجلالًا، وإعظامًا، وتأويلًا، وبيانًا، وفي هذه الكلمة مجرد إشارة.

العظمة الثانية: ذكرها ليوم القيامة كثيرًا:

إذا نظرنا في سور الجزأين الكريمين لتعداد السور العظيمة التي تحدثت سنجد أن الكثير منها قد تحدث عن يوم القيامة، ومنها سورة القيامة، وما أكثر ما تتحدث في أولها .. هي سورة الحاقة، سورة المعارج، سورة القيامة، سورة النبأ، سورة النازعات، سورة التكوير، سورة الانفطار، سورة المطففين، سورة الانشقاق، سورة البروج، سورة الطارق، سورة الغاشية، سورة الزلزلة، سورة القارعة، سورة التكاثر، سورة الكوثر.

وفي باقي السور لم يذكر الابتداء الصريح بيوم القيامة إلا في سورة النحل؛ فقال ـ سبحانه : ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، وسورة الحج؛ فقال ـ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [سورة الحج]، وسورة ق؛ فقال ـ سبحانه: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾ [سورة ق]، وسورة الذاريات؛ فقال ـ سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾ [سورة الذاريات]، وسورة القمر؛ فقال ـ سبحانه: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢﴾ [سورة القمر]، وسورة الواقعة؛ فقال ـ سبحانه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦﴾ [سورة الواقعة].

ست سورٍ فقط هي التي ابتدأت بذكر يوم القيامة في ثمانية وعشرين جزءًا من أجزاء القرآن .. وبعضها ليس صريحًا بأن القيامة هي المقصودة تحديدًا، بينما في هذين الجزأين وحدهما ابتدأت ست عشرة سورة بذكر يوم القيامة، بل فيها سور بأكملها عن يوم القيامة .. أليس هذا أمرًا لافتًا؟ .. أمرًا له حكمته العظيمة؟

أوليس هذا العدد كبيرًا وكبيرًا جدًّا؟ أليست هذه النسبة من السور والآيات عالية بالنسبة لأجزاء القرآن المجيد جدًّا؟ لقد أخذت كل الأمة منذ نزول هذه الآيات – المطالع للسور القرآنية وهي تتحدث عن يوم القيامة – أخذت حظها الوافر من زاد هذه السور العظيمة، لكن **يبقى السؤال**: فمَن أولى بهذا الخطاب عن يوم القيامة من أمة محمد ﷺ؟

والجواب: بغير شك نحن أصحاب هذا العصر الذين أصبحنا آخر العصور حتى الآن في أمة محمد ﷺ وأقرب العصور - التي مرت جميعًا - من يوم القيامة، أضف إلى هذا أنه لا تكاد توجد علامة من العلامات الصغرى بيننا وبين يوم القيامة إلا ظهرت ..

فإذا تدبرنا كل سورة من هذه السور التي ابتدأت بذكر يوم القيامة أو بالسور التي ذُكِر في ثناياها يوم القيامة .. فسنجد السورة نفسها تحمل رسالة تطمين من رب العالمين لرسول الله ﷺ على أمته؛ إذ هي أبعد ما تكون عنه .. وتحمل للأمة كلها كذلك رسالة تثبيت في عصر أصبح الرجل يصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل .. وأصبح القائل يقول: إن الأمة قد تُودِّع منها!

فهنا قبل مطلع يوم القيامة وابتدائها تكون البشرى، بل تكون البشائر الكبرى لكم أيها المجاورون ليوم القيامة؛ والشاهد من هذا أن كثرة ذكر يوم القيامة في سور هذا الجزء لهي علامة قاطعة على الخطاب فيها ليس للزمان ولا المكان، وإنما لأهل هذا الزمان .. فليتيقنوا أن الأمر لم ينتهِ بعد، وأن الأمر بيد الله وحده، وأول شاهد لهذا هو مطلع أول سورة في سور الجزأين ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الملك: ١] وتفصيل الآيات والسور في الجزأين يطول جدًّا، وليس هذا موطن هذا الموضوع، والحمد لله رب العالمين.

العظمة الثالثة: العظمة في كثرة قسم رب العالمين في هذين الجزأين:

أقسم ربنا ـ سبحانه ـ في أول سورة القلم قسمًا عظيمًا؛ فقال ـ سبحانه: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ [سورة القلم].

وأقسم ـ سبحانه ـ في أول سورة الحاقة؛ فقال ـ سبحانه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحاقة].

وأقسم ـ سبحانه ـ في آخر سورة الحاقة؛ فقال ـ سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾ [سورة الحاقة].

وأقسم ـ سبحانه ـ في آخر سورة المعارج؛ فقال ـ سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾ [سورة المعارج].

وأقسم في سورة المدثر؛ فقال ـ سبحانه : ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [سورة المدثر].

وأقسم ـ سبحانه ـ في مطلع سورة القيامة؛ فقال ـ سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾ [سورة القيامة].

وأقسم ـ سبحانه ـ في أول سورة المرسلات؛ فقال ـ سبحانه: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ [سورة المرسلات].

ثم ننتقل بعد ذلك إلى أقسام الله في جزء عم؛ فإذا في أول السورة الثانية، وهي سورة النازعات يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾ [سورة النازعات].

وفي السورة الرابعة في الجزء سورة التكوير يقول الله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢﴾ [سورة التكوير].

وفي سورة الانشقاق، وهي السورة الثامنة قال الله ـ سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [سورة الانشقاق].

وفي السورة التاسعة، وهي سورة البروج قال الله ﷻ في أولها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [سورة البروج].

وفي سورة الطارق، وهي التاسعة يقسم الله ﷻ في أولها؛ فيقول: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾ [سورة الطارق]، وأقسم ثانية في نفس السورة فقال ـ سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [سورة الطارق].

وفي السورة الثانية عشرة سورة الفجر أقسم الله ﷻ في أولها؛ فقال: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ [سورة الفجر].

وفي السورة الثالثة عشرة، وهي سورة البلد ابتدأها رب العالمين بالقسم؛ فقال ـ سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥﴾ [سورة البلد].

وفي سورة الشمس، وهي السورة الرابعة عشرة أقسم الله في أولها؛ فقال ـ سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَىٰهَا ۝١٥﴾ [سورة الشمس].

وفي سورة الليل، وهي السورة الرابعة عشرة أقسم ربنا ـ سبحانه ـ في أولها؛ فقال ـ سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [سورة الليل].

وفي سورة الضحى، وهي السورة الخامسة عشرة أقسم ربنا ـ سبحانه ـ في أولها فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [سورة الضحى].

وفي سورة التين، وهي السورة السادسة عشرة قال الله ـ سبحانه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [سورة التين].

وفي سورة العاديات، وهي السورة الحادية والعشرون أقسم الله في أولها؛ فقال ـ سبحانه: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾ [سورة العاديات].

وفي سورة العصر، وهي السورة الرابعة والعشرون أقسم الله؛ فقال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].

فأي دلالة على عظمة هذين الجزأين من دلالة قسم رب العالمين فيهما إحدى وعشرين مرة ؟ هذا القسم الظاهر فحسب، أما القسم التقديري فهذا أكثر من ذلك بكثير، سبحانك اللهم وبحمدك، سبحان الله العظيم.

سبحان الله وبحمده .. عدد خلقه .. ورضى نفسه .. وزنة عرشه .. ومداد كلماته.

سبحان الله وبحمده .. عدد خلقه .. ورضى نفسه .. وزنة عرشه .. ومداد كلماته.

سبحان الله وبحمده .. عدد خلقه .. ورضى نفسه .. وزنة عرشه .. ومداد كلماته.

ما هذا الاستحقاق الأعظم لمقام المقنطرين من هذين الجزأين؟ أم حسب البعض أن هذا كان اتفاقًا اكتشفه كاتب قزم مثلي؟ عياذًا بالله من هذا الظن ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء: ١٦٦].

أم يحسب البعض أن هذا القَسَم لمجرد القسم؟ أو أن القسم لتعظيم أمر مضى وانتهى حتى لو كان ما كان؟ .. بل الأصل أن القسم على القادم، القسم يحمل وعدًا من الله وعليه القسم .. يحمل بشارة وعليها القسم بتحققها .. القسم يُطِيرُ يأسًا قد أطبق، أو استيئاسًا قد بلغ مبلغًا عظيمًا، فجاء القسم يفتح باب الأمل.

القسم كله لو أردت تفصيله وبيانه إنما هو لأجل المؤمنين عامة، ولأجل القريبين من يوم القيامة خاصة.

القسم لرسول الله ﷺ الذي أخبره الله بشدة الفتن التي تقع في أمته، بل الاختلافات والتمزق والأخطار المحدقة المتصاعدة حتى لكأن كل مَن يعيشها يُقسم على أن الأمة زائلة حسب المعطيات، فيقسم الله ﷻ لرسوله ﷺ تطمينًا لقلبه وهو ـ سبحانه ـ مَن يعلم حرقته ﷺ على أمته وقد أراه ـ سبحانه ـ كل ما سيقع في أمته إلى يوم القيامة.

فسبحان الله: ما أكثر وأعظم ما وعد الله ﷻ رسول الله ﷺ وأمته في هذه السور .. وما أكثر ما تحدَّى ﷻ المشركين على تحقق وعده.

وأنا أزعم أن ما من وعدٍ وعدهم إياه إلا وهو قادم بعد، لم يتحقق تحققًا كاملًا وإنْ حَسِبَهُ المؤمنون في عصور مختلفة أنه تحقق .. نعم فما تحقق منه إلا اليسير، وإن المدَّخر الأعظم والظهور الأكبر هو مجاور للساعة، فلكأنه جزء لا يتجزأ منها كما في الحديث عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[(١)]، فهو جزء لا يتجزأ من الصلاة، هذا هو الأصل، والقول الآخر: إنه الجزء المجاور لها بعد السلام.

ففي سورة [تبارك] ماذا قال الله في آخرها من وعد؟ قال ـ سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الملك].

وفي آخر القلم قال ـ سبحانه ـ في ختامها عن وعده ـ سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني.

مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة القلم].

وفي آخر الحاقة قال ـ سبحانه ـ في وعده: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الحاقة].

وفي آخر المعارج قال ـ سبحانه ـ في وعده: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المعارج].

وفي آخر الجن وعد ـ سبحانه ـ وقال عن وعده: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الجن].

وفي آخر المزمل قال ـ سبحانه ـ عن وعده: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة المزمل].

وفي آخر المدثر قال ـ سبحانه ـ عن وعده: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة المدثر].

وفي آخر الإنسان قال ـ سبحانه ـ عن وعده: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ

رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [سورة الإنسان].

وفي ختام النازعات قال ـ سبحانه ـ عن وعده: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النازعات].

السؤال هنا على أي شيء وأي وضع سترسو الساعة؟ أيْ نهاية الأمر؛ لذا كان الجواب: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ .. ليس إلى أحد سواه فما تظن ربك فاعلًا؟ وهو ـ سبحانه ـ الرحمن كما قال أولًا في سورة الملك ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨]، والآية واضحة المعنى وواضحة الجواب؛ فهو ـ سبحانه ـ يقول لرسوله ﷺ عن أمرٍ بعد عهد، حيث مات رسول الله ﷺ ومات معه، ومرت العصور، وعصى الناس، وفجروا وكفروا حتى أصبحوا لا يستحقون إلا العذاب المبين، كما قال ـ سبحانه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فكان الجواب: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وكفى بمعنى أنه يردهم من الكفر إلى الإيمان، هكذا الخلق فكيف بأمتك يا محمد ﷺ .. وهي عاصية على الإسلام أفلا يردها إلى الطاعة؟

ومثل هذه ما جاء في سورة التكوير: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة التكوير].

وفي البروج لماذا ختمها الله بهذا الوعد الحق والوعد الصدق؟ ولماذا ذكر تحديدًا فرعون وثمود؟ وما فعل هؤلاء في أمة محمد ﷺ؟ فقال ـ سبحانه: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البروج]، أليست الإشارة

واضحة إلى مجد القرآن الأظهر؟ ومثل هذا ما ختم الله ـ سبحانه ـ به سورة الطارق:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الطارق].

هكذا رأيت نتيجة هذا المشروع؛ أنا يا عبد الله[١]

الخاتمة النتيجة: سلامة العمر إلى آخر العمر:

أتمنى على كل مسلم سمع بهذا المشروع .. [مشروع المقنطرين] أن يجلس مع نفسه، وينظر في مستقبل عمره لساعة واحدة، ثم يقرر ما يشاء، أو فليقرأ هذه الفقرات في هذه الخاتمة، وسوف يقرر على بينة - بإذن الله .

الناس في مواجهة هذه الدواهي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْظِرُونَ إِلَّا إِلَى فَقْرٍ مُنْسٍ، أَوْ غِنًى مُطْغٍ، أَوْ مَرَضٍ مُفْسِدٍ، أَوْ هَرَمٍ مُفْنِدٍ، أَوْ مَوْتٍ مُجْهِزٍ، أَوِ الدَّجَّالِ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةِ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**»[٢].

مَن ذا الذي يستطيع النجاة إلى الأبد من فقر قاهر منسٍ، أو غنى متوحش مطغٍ؟ مَن ذا الذي يستطيع السلامة - وخصوصًا إذا كبر - من مرضٍ مفسدٍ يفسد عليه حياته، وينغص عليه لقمته، ويجعل شربة الماء نفسها غصة .. ويجعلها مُرَّة؟ مَن ذا الذي إذا هرم يقوى على إمساك عقله إذا غادر، وإعادة ما في الذاكرة إذا تناثر؟ .. مَن ذا الذي يقوى على إمساك الهرم، وجنده من الأمراض التدهورية كالزهايمر وأمثاله؟

كم رأى الإنسان في حياته مِن صُحْبَةِ آبائه مَن لزم سرير المرض؟ ليس عنده إلا النظر إلى الباب لعل زائرًا يزوره فيؤنسه .. وهؤلاء كثير كثير .. لكنهم سرعان ما

---

(١) قلت هنا: [أنا يا عبد الله] لأحرِّف القصد عن نفسي أنا مؤلف الكتاب .. تحاشيًا لتزكية النفس، أو التفاخر والتعظيم - عياذًا بالله من ذلك - .. ولهذا سوف تسمع كلمة [أنا] ونحوها من الحديث عن النفس .. فهو عنك أنت أيها القارئ، وأنا أبرأ إلى الله تعالى من أن أكون قصدت نفسي.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

ينسون .. فتقل الزيارة إلا من واحدٍ أو اثنين يرعيانه كل وقته .. نسأل الله العافية مع طول العمر وحسن الخاتمة .. إلا أن هذه الدواهي حقائق مشاهدة .. فكم ينفق الإنسان وقتها من ماله ليرفع عنه مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا؟

ألم يقل النبي ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا**»، فهو يستدعيك، ويستعجلك أن تعال سريعًا حيث الأمان، والضمان في أعلى مقام .. مكان لا تشتريه بألف ألف ألف من قناطير الذهب والفضة، وإنما هو بألف آية، وليس له من ثمن إلا ذلك. فواحسرتاه على يوم تأتي تريد العودة وقد أدركتك الداهية، فيقال لك: قد كانت فرصة وذهبتَ عنها وذهبتْ عنك .. لأن كلام الله عزيز ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] .. وقد جاء خريف العمر.

ألف آية كل ليلة: إي والله، وكل ليلة تجدها جديدة، وكل ليلة تجدها مجيدة، وهو القرآن المجيد .. كل ليلة عزيزة لأنه القرآن العزيز .. كل ليلة عظيمة بالحكمة؛ لأنه القرآن الحكيم.

فهل حذَّرنا النبي ﷺ من أمورٍ حقيقية، أم أمور وهمية؟ أليس أكثر العالم اليوم ضحاياها؟ ولكن ما يستر الحال هو أن هؤلاء يكبرون ويمرضون فيختفون ... والأكثر منهم في البيوت، وآخرون في المستشفيات، وآخرون في المصحات، وآخرون في المتاهات، وآخرون هنا وهناك .. ثم لا تَسْمَعُ إلا بنعيهم بعد فترة من الزمان.

فهل قال النبي ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ**» إلا ليدلنا على وجوب الوقاية منها؟ ووجوب النجاة منها قبل أن تصيبنا فتهلكنا بعدما تجعلنا لغيرنا عِبْرة، كما جعلت الكثيرين عبرة؟.. ولات ساعة مندم!

إن الذي يعتبر إنما هو الذي جدَّ من الآن .. على أي حال يكون هو الآن .. ما دام عقله معه فهذا كافٍ .. حتى لو كان أصيب بحادث .. أو عاهة، أو ذهب بصره بالعمى من مرضٍ مفسدٍ كالسكر، فضلًا عمّن هُمْ في عمر الشباب، ووقت السعة والفراغ، وعنفوان العافية والصحة .. وعيشة الغنى أو الكفاية قبل أن يحل الفقر والهم المُنسي.

فلا تلتفت لحظة واحدة عن الحقيقة المؤلمة التي تنتظرك رصدًا أمامك حتى تأخذ من الآن غنيمتك ووقايتك، وتنتهي من إعداد عدتك .. ولتأتِ بعد ذلك الأيام بما تشاء، فقد أَخَذتَ بوصية رسول الله ﷺ، وما خاب مَن أخذ بوصية رسول الله ﷺ وموعظته أبدًا، وعندها لن تجدك الأيام ضحية من ضحاياها أبدًا، ولن تضرك داهية من دواهيها أبدًا – بإذن الله.

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»(١).

ولقد شرع كل واحدٍ منا في حفظ هذه الألف، وما أراد بها إلا رضوان الله وأن يبلغ هذا المقام العظيم .. فاللهم بلِّغنا وحقق لنا مقام المقنطرين ... اللهم آمين.

إنها ألف آية وكفى ... إنه مقام المقنطرين الأبعد عن الدواهي .. والصلاة والسلام على المصطفى.

فحفظ هذه الـ[ألف آية] إنما هو حفظ لنا كامل من سوء الدواهي السبع وأخذتها التي تنتظر الخلق في أي مرحلة ..

فنحن نحفظها وننوي بحفظها حفظًا لنا من الآن؛ حفظنا في كل مراحل حياتنا ومراحل آخرتنا.

حفظ بحفظ؛ وربنا أبر وأكرم، وهو ـ سبحانه ـ القائل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ويقول ـ سبحانه : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ويقول ـ سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

حفظ بحفظ، ورسول الله ﷺ يقول: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ**

(١) رواه الحاكم (٧٨٤٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[١].

ولا تجد [حفظًا] كسببٍ يناسب حفظًا كجزاءٍ مثل «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**» ظاهرًا وباطنًا، بل: «**احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»، فأنا هنا حفظت كلام الله في صدري لله رب العالمين سائلًا به الحفظ لما حذَّر منه رسول الله ﷺ، ولمن أمرنا أن نبادر من لحظتنا، ونعدَّ له عدَّة، وما وجدت في الوجود كله أحسن ولا أجل من كلام الله عُدةً، وحفظًا، وحرزًا، بل هنا أمر زائد؛ فإني إذا ما حفظت الله، وحفظت لله، وحفَّظت مَن قدَّر لي ربي تحفيظه لله، فهذا له جزاء أكبر؛ وهو «**احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»، فأينما يمَّمت وجهك ستجد الله تجاهك .. قد هيَّأ لك وأنت لا تدري، ودفع عنك الأذى، والعدو لا يدري؛ إذ أنت لم تحسب لهم حسابًا، كما قال الله ـ سبحانه: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف: ١٦].

النتيجة الثانية: مباشرة المبادرة بشكر الله على القناطير المقنطرة: هنا قلت في نفسي: الحمد لله الذي بعث لنا رسول الله ﷺ لينقذنا من هذا المصير المأساوي في نهايات أعمارنا .. والحمد لله الذي عرفنا بأن الوقاية من هذه النهاية إنما تكون في أخذ الـ[ألف آية].

حفظ بحفظ، فـ[ألف آية] لا نقرؤها من المصحف، ولا لنرقي بها مريضًا، ولا لنفاخر بها الخلق، إنما هي [ألف آية] نقرؤها من المصحف شيئًا فشيئًا حتى نبلغ بما قرأناه الإتقان .. ثم نحفظها شيئًا فشيئًا .. قليلًا قليلًا .. ونتعاهد ما حفظناه جيدًا كل يوم مرة نهارًا وأخرى ليلًا .. فإن كانت مرة واحدة فالليل أولى .. لكي نثبت حفظ الآيات، ونتقنها إتقانًا، وكذلك نحفظ ترتيب السور التي نحفظها كما هو موقعها في المصحف أثناء حفظنا لها، كما حفظنا ترتيب الآيات بإتقان .. وكل ذلك [الألف] نحفظه على شيخ متقن مجاز، أو شيخة للنساء مجازة، ولو بالألف هذه وحدها .. ونبدأ ننير بها ليلنا، بل ننير بها قلوبنا، وحياتنا، وقبورنا .. ولمن لم يستطع قيام الليل

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

بـ [الألف آية] فبإمكانه الصلاة بها فيما بين المغرب والعشاء، وهو من قيام الليل، أو بعضها في النهار، والآخر في الليل، وسواء كانت الصلاة في المسجد أو في البيت، فكلاهما خير .. ولا نزال على هذه الحال حتى تتوطن نفوسنا القيام بها بين يدي الله ... وحتى يُصبح حفظها مثل فاتحة الكتاب عندنا .. ونستمر عليها ولو يومين في الأسبوع.

ومن ذا الذي لا يحب أن تُرفع له [ألف آية] يومي الإثنين والخميس، حيث ترفع فيهما الأعمال إلى الله .. كما قال النبي ﷺ في الحديث: «**تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»(١).

والحمد لله أن النبي ﷺ لم يحصر العمل المرفوع يومي الإثنين والخميس على الصيام وحده، بل العمل كله يُرفع؛ ولهذا قال: «**أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي**»، والصيام جزء من العمل الصالح في يوم الإثنين ويوم الخميس.

النتيجة الثالثة: طول العمر غاية لبلوغ أعلى الغايات:

وحال أحدنا في هذا المقام يقول: ولأن هذا الموضوع والمشروع أصبح عندي أملًا أعيش لتحقيقه، وغاية لا أهنأ حتى أحققها على وجه الكمال والتمام - بإذن الله - فسوف أعمل على تطويل عمري إلى ما يقدِّره الله لي .. تطويل عمري بالصحة والسلامة والعافية .. كيف وقد وجدت أن النبي ﷺ يُقَرِّر أن المؤمن ينبغي له أن يسعى لأن يطول عمره في هذه الحياة حتى يحقق فيه أعلى درجات الغايات، فطول العمر أمر عظيم، وهو بيد الله وحده، ولكنه أمرٌ ممكن للبشر، فطول العمر إما بمعنى البركة في العمر وعظمة الإنتاج، وهذا المعنى لا خلاف فيه، وإما بزيادة الأيام في هذه الحياة، وهذا هو المختلف فيه .. والله يقدِّر القدر .. ويقضي الأمر ... ويقدِّر له أسبابه .. والله على كل شيء قدير.

فلا أزال - أنا يا عبد الله - أحب البقاء في هذه الدنيا، وأنا بأتم الصحة والعافية مع

(١) رواه الترمذي (٧٤٧)، وقال: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

صالح الأعمال، ثم حسن الختام، وأدعو الله ﷻ دائمًا بهذا: «**اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، تُعِيدُهَا ثَلَاثًا، حِينَ تُصْبِحُ، وَثَلَاثًا حِينَ تُمْسِي**»(١)، «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(٢).

وكما أدعو في صباح كل يوم بهذا، فإني أدعو به عند مساء كل يوم، إلا أن دعائي الآن ما عاد دعاءً عامًّا مجملًا، بل دعاءً هادفًا، ووراءه هدفٌ عظيم .. يحمل رجاءً عظيمًا يعلمه ربي ـ سبحانه.

إني بمجرد استيقاظي من النوم، وقد رأيت الحياة من جديد، ورأيت العافية في نفسي، ورأيت سلامة أعضائي، هتفت بربي شاكرًا هذه النعمة الكبيرة: «**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**»(٣)، لأواصل تحقيق مشروعي مع القرآن العظيم؛ إذ هو أعظم الذكر «**وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**».

وكما أنني أدعو الله بطول العمر مع العافية والسلامة فإني لا أفعل ما يخالفه في حياتي .. في طعامي وشرابي، وفي نومي ويقظتي، وفي حركتي وجلستي، بل آتي بما يصدقه في حياتي، فأنا أحرص ما أكون على صحتي، وسلامة بدني، فإنهما راحلتي نحو غايتي .. ولذا كانت الرياضة الصحية حسب العمر ضرورة في الوقاية من الأمراض، وضرورة لتحصيل القوة المناسبة، وللعلاج كذلك وسرعة التعافي لو مرضت ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ولو أن الأمر إليَّ لجعلت رعاية صحية خاصة لـ «أَهْلِ اللهِ وَخَاصَّتِهِ»، حيث

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وحسنه الألباني.
(٢) رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وصححه الألباني.
(٣) رواه الترمذي (٣٤٠١)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

الفحوصات الدورية، والتواصل السريع مع أي طارئ لهم، وتزويدهم بالجديد في ميدان الصحة والسلامة، والوقاية من الأمراض، وأول الوقاية الثقافة الرياضية، والغذائية .. بالإضافة للكفالة المالية بما يغنيهم عن غيرهم، ويكرمون به غيرهم، فطول أعمار هؤلاء إعمار حقيقي للبلاد، ولقلوب العباد.

وفوق هذا فإن المؤمن يعبد الله راجيًا **طول العمر مع العافية بصلة الأرحام، وبالصدقات**، وعلى الأخص صنائع المعروف، والشفاعات.

وفي الحديث .. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوْءِ، وَالصَّدَقَةُ خَفِيًّا تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ زِيَادَةٌ فِي الْعُمُرِ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ**»(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقُهُ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(٢).

وإن الحرص على طول العمر لهو أمرٌ مشروع محبوب عند الله وعند رسوله ﷺ، وعكس ذلك من تمني المؤمن الموت حتى لو نزل به بلاء لهو معصية؛ ولهذا فقد ثبت في الحديث عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ وَهُوَ يَشْتَكِي، فَتَمَنَّى الْمَوْتَ، فَقَالَ: «**يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، لَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ، إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا تَزْدَادُ إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِكَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا، فَإِنْ تُؤَخَّرْ تَسْتَعْتِبْ خَيْرٌ لَكَ، فَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ**»، قَالَ يُونُسُ: «**وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا، فَإِنْ تُؤَخَّرْ تَسْتَعْتِبْ مِنْ إِسَاءَتِكَ خَيْرٌ لَكَ**»(٣).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦٠٨٦)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) باختلاف يسير.

(٣) رواه أحمد (٢٦٨٧٤)، والحاكم (١٢٥٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ بِهَذَا اللَّفْظِ.

إن الدعاء بطول العمر مع سؤال الله الشهادة في الختام لهو أعظم من استعجال الشهادة في سبيل الله في أسرع وقت.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ ﷺ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عُذْرَةَ ثَلَاثَةً أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمُوا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يَكْفِينِيهِمْ؟**»، قَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، قَالَ: فَكَانُوا عِنْدَ طَلْحَةَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا، فَخَرَجَ فيه أَحَدُهُمْ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ بَعَثَ بَعْثًا، فَخَرَجَ فِيهِ آخَرُ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ مَاتَ الثَّالِثُ عَلَى فِرَاشِهِ، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ هَؤُلاءِ الثَّلاثَةَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدِي فِي الْجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ الْمَيِّتَ عَلَى فِرَاشِهِ أَمَامَهُمْ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَخِيرًا يَلِيهِ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَوَّلَهُم آخِرَهُمْ، قَالَ: فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ؟ لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الْإِسْلامِ لِتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ**»[(١)].

فما بالك إذا كان يعمر في الإسلام ليغرس القناطير في هذه الدنيا؟

النتيجة الرابعة: شفاء الشوق إلى الله [بطول القنوت]:

كم هيَّج المؤمنين من نومهم قول ربهم ـ سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]، فالآية خطاب من الله ﷻ يدعو عباده المؤمنين إلى القيام بين يديه في صلاة الليل خاصة، وخصوصًا وأن الجمهور قرؤوا: ﴿ أَمَّنْ ﴾ بالتشديد، وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بالتخفيف على معنى النداء، فهو ـ سبحانه ـ ينادي القانتين، ويخصهم قربًا فوق قربهم، وودًّا فوق ودهم، فالمعنى: يا مَن هو قانت آناء الليل، قنوتك آناء الليل لك ولك فوق ذلك ما أردت .. وقد رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنِ الْقُنُوتِ، قَالَ: لَا أَعْلَمُ الْقُنُوتَ إِلَّا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ وَطُولَ الْقِيَامِ، وَقَرَأَ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا ﴾[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (١٤٠١)، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره.

(٢) بصائر أولي التمييز (٤/ ٢٩٨).

قد كنت ولا زلت أتمنى أن أكون يومًا من الأيام مقنطرًا .. وما دمتُ قد شرعت في الحفظ .. وبدأت بالآية الأولى والسورة الأولى، فأبشروا، فأنا المدرك غايتي هذه - حافظًا، وقائمًا دائمًا - بإذن الله الرحمن الرحيم .. وسترون ذلك في الدنيا، بل قبل الآخرة يا أهلي، وذريتي، وأحفادي، وأسباطي، وأهل حبي، ومجتمعي - بإذن ربي - وسترون كيف سأتحول إلى صانع للمقنطرين - بإذن الله.

سأبدأ فور إتمامي فقط - ألف آية - والإجازة فيها من شيخي المجاز بها من قَبْل بهذا المشروع، ولن أنتظر لحظة .. ولن أنتظر عددًا من الطلاب، ولا عدة، إنما هو واحد من أبنائي، أو أحفادي، أو من أهلي، أو من أبناء جيراني .. أو من كبارهم، أو شبابهم، وسوف أبتدئ مع هذا الواحد .. غير مبالٍ بمَن خذَّل أو خالف.

نعم سأبدأ من فوري، فذلك التعجُّل الذي يحبه الله ﷻ، فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا وَنَحْنُ نَقْتَرِئُ، فَقَالَ: «**الْحَمْدُ لِلهِ، كِتَابُ اللهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ الْأَحْمَرُ وَفِيكُمُ الْأَبْيَضُ وَفِيكُمُ الْأَسْوَدُ، اقْرَؤُوهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَوَّمُ السَّهْمُ، يُتَعَجَّلُ أَجْرُهُ وَلَا يُتَأَجَّلُهُ**»[(١)]، وهذا التأجل والتأني والصبر هنا هو الذي يحبه الله، ويبارك بنتائجه، والخير سيجتمع بعد الواحد، ثم آخر، ثم آخر .. وسيكون - بإذن الله - هذا مجلس المقنطرين .. ومنه تنطلق مجالس ومجالس .. وكل مقنطر من الطلاب مشروع .. وهذا العهد بيني وبينهم .. وإذا كان طمعي عندما ابتدأت إنما هو حفظ [ألف آية] والقيام بها كي أصبح من المقنطرين، فلقد أصبح التطلع الآن أن يُخَرِّج واحد من هؤلاء المقنطرين ألف مقنطرٍ .. ويمتد هذا النور ويمتد إلى غيره وغيره حتى يوم يقوم الناس لرب العالمين ... وبما أني لا أعلم أي واحد من طلابي سيكون مقنطرًا، والذي سيخرِّج [ألف مقنطر]، فسوف أخرِّج الكثير والكثير، وسوف أوفق وأهدي لذلك الواحد - بإذن الله - .. ولعل الله يجعل الجميع كذلك .. اللهم آمين.

(١) رواه أبو داود (٨٣١)، وقال الألباني: حسن صحيح.

النتيجة الخامسة: مزيد الرفعة والاستغناء والعزة عن الناس عند الكِبَر:

لا .. لن أبقى في كِبَرِي مثارًا لشفقتكم: قل لـمَن ظن أنه سوف يستضعفني عند كبري .. أو يستجهلني في آخر عمري ذاك عليكم - بإذن الله - مُحال، ولسوف أبقى في البيت منارة للأبناء، والأحفاد، وسأجعل من مجلس البيت حلقةً لتعليم [ألف آية]، وحفظها، ولسوف أسميه بيني وبين ربي: [مجلس المقنطرين] بإذن الله، ولسوف أجيز كل واحدٍ من المتخرجين - بإذن الله - **بالإسناد كما أخذته بالإسناد إلى رسول الله ﷺ إلى جبريل الأمين** عليه السلام ... **إلى رب العالمين** ...

أهذا شرف ينافس .. ومَن يستطيع أن يعلو على صاحب القرآن، فإن شرفي، وعزي، وذخري هذا هو أن يُجعل اسمي بحق في سلسلة الشرف الأعلى هذه ... كيف وذروتها في الخلق سيد الخلق رسول الله ﷺ، وسيد الملائكة جبريل عليه السلام ... والمنتهى رب العالمين ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

وأي شرف لي بعد هذا من أن أمنح أنا هذه السلسلة الأعلى على الإطلاق لكل مَن حفظ [ألف آية] ممن يستحقها .. واسمي ممهور بها عند ربي ـ سبحانه ـ .. وعند ملائكته .. وعند مَن حفظ على يدي .. باقٍ في الخلق إلى يوم الدين .. يوم تُعرض الصحائف على رب العالمين، واسمي فيها طالبًا، وشيخًا، ومعلمًا، والحمد لله رب العالمين.

فإذا لم أكن لأتخلى عن القرآن حتى تفارق روحي جسدي، فهل يمكن أن يفارقني القرآن لحظة حتى لو كان مرض، أو خرف، أو مرض نسيان .. وقد قال رسول الله ﷺ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**»(١)، وقد قال الله ﷻ لرسوله ﷺ - وهو ﷺ أعظم الناس رفعة وأعلاها قدرًا -: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، فإذا كان القرآن لرسول الله ﷺ رفعة؛ وهو الرفيع الأعظم ﷺ، فكيف بنا نحن؟

الرفعة هنا من الله تعالى حتى وإن أبى العباد .. والرفعة تكون بالآية الواحدة ...

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فكيف وأنا أحفظ [ألف آية]، فَعَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ: أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ - وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ - فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى، قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ ﷻ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(١).

أتحسبون أني سأكون مثل ذاك الشهير الذي أصبح متعفنًا في فراشه؟

أتحسبون يا إخوتي أني سائر إلى مصير المشاهير الكبار الذين بقوا في بيوتهم يُمَرَّضون، ثم أصبحوا جثثًا هامدة على الفرش؛ هي فرشهم، وهي مواضع قضاء حاجاتهم .. أسأل الله أن يلطف بحالهم، ويحسن ختامهم، ومن غير المسلمين مَن يستعجل هذا المصير فينتحر، والعياذ بالله.

يا رب إني أستعيذ بك من ذلك .. «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ نُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ**»(٢).

ومن استعاذاته ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَدْمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّرَدِّي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْغَرَقِ، وَالْحَرَقِ، وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْـمَوْتِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ لَدِيغًا**»(٣).

طيف يحدث هذا **وإني لأسأل الله أن أزداد طيبًا** .. حسًّا .. ونفسًا .. روحًا .. وبدنًا .. فأنا طيبي معي هو في ذاتي وروحي، وهو ما يفيض من جوفي على خارجي «**مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ**

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٠).

(٣) رواه أبو داود (١٥٥٢)، وصححه الألباني.

وَلَا رِيحَ لَهَا»[١].

فإن لم يكن هذا هو صاحب الـ [ألف آية] فمَن يكون؟ و[صاحب الألف] هو أولى الناس بعد حافظ القرآن بالطيب .. فربنا ـ سبحانه ـ طيب ويحب الطيب، ورسولنا ﷺ طيب، وكتاب الله طيب، وهو المسك بعينه، وهو أطيب من عين المسك، والله ﷻ لا يزيد الطيب إلا طيبًا ولهؤلاء خاصة في الدنيا قبل الآخرة؛ كما قال رسول الله ﷺ: «**تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، واقْرؤوهُ وَارْقُدُوا، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ وَمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ كُلَّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَرَقَدَ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ، أُوكِيَ**[٢] **عَلَى مِسْكٍ**»[٣].

ويا صاحب [الألف آية]، وحافظها، ومعلمها أنت من هذا الطيب تنضخ، فماذا ترون لو أعطاني الله في يدي رائحة ألف وردة من أطيب الطيب؟ ألا تنثر عطرها حيثما حلت .. هكذا هو قبول الناس، وهكذا هي صحبة الملائكة الطيبين .. كيف بألف آية معي لا تفارقني .. في صدري؟ .. أكون أنا المغتبط، وأنا مَن يُغبط، أنا المحسود عند الجميع على هذا، أنا الأمنية لأناس يقولون: يا ليت آباءنا هكذا .. أهذا حال، وحال مَن هدَّهم الهرم حال .. كل أحد يتمناني، ولا أتمنى أن أكون مثل سواي، ممن ملكوا آلاف الملايين، ولا آلاف الهكتارات من الأراضي؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**»[٤].

إن وصية الوصايا لرسول الله ﷺ كانت من جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ، حيث

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٠)، ومسلم (٧٩٧).

(٢) أوكي: أوكيت السقاء. إذا ربطت فمه بالوكاء، والوكاء خيط تُشد به الأوعية.

(٣) رواه ابن ماجه (٢١٧)، والترمذي (٢٨٧٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(٤) رواه البخاري (٥٠٢٦).

فيها قيام الليل، وفيها ثمرة ذلك، وفيها العز والشرف ومم يكون ذلك؟ حيث قال ﷺ لرسول الله ﷺ: «**يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ، شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**»[(١)].

النتيجة السادسة: الحفاظ على سلامة العقل والحكمة يوم تُسلب من المماثلين لي من الناس:

لا، لن أخرِّف - بإذن الله: وقل لأمراض العقول مع الهرم:

تلك الأمراض التي تصل بالكبير أن يفقد عقله، ويفقد ذاكرته بمعرفة زوجته من ابنته، أو أبيه من عمه، فضلًا عن صحبه وبلده، نسأل الله العافية .. قل لهم: عندي الحماية الكافية منكم .. وإن العَقْل محروس عندي - بإذن الله - ولن يبلغه إنس، ولا جن، ولا سوء، فماذا على مَن عنده ألف حارس، وألف حصن، بعضها خلف بعض .. هل يصل إليه أحد؟ .. فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ، فَاقْبَلُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللهِ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، اتْلُوهُ فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ كُلَّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ، وَلَامٌ، وَمِيمٌ**»[(٢)]، نعم، أنا ليس عندي ألف دواء، بل عندي ألف شفاء، وليس نورًا واحدًا، بل ألف نور .. ألست أحفظ [ألف آية]، والآية الواحدة قرآن، وربنا يقول: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] ..

عندي [ألف آية]، نعم عندي في عقلي، وقلبي، وروحي، وأصبحتْ جزءًا من كياني .. من سمعي، وبصري، وفكري، وتفكيري .. إنها لن تفارقني، ولن يزحزحها شيء أبدًا، **وأنا أثبت لك ذلك الآن** .. وما ذلك إلا أنني أسردها عليك الآن ترتيلًا من

(١) رواه الحاكم (٧٩٢١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.
(٢) رواه الحاكم (٢٠٤٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

غير أن أحتاج أن أفتح مصحفًا فأقرؤها منه .. إنما أقرؤها من صدري مباشرة ... إنها ليست شَعْري ولا جلدي، بل هي أعمق من ذلك بكثير، إنها كل ذلك، وإنها لفي جَوْفي، فهي الظاهر والباطن، إنها في الجَوْف كما سمَّاها النبي ﷺ «**إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»(١)، وموقعها في الصدر هناك فوق القلب .. على ظهر القلب .. فهي ليست في القالب عمومًا، وإنما هي في الجوف على القلب! إنها كما قال النبي ﷺ لذاك الرجل الذي زوَّجه النبي ﷺ بما يحفظ من القرآن؛ فقال: «**أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ**»(٢)، ليس هذا للتحديد الحسي .. إنما هو القرآن الذي يعلو ولا يُعلى عليه أبدًا؛ لذا قال النبي ﷺ: «**عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ**»، كما قال الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، فكيف تذهب الذاكرة، والقرآن حياة؟ وباعث الحياة، ومحيي الموات، فيجعله حياة، ورب العالمين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فهل ترون رجلًا يقرأ كل يوم، ويُقرأ عليه كل يوم من القرآن ما تيسر، وربما قرأ ألف آية، وربما أكثر من ذلك، وهو يَسْمعها من طلابه كل يوم، وهو يصحح لهم، ويسهِّل لهم، ويقوِّمهم، ويكافئهم ... وربما يحفظ نقاط ضعف كل واحدٍ منهم ... ويصوِّب لكل مَن أخطأ .. ولا يزال على هذه المتابعة العظيمة .. أترونه يخرف؟

فكيف وشأنه في تدبر آيات الله أعظم؟ .. كيف وعنده مشروع تدبر في أعماق عقله لا ينقطع أبدًا؟ ... فهل من حيويةٍ لعقل في الوجود مثل عقل المتدبر لكتاب الله؟ وهل من طاردٍ للأمراض عن الأعضاء مثل دوام الرياضة المناسبة؟ وذلك لضخ الدم إليها .. ولا يزال القلب يدفع الدم إلى أي عضوٍ يمارس الرياضة في جسم الإنسان ..

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٣)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه البخاري (٥٠٣٠).

أما رياضة العقل فهو هذا الجهد الفكري العظيم .. وهل يبتدئ الخرف إلا لضعف وصول الكمية الكافية من الدم إلى الدماغ، أو لأسباب أخرى؟ لكن النشاط العقلي يقي منها ويطردها .. ومن المعلوم أن نسبة الإحراق في جسم الإنسان للدهون والسكريات الزائدة وغيرها ربما تكون بالتفكر، والتدبر، وأعمال العقل المتواصلة، مثل الرياضة العضلية، وربما أكثر من ذلك كما هو مقرر في الكتب المتخصصة، وقد تحققت منه من المختصين في هذا الميدان.

وفوق كل هذا وذاك، فهي رعاية الله الدائمة لأهل الله وخاصته، وقد قال النبي ﷺ: «**أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»(١)، فليس قوله ﷺ: «**أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**» لمجرد ذكرمقام عالٍ، وكفى به مقامًا .. لكنه إخبار بأعظم عناية، وأقرب رعاية، وأدوم صلة وتواصل.

ثم إن دوام القُرب هذا يفضي إلى التقريب العظيم، كما قال ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩]، وهذا يدخل في باب قول الله ﷻ في الحديث القدسي: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(٢)، كل هذه الرعاية؛ لأنه: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ**»، وأي نافلة أعظم من نافلة القرآن علمًا، وتعليمًا، وعملًا، وتدبرًا ... وما معنى السمع والبصر في هذا الحديث .. إن لم تكن رعايتهم، وحفظهم، وحفظ عقولهم، وحفظ إدراكهم، وحفظ حافظتهم، وحفظ قواهم، كما سيأتي التعبير عنها في القرآن العزيز: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقوله ـ سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) رواه الحاكم (٢٠٤٦)، وأحمد (١٢٢٧٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]؟

النتيجة السابعة: الآن ابتدأ ربيع العمر كله: هنا الانطلاقة الآمنة بلا همٍّ، ولا غمٍّ، ولا ملل .. هنا ربيع العمر في آخر العمر:

تتناقص نسبة الهموم الدنيوية عن الإنسان في كبره أكثر وأكثر عند أهل الإيمان والعقل، وأنا صاحب القرآن فيجمع الله عليَّ همي كله في هذا القرآن وهذا المقام .. فلم يعد يشغلني إلا تحفيظ هذا .. وتثبيت حفظ هذا .. وتعليم هذا طرق جديدة للحفظ، وصلة هذه الآية بالتي بعدها .. وتعليمهم الجديد، وتثبيت القديم، وتعليمهم كيفية التعاهد .. وتعليمهم آداب حملة القرآن .. ومتابعتهم على الصلاة بالمحفوظات .. حتى يصبح القيام عند كل واحدٍ منهم ديمة.

فما عاد لي من همٍّ في هذه الحياة إلا هذا الهم، وما ألذه من هم! وما أطيبه! إنه الذي يحملني ولا أحمله.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَثُرَ هَمُّهُ فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، وَفِي قَبْضَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ[١] بِهِ فِي مَكْنُونِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي[٢] وَجِلَاءَ هَمِّي وَغَمِّي، مَا قَالَهَا عَبْدٌ قَطُّ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ غَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ بِهِ فَرَحًا**»[٣].

«**رَبِيعَ قَلْبِي**»: فماذا ينتظر من الإنسان أعظم من أن يعيش في ربيع .. بل يصبح قلبه في ربيع .. بل يصبح القرآن ربيع قلبه .. الله أكبر، فلسوف تكتشف الآن أن هذا هو

(١) استأثرت: الاستئثار بالشيء: التخصص به والانفراد.

(٢) ربيع قلبي: جعل القرآن ربيع قلبه؛ لأن الإنسان يرتاح قلبه في الربيع من الأزمان، ويميل إليه.

(٣) أخرجه رزين، قال محقق جامع الأصول (٤/ ٢٩٨): حديث صحيح واللفظ له، ورواه أحمد (٣٧١٢)، (٤٣١٨)، وصححه ابن حبان في الموارد رقم (٢٣٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والهيثمي في المجمع (١/ ١٣٦) وزاد نسبته لأبي يعلى والبزار.

ربيع العمر الحقيقي .. فهل يَرْحَل العاقل عن الربيع إلى الخريف وهو يستطيع ألّا يرحل .. إن الربيع هنا هو القرآن العظيم .. وإن موقع الربيع هو القلب، وهو أرضه .. والقرآن لا يترك مَن لا يريد تركه .. ويحفظ مَن حفظه، ويبقى صاحبه مكفولًا مضمونًا مأمونًا، فلا مكان للهموم والغموم .. كما في هذا الحديث: «**رَبِيعَ قَلْبِي، وَجِلَاءَ هَمِّي وَغَمِّي**»، وإني لأشعر حقيقة أن هذا هو ما تحقق لي؛ ففي الحديث: «**مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»[(١)].

العجب كل العجب من إخواننا الذين منا وفينا، والعجب كذلك من آبائنا وأعمامنا الذين هم أكبر منا في مجتمعاتنا رجالًا ونساء، وكذلك المتقاعدون، وكذلك أخواتنا المتقاعدات، وأمهاتنا الكريمات، وأخواتنا ربات البيوت العاقلات الكبيرات، أو الأرامل منهن والمطلقات، فإن هؤلاء طوال أعمارهم المباركة وهم يستمعون إلى أئمة الصلاة يقرؤون في أكثر الصلوات الجهرية سورالجزأين الأخيرين المباركين .. فسورهما هي السور المألوفة عندهم القريبة جدًّا من حافظتهم، ولا يكلفهم العناء الكبير، ذلك أنهم لا يبتدئون من الصفر، بل هم تجاوزوا هذه المرحلة، فإن قراءتهم صحيحة لهذه السور، ولو قرأ ابن من أبنائهم عليهم من سور هذين الجزأين فأخطأ لصوَّبوه، ولو توقف عند آية فنسي فتحوا عليه، ثم إنهم بعد كل ذلك يتوهمون أنهم لا يستطيعون الحفظ! يا عم، ويابن العم إنك حافظ إلا قليلًا .. يا هذا إنَّ خير ما تستذكر به هو نصح رسول الله ﷺ هنا، وتأخذ به من فورك لهذا الموضع؛ حيث يقول: «**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ**»[(٢)]، فإني أخشى عليك أنك تخاف أن يُذْهِبَ عليك حفظُ هذين الجزأين بعضَ ما لا تستطيع تركه من أمور كمالية .. أنت مَن

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

أقامها مقام الأمور الضرورية، فتكون ممن أَتْبَعَ نفسه هواها .. واكتفى بالأماني، قال رسول الله ﷺ: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»(١).

اجعل حفظ هذين الجزأين عهدًا ... وامضِ في عهدك هذا قويًّا جديًّا لا تبالي بما يتساقط من التفاهات من برنامج حياتك والكماليات .. فكلها فداءٌ لمشروع القرآن هذا .. وبتركها خلاص من الحساب عليها، إنه أحسن تطبيق لقضية [الإحلال]، حيث يحل القرآن بدل ما لا قيمة له بجوار القرآن .. تحل ألف آية فتنسيك ألف ما لا قيمة له في الدنيا والآخرة .. تحل ألف آية بثقلها لك في ميزان الله بديل ما يجعله الله ﷻ هباءً منثورًا ..

نعم، الحفظ ما عاد كما لو كان في الصغر .. ولكن تأكد أن رجالًا مثلك وأكبر منك قد ابتدؤوا ويوشكون على التمام .. وآخرين أتموا الفوز الآن بألف آية .. وطاروا بها فرحًا وسعادة، وسيكونون بها في الآخرة أعظم سعادة.

اجعل يدك في يد مَن تحفظ معه هذين الجزأين .. وكلما سقط ارفعه .. وكلما تعثَّر فاحفظه من السقوط، وهو لك كذلك، وواصلوا المسير، ولسوف تجدون من رعاية الله ما لم تتصور، ولم تحلم به في حياتك .. حتى تكاد تتحسس هذه الرعاية والعناية تحسسًا في ليلك ونهارك.. فتكون اللذة هي الوقود الذي به تبلغ هذه الغاية .. ويا له من يوم عظيم يوم تبلغها .. وسوف تعرف بنفسك وفي نفسك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [سورة المزمل]، وتعرف ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ [سورة الشعراء].

يقولون: سوف تمل: هنا هو الموضع الذي لا ملل فيه ولا كلل، ومن أي شيء أملُّ وأنا ساعٍ الليل والنهار أن أكون من «**أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»(٢)، أَبَعْدَمَا يُرفع المتزلف

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(٢) رواه الحاكم (٢٠٤٦)، وأحمد (١٢٢٧٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

للكبراء من سادة الدنيا ليكون من خاصتهم يمل؟ فكيف بمَن يكون من أهل الله وخاصته؟ هل يمل؟ وله من ربه ـ سبحانه ـ أقرب القرب، وأعظم الحب من ربه؟ هنا عندي القرآن العظيم الذي أسأل الله به كل يوم ما أردت .. فالقرآن خير ما سُئل الله ﷻ به، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**»(١).

من هنا: من هذا الموقع الذي هو أوسع أملاكي وأكثرها تنوعًا كل يوم في الجنة .. هنا عندي كل يوم نورٌ جديدٌ أوقده لظلمة القبر، حتى يغدو أعظم نورًا من الشمس على هذه الدنيا .. فالقرآن نور، وكل آية قرآن فهي نور على نور، فكيف بألف نور!

هنا عندي السورة المصاحبة لي في قبري هي فاتحة الجزأين، والقبر فاتحة الآخرة، هي واسطة الدارين.

هنا أول ما أنزل على رسول الله ﷺ، وشرح الله به صدره، وأنار بعد ذلك به صدور العالمين .. هنا ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [سورة العلق]، فكيف أَمِل والآن ابتدأت حقيقة؟ .. **فهنا** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [سورة المدثر].

هنا أمرُّ الليل والنهار على ثلث القرآن في أربع آيات فقط ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [سورة الإخلاص].

هنا عند سورة الفلق التي قال فيها النبي ﷺ: «**لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا! فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا**»(٢)، هنا عندي المعوذتان اللّتان لما نزلتا ترك النبي ﷺ ما كان

(١) رواه الترمذي (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وقال أبو إسحاق الحويني: والحديث حسن بجملة هذه الشواهد. هامش فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٧٤.

(٢) رواه أحمد (١٧٣٤٢)، وذكره صاحب الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد في كتاب=

يستعيذ به، وأخذ بهما؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**(١).

فأي ملل هنا؟ نعم، كثير من الناس يملُّون إذ كبروا، ولسان حالهم كما قال الشاعر(٢):

سَئِمتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

أما مَن دخل هذا الموطن وذاق هذا المذاق تمنى طول الحياة ليزداد ويزداد .. حيث يزداد من الأجر والنعم .. ويزداد من اللذة، والأعظم يزداد من الله قربًا .. حتى لو شعر بقرب أجله لتمنى أن يطيل الله عمره ليس محبة في أيام الدنيا، وإنما ليزداد من هذا النعيم الجامع الذي لا نظير له على هذه الأرض؛ فَعَنْ أُمِّ الْفَضْلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ وَهُوَ يَشْتَكِي، فَتَمَنَّى الْمَوْتَ، فَقَالَ: «**يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، لَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ، إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا تَزْدَادُ إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِكَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا، فَإِنْ تُؤَخَّرْ تَسْتَعْتِبْ خَيْرٌ لَكَ، فَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ**»، قَالَ يُونُسُ: «**وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا، فَإِنْ تُؤَخَّرْ تَسْتَعْتِبْ مِنْ إِسَاءَتِكَ خَيْرٌ لَكَ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدٍ، اسْمُهُ سَعْدُ بْنُ عُبَيْدٍ، مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَزْهَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ**»(٤).

وفي رواية لمسلم: «**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا**

=فضائل القرآن وتفسيره، باب ما جاء في فضل سورة الفلق (١٨/ ٣٥٣)، وقال: أخرجه النسائي وسنده جيد، وقال الدكتور إبراهيم علي السيد: إسناده حسن.

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) من قصيدة للشاعر زُهير بن أبي سُلْمى المزني.

(٣) رواه أحمد (٢٦٨٧٤)، والحاكم (١٢٥٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ بِهَذَا اللَّفْظِ.

(٤) رواه البخاري (٧٢٣٥).

مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمُرُهُ إِلَّا خَيْرًا»[١].

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**»، قَالَ: فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ**»[٢].

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ**»[٣].

فهل من عملٍ يطول عليه العمر أحسن من تعليم القرآن العظيم .. وأن يستكثر في ميزانه من المقنطرين بعدما أصبح هو مقنطرًا؟

النتيجة الثامنة: وقاية الجسد من النار:

ألف آية لألف سلامة: يا رب ألقيت في إهابي ألف آية:

ما غاية الحياة الدنيا إذا لم يخرج العبد منها حاصلًا على حماية ووقاية من نار جهنم - نعوذ بالله منها- وإني لأرى في هذه الألف آية وقاية وحماية، فيا رب تقبل ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ جُعِلَ فِي إِهَابٍ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ مَا احْتَرَقَ**»[٤]، فأي إهابٍ يا رب أكرم من إهاب بني آدم وجلده؟ وأنت القائل ربي: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وها قد جعلت في إهابي هذا [ألف آية] لتقيه سمعًا وبصرًا، وشَعْرًا، وبشرًا، ولحمًا، وعظمًا، وكلًّا، وبعضًا من النار، فيها لأول المنازل أول سورها سورة تبارك المنجية؛ كما قال النبي ﷺ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لَا يَحْسَبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى

(١) رواه مسلم (٢٦٨٢).

(٢) رواه الحاكم (١٢٥٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَلَهُ شَاهِدٌ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٤) رواه أحمد (١٧٣٦٥)، وأبو يعلى (١٧٤٥)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ، وَأَنَا لَا أَحْسَبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»(١).

هنا الثقل الأعظم في قياسات أهل الدنيا، وهي القناطير المقنطرة، ولو لم تكن كذلك فَلِمَ سمَّاها الله بهذا الاسم وحديث الباب واضح؟ فقال النبي ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ**»(٢)، وهذه القناطير لهذه الموازين .. لو لم يكن ثقلها عظيمًا وعجيبًا في ميزان الله ﷻ، ففي موازين مَن سيكون ثقلها عظيمًا؟

وهذا المحشر ظلمة، وأي نور سينير اليوم؟ لا نور من أنوار الدنيا اليوم سيضيء لو أنه وجد .. إن النظام اليوم ليس كالنظام في دار الدنيا .. كيف والشمس اليوم لا تضيء ولا القمر، فكيف بسواهما؟ هنا تظهر قيمة الـ [ألف آية] كل آية نور .. فيا رب .. يا رب! وإذا انتهى كل شيء، وأدخل الناس الجنة لم ينته بعد ماذا يعني حفظ الآية الواحدة .. حين ينادى على مَن يحفظ، كما أخبر النبي ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ**»(٣)، ولو أن القراءة المقصودة كانت من المصحف لاستوى الجميع في الدرجات، فإن كل مَن يستطيع القراءة سوف يقرأ القرآن كاملًا، وسيتساوى الجميع، لكن المقصود هو من قرأ مِن حفظه .. كما هو شأن الحفظة، وكما هو شأن رسول الله ﷺ، فالآية المقروءة حفظًا .. الآية التي معك، وليست من المصحف، درجة في الجنة .. فماذا لألف آية؟ يا رب تقبل.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٩٠)، وذكره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ١٣١).

(٢) رواه أبو داود (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان (٢٠٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٧٨٠)، وصححه الألباني.

النتيجة التاسعة: عُدَّة اللقاء بـ [ألف آية]: كم ليلة سيوقظك الحب والحنين إلى القيام قانتًا بين يدي الله ﷻ ؟ لكنك لن تستطيع؛ لأنك لا تحفظ شيئًا تطيل به القنوت قائمًا في صلاتك في الليل .. **وهكذا إذا ذكر ذنوبه المظلمة في ليلةٍ مظلمة**، وأصابه الإشفاق على نفسه في كبره، فيقول: ليتني عندي الـ[الألف آية]، واحسرتاه .. نعم، إن طول القيام شيء آخر، فإن هدي النبي ﷺ هو طول القيام .. حتى لو صلى جالسًا ﷺ، كما فعل النبي ﷺ في آخر حياته؛ فَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ**[١]»[٢]؛ أي: القيام في الصلاة، والقنوت إنما هو الوقوف بين يدي الله ﷻ في الصلاة .. ولقد سئل النبي ﷺ عن أفضل الصلاة؛ فَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ تَبِعَكَ عَلَى هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: «**حُرٌّ وَعَبْدٌ**»، قُلْتُ: مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: «**طِيبُ الكَلَامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ**»، قُلْتُ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ**»، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الإِيمَانِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**خُلُقٌ حَسَنٌ**»، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**طُولُ القُنُوتِ**»، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَهْجُرَ مَا هَجَرَ رَبُّكَ** ﷻ **... الحديث**»[٣]، يهيج بك الشوق، أو تشتد بك الحاجة .. أو يَعظم في نفسك الأمر فلا تجد له حلًّا إلا أن تتجافى عن فراشك، وتفزع إلى طهارتك وصلاتك، كما صنع رسول الله ﷺ في ليلته تلك .. فَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةً فَأَطَالَهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، صَلَّيْتَ صَلَاةً لَمْ تَكُنْ تُصَلِّيهَا، قَالَ: «**أَجَلْ، إِنَّهَا صَلَاةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ فِيهَا ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا**

---

(١) القنوت: المراد به هنا القيام.

(٢) رواه مسلم (٧٥٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ٣٣)، وهو في الصحيحة للألباني (٥٥١)، والحديث أصله عند مسلم (٨٣٢).

مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا»[(١)]، وهذا الشوق ينبغي ألّا يُكتم، ولا يُرد .. فإنه عزيز، ومَن طرد العزيز فيخشى ألّا يعود إليه، وتُسلب منه المواقف العزيزة .. ولهذا يجب أن تُلبي قائمًا: لبيك اللهم لبيك .. تلبي مجتهدًا .. متقدًا .. لبيك ربي قائمًا بين يديك .. ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] .. لبِّ أيها القلب حاضرًا في وضوئك .. تشتعل في وضوئك خشوعًا ورهبة قبل صلاتك .. فإذا وقفت بين يدي الله، وشرعت في قراءتك وجدت أمامك بفضل الله ﷻ [ألف آية] .. فيها كل شيء .. لك فيها كل مطلب ..

وهذا الموقف يصادفك أحيانًا كثيرة، وأنت في طابور الانتظار .. وأنت في شدة الزحام، في السيارة، في الشارع .. وأنت في انتظار قادم إليك إلى بيتك .. وأنت تتقلب أرقًا في فراشك .. فتتبدى لك الحكمة من جفاء النوم عن عينيك، وهي أن ربك ﷻ يحبك أن تقوم الآن بين يديه، وتطيل بين يديه القيام .. فتقوم قيام المحب إلا أنه قيام المستحيي الذي لا يحسن أحسن الحديث بأحسن الحديث مع ربه ـ سبحانه ـ .. وأحسن الحديث مع الله إنما هو الحديث معه ـ سبحانه ـ بحديثه هو، وهو القائل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو القائل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، يقوم وليس عنده في دعائه إلا كلمات يسيرات .. وأنعم بالدعاء وأكرم! ولكن السؤال بكلام الله أعظم ما يكون، وأسرع ما يكون إجابة، وأقرب ما يكون؛ وفي الحديث **«اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، وَسَلُوا اللهَ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجِيءَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ النَّاسَ بِهِ»**[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي (٢١٧٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه أحمد (١٩٩٩٧)، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره.

«مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ، كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ»(١).

يقوم يقرأ فيه كلام الله، ويودُّ لو أنه تجاوب أي إجابة مع الله كما تجاوب موسى عليه السلام حين لاقى ربه بالوادي المقدس طوى .. وكما تجاوب رسول الله ﷺ في قيامه؛ **يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا؛ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ**(٢)، أجب بما يخطر لك وأنت تقرأ آيات ربك .. أجب إجابة نابعة من إجلال كلمات الله .. أجب كما أجاب رسول الله ﷺ .. أجب ولو أن تقول: يا رب، فما أعظمها! وما أشملها! وما أجمعها! وما أقربها من كلمة! هي الكلمة الأولى في رفع سورة الحمد سورة التجاوب بين العبد وربه، سورة السبع المثاني والقرآن العظيم، فكلها تجاوب، فهي محور التجاوب لكل ما تريد: يا رب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لا زلت كلما تسمع فضل قيام الليل فتنظر وليس في بضاعتك في هذه الدنيا ما عندك ما تقوم به بين يدي الله .. ولربما إن استمر بك الأمر على هذا الحال سترحل من ظلمة الليل إلى ظلمة القبر، وما أدراك ما ظلمة القبر! ومنه إلى ظلمة المحشر، وما أدراك ما ظلمة المحشر!

بإمكانك الآن أن تصطحب معك لتلك الظلمات كلها .. فتكشفها - بإذن الله - كشفًا، وتنير قبرك وحشرك كما أنرت ليلك، بإمكانك الآن أن تصحب معك [ألف آية] لتلك الظلمة، وإن شئت قلت: ألف نور .. وألف صاحب .. وألف شاهد .. وألف شافع، وأن تجعل لك مُلْكًا في الجنة علوه ألف طابق؛ إذ كل آية بدرجة، وفضل الله أعظم .. وهو ليس مجرد بناء في صحراء؛ إنها جنة عرضها السماوات والأرض .. ومَن كانت له ملكية في الجنة ولو مقدار شبرٍ فلا بد أن يدخل الجنة ليقبض ملكيته .. فلسان الحساب

(١) رواه الترمذي (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وقال أبو إسحاق الحويني: والحديث حسن بجملة هذه الشواهد. هامش فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٧٤.

(٢) رواه مسلم (٧٧٢).

والرحمة يقول هناك: اذهبوا به إلى الجنة .. فله هناك أملاك .. ومَن دخل الجنة فلن يخرج منها أبدًا .. أرأيت كيف تجرك هذه [الألف آية] إلى أملاكك في الجنة جرًّا، فكيف إذا أصبحت بهذا الحفظ والقيام من [المقنطرين]؟.. فمَن ذا الذي يؤثر الظلمة في الدنيا والآخرة على هذا النور العظيم .. بل مَن ذا الذي تُعرض عليه دعوة رسول الله ﷺ ثم يزهد فيها .. لا جواب لك إلا أن تقول: سأبقى أوَّاهًا، تَلَّاءً للقرآن، فكأن رسول الله ﷺ قد وقف على قبرك، وهتف بربه ـ سبحانه ـ داعيًا لك كما دعا لذلك الرجل وذكره بما فيه؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ قَبْرًا لَيْلًا فَأُسْرِجَ لَهُ سِرَاجٌ، فَأَخَذَهُ مِنْ قِبَلِ الْقِبْلَةِ وَقَالَ: «**رَحِمَكَ اللهُ، إِنْ كُنْتَ لَأَوَّاهًا تَلَّاءً لِلْقُرْآنِ**»، وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا(١).

وهكذا علَّم النبي ﷺ أمته في شأن التأوه دعاءً شاملًا عظيمًا: «**رَبِّ أَعِنِّي، وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي، وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي**(٢)، **وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي، وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا**(٣)، **لَكَ مُطِيعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا**(٤)، **إِلَيْكَ أَوَّاهًا**(٥) **مُنِيبًا**(٦)، **رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي**(٧)، **وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاسْلُلْ**(٨) **سَخِيمَةَ**(٩) **قَلْبِي**»(١٠).

---

(١) رواه الترمذي (١٠٥٧)، وقال: حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ، وقال محقق جامع الأصول (١١/ ١٤٣): وهو حديث حسن.

(٢) وامكر لي: مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه، وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات فيتوهم أنها مقبولة، وهي مردودة.

(٣) لك رهَّابًا: أي خوَّافًا خاشعًا.

(٤) مخبتًا: من الإخبات، وهو الخشوع والتواضع.

(٥) أوَّاهًا: أي متضرِّعًا، وقيل: بَكَّاء.

(٦) منيبًا: من الإنابة، وهو الرجوع إلى الله بالتوبة.

(٧) حوبتي: أي إثمي.

(٨) واسلل: أي انزع.

(٩) السخيمة: الحقد.

(١٠) رواه ابن ماجه (٣٨٣٠)، وصححه الألباني.

كنوز الناس من الناس:

كم من كنوز الناس .. وكنوزٍ لا يعلمها إلا الله .. وهم بين الناس أحياء لا يعلمهم الناس، لم يُعْطوا أنفسهم حَقَّها، ولم يقدِّروها قدرها، وهم الكنوز الحقيقية التي لو رُجَّت قليلًا، ونُبِّهت تنبيهًا لانفجرت نورًا، وفاضت على أهلها سعادة، وسرورًا، وعلى مجتمعها خيرًا كبيرًا كثيرًا .. وقناطير مقنطرة.

أئمة في المساجد عظام؛ بقي أحدهم مُهْملًا في مسجدٍ لا يؤبه له .. في حيٍّ لا حركة فيه، أو في بيئة ضيقة لا حياة فيها، ولا حركة، ولا تجاوب، كلما أراد أن يعطي كُبِت وكُبِت حتى جاءه مرض أفسد عليه ما تبقى من حياته، أو فقرٌ أنساه ما تبقى في قلبه من اهتماماته الخفية وغاياته، أو هرم هدَّه من عليائه، فكأنه لم يكن ذاك الرجل الذي عرفه مَن حوله ..!

والدنيا – اليوم – تعصف على الدوام بعواصف الهموم والغموم ..

فيُطوى هذا الإمام وذاك من بين الناس طيًّا سريعًا .. ويُلقى في مقابر الإهمال في زاوية مهملة في بيته .. لئلا يُزعج الأحياء بكثرة شكواه، وأنين بلواه .. فيفسد الحياة على مَن كان هو مولاه ويرعاه!

الله أكبر؛ وقد كان هذا الإمام حافظًا للقرآن العظيم بالإسناد إلى رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام إلى رب العالمين وبالقراءات العشر!

وقد كان يستطيع أن يعلِّم جيلًا بأكمله ... لكن نُكران الناس .. ولقمة العيش .. وشح الدنيا على أهل القرآن .. وضغط الأهل .. الذين افتقدوه، واستعجلوا دفنه، وهم لـمَّا بعد لم يرثوه!

وآخر كان يستطيع بمراجعة قليلة للجزأين الأخيرين أن يتقنهما، ويأخذ بهما إجازة وإسنادًا، ويدخرهما عنده قائمًا بهما الليل والنهار، ويجعلهما ذخره قبل أن يفجأه المكروه ... فيبدأ من فوره مبادرًا كل مكروه بحصاد عمره الحقيقي ... حصاد الغنائم تلو الغنائم مشمِّرًا لبلوغ منتهى ما يمكن أن يصل إليه الواصلون من أسنانه ومَن هم

أمثاله بتحصيل القناطير المقنطرة، فيكون من المقنطرين ومن صنَّاع المقنطرين .. وكانت بدايته بولده، أو ولد جاره، أو جاره، أو واحد من المصلين معه .. فأخذ ذاك الرجل الصاحب بحمل نوره، ودعوة الناس إليه، وتنفير الغافلين عنه إليه.

وآخرون مباركون .. من مدرسي التربية الإسلامية .. أو مدرسي اللغة العربية، وجميع العلوم الأخرى الذين حملوا الأمانة .. وسن التقاعد منهم على مرمى حجر .. وسيصيبهم ما أصاب مَن قبلهم .. فما أسهل أن يبادر بحصاد عمره الجديد المديد – بإذن الله! يبادر التغييرات في حياته، وصحته .. يبادر الأمراض والهرم .. يبادر تسلُّط مَن أحسن إليهم عليه .. فيأخذ من الآن هذا المنهج .. فحصاد كل ما عمله لن يكون مضمونًا .. فليكن الحصاد من الآن، وليكن عظيمًا، ولأكن واحدًا من المقنطرين، ثم أنا يأيها الأستاذ والأستاذة أعلم كيف أنشئ المقنطرين تلو المقنطرين ... وإياك أن تحتقر الأمر، وتقول: ألف آية .. لو كان القرآن كله! وهكذا يهدم الشيطان – نعوذ بالله منه – الخير بالخير .. فكم واحدٍ يحفظ القرآن كاملًا، لكن أجعل الناس على أقل تقدير يرحلون إلى الله مقنطرين وكفى .. ثم ستجد بعدها كيف سيتضاعف أعداد الحافظين لكتاب الله كاملًا – بإذن الله.

وآخر عنده مدرسة خاصة أضاف لمناهجها مشروع المقنطرين، مقسَّمًا على سنة أو سنتين لحصةٍ واحدة يومًا من كل يومين، أو من الأسبوع حصتين .. وهذا كافٍ لينشئ جيلًا من المقنطرين كل سنة ... بما لا يعلمه .. بجهده وحده، ورعايته .. والنبي ﷺ يقول: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ**»[(١)]، فكيف إذا جاء الدرهم بـ[ألف آية] آية] وبعدها ألف، وألف، وألف إلى يوم القيامة.

ورجل آخر أو أستاذ في جامعة أنشأ فصلين دراسيين لمشروع المقنطرين، وتكفَّل بهما لما كان ذلك قليلًا أبدًا، ولا هو أكبر من حصاده أبدًا .. فالمقام لا يبلغه النظر ولا موازين الدنيا مهما عظمت عند البشر.

---

(١) رواه النسائي (٢٥٢٧)، وحسنه الألباني.

حتى لو قام وخصَّ تعليم الكبار من الرجال والنساء بهذا المشروع ... وستعود لهم الحياة الحقيقية .. وسيجدون لأنفسهم عملًا وشرفًا تستحق أن تفنى له الأعمار .. فكيف إذا ابتدأت به الأعمار من جديد، ثم ليرحلوا إلى الله ﷻ مبتسمين، كما تبسَّم رسول الله ﷺ حين نظر إلى أصحابه، وإنما نظر إلى حصاده الأعظم .. ونظر إلى بقائه الأدوم .. ونظر إلى علو دينه الأعلى والأقوم.

وكم! وكم من هذه الأجيال مَن سينطلق إلى أخذ كتاب الله كاملًا! ويا لها من أخذةٍ .. وكل واحدٍ من هؤلاء الكنوز وغيرهم وغيرهم ممن أحياهم الله من كرام الناس رجالًا كانوا أو مربيات عظامًا مشوا في هذا المشوار القصير الكبير حفظًا، وقيامًا لا يفترقان ... تعاهدًا، وتدبرًا بالليل والنهار، يزيدان ولا ينقصان .. ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]، يجد العطاء من الله كل يوم زائدًا غير منقوص، فاللهم زد وبارك، واجعلنا من الشاكرين.

النتيجة العاشرة: [المقنطرين] فتحت لي أبواب القرآن العظيم:

أنا أعلم يقينًا أن بلوغ [المقنطرين] هذا بالنسبة للبراعم والشباب ما هو إلا بداية المشروع الكامل لحفظ كتاب الله ﷻ جميعه .. ويكفيني فتح هذا الباب العظيم على القرآن العظيم .. يكفيني هذه الشهادة العظيمة والقناعة والثقة في نفس كل طالب على نجاح حفظ القرآن كله .. فماذا تنتظر بعدها؟ أنت الدليل لغيرك، وعندك الدليل في نفسك .. أقليل ما حفظته؟ أنت حفظت [ألف آية]، ما يعدل ١٦ في المائة من آيات القرآن العظيم.

هل تعلم أنك حفظت جزأين كاملين من ثلاثين جزءًا، أي ما نسبته ٦.٦ في المائة.

وهل تعلم أنك حفظت ثمانيًا وأربعين سورة من أربع عشرة ومائة سورة، وهي تعداد سور القرآن العظيم، أي ما نسبته ٤٢ في المائة.

هل تعلم أنك تدخل على القرآن العظيم لحفظه من بوابة عظمى؛ هي بوابة

المقنطرين؟ وهل بعد مقام المقنطرين من مقام؟ إنك تدخل بلسان فصيح، وتجويد صحيح، وقراءة بلا لحن، وترتيل صحيح ... والخير والمزيد بانتظارك .. فمَن مثلك أيها المقنطر؟

ومن هذا المقام الجديد العظيم .. تنطلق لتكون مع السفرة الكرام البررة، فمن هنا تبدأ الانطلاقة الثانية، والخاتمة التي لا انطلاقة بعدها، كما ابتدأت الانطلاقة الأولى ..

وحينها سيجد جيل المقنطرين الطريق أمامهم عظيمًا رحبًا معمورًا.

وحتى لو توقفت عند هذه الغاية ... فوالله ما توقفت عن قليل .. وأي قليل بعد حصولك على مقام تشهده أكثر الجن والإنس ولـمَّا يبلغوا رؤيته بعد؟ أيها الكريم، إنك الآن من المقنطرين، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

مقدمة..... ٥
تخريج حديث [المقنطرين]..... ٥
المقدمة: لماذا العظمة عنوانًا؟ ٧

الفصل الأول: العظمة للمقامات الثلاثة

أولًا: عظمة المقامات الثلاثة..... ٩
عظمة المقام الأول ١٣
ثانيًا: عظمة المقام الثاني: مقام القانتين ١٤
تحقق المقامات الثلاثة مرتبط بالقرآن العظيم ١٧

الفصل الثاني: المقام الثالث [المقنطرين]

أسباب تعظيم مقام المقنطرين ٢٥
السبب الأول: أُسُّ الحسبة هو [ألف آية] ٢٥
السبب الثاني: قيام بالألف ليوم بألف يوم..... ٢٦
السبب الثالث: العظمة بأنها ألف آية شكرًا لنعمٍ لا تُحصى ٢٨
السبب الرابع: العظمة في أن عمر ألف سنة لا يساوي شيئًا بجوار [ألف آية] عندنا.... ٢٩
السبب الخامس: ادخار [الألف آية] لليلة بألف شهر ٣١
السبب السادس: ادخار الألف لأصعب الأرقام وأمرِّها وأكبرها ٣١
السبب السابع: عظمتها أنها ليست نوعًا واحدًا من الثمرات في الدنيا، ولا من الأجور عن الحساب ٣٣
السبب الثامن: المقنطرون لا يزنهم إلا ميزان رب العالمين وحده ٣٦
السبب التاسع: [المقنطرون]: المقام العظيم للأمة العظيمة ٤٠

السبب العاشر: عظمة البشرى لنا بهذين الجزأين ٤١
أخذ [الألف آية] حفظًا: العظمة في حفظ [الألف آية] عن ظهر قلب ٤٣

الفصل الثالث: فصل التجاوب .. تجاوب الذاكرين .. والقانتين .. والمقنطرين

عظمة المناجاة بـ[ألف آية]، أو التجاوب مع ألف آية ٥٥
عظمة التجاوب في قِصَر الآيات ٦١

الفصل الرابع: العظمة في سور الجزأين

العظمة في جزء تبارك ٦٩
العظمة في اجتماع أول ما نزل من القرآن فيهما ٧٢
العظمة في سور جزء عَمَّ، والعلاقات الوثيقة بها ٧٢
العلاقة ما بين سورة [والتين والزيتون] وبين البراء بن مالك رضي الله عنه ٧٧
الختام في جزء عم ٨٣
عظمة الختام بالمعوذتين ٨٣
من عظمة سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٨٦

الفصل الخامس: تفاصيل النور، والجمال، والجلال، والعظمة في الجزأين

عظمة ورقة المصحف ٩١
ارجعِ البصر إلى صفحة المصحف ٩٣
العظمة هنا في كثرة الفواصل ٩٧
العظمة في الترقيم للآيات ٩٩
عظمة السكتة بين الفاصلتين ١٠١
نطق السكتة عند الفاصلة ١٠١
إشارة عظيمة ... ولكنها! ١٠٧
زينة الملك في صفحة سورة الملك ١٠٧
العظمة في كثرة السور القرآنية ١٠٩

العظمة في الكثرة وفي السهولة معًا: سهولة سور الجزأين - رغم كثرة آياتهما - وسهولة حفظهما للمبتدئين ١١٢
عظمة الختام بهما للحفظة ١١٣
عظمة النظرة الأولى للصفحة الكريمة ١١٤
عظمة اسم السور ١١٨
فصل: عظمة آيات الله ١٢٢
آيات الله هي آيات كتاب الله ﷻ ١٢٢
عظمة حراسة رسول الله ﷺ السور القصيرة والآيات القصيرة ١٢٨
ماذا بين هاتين السورتين من اشتراك؟..... ١٣٦
فصل: عظمة الشروع في أعظم مشروع ١٤٢
إلى [الألف] يا أهل الله ١٤٢
الخطوة الأولى: استعذ بالله من الشيطان الرجيم ١٤٢
الخطوة الثانية: انوِ وأعظم النية ١٤٣
الخطوة الثالثة: اهرع إلى الوضوء تطهرًا ١٤٥
الخطوة الرابعة: إلى الألف ١٤٦
الخطوة الخامسة: خطوة نحو الألف ١٥٠
الخطوة السادسة نحو الألف: إنشاء علاقة مع السور والآيات..... ١٥١
الخطوة السابعة: لا تقطع يومًا ١٥٢
ثامنًا: حقق الحفظ وما يتعلق به تحقيقًا ١٥٢
تاسعًا: لا تثبيت بغير التعاهد: وهل ثبَّت حفظ الحافظين شيء مثل التعاهد لمحفوظ النهار والليل؟ ١٥٣
فصل: العظمة في موضوعات سور الجزأين ١٥٦
العظمة في اجتماع أول ما نزل من القرآن فيهما..... ١٥٦

العظمة الثانية: ذكرها ليوم القيامة كثيرًا ١٥٦
العظمة الثالثة: العظمة في كثرة قسم رب العالمين في هذين الجزأين ١٥٨
هكذا رأيت نتيجة هذا المشروع؛ أنا يا عبد الله ١٦٧
الخاتمة النتيجة: سلامة العمر إلى آخر العمر: ١٦٧
الناس في مواجهة هذه الدواهي ١٦٧
النتيجة الثانية: مباشرة المبادرة بشكر الله على القناطير المقنطرة ١٧٠
النتيجة الثالثة: طول العمر غاية لبلوغ أعلى الغايات ١٧١
النتيجة الرابعة: شفاء الشوق إلى الله [بطول القنوت] ١٧٤
النتيجة الخامسة: مزيد الرفعة والاستغناء عن الناس والعزة عند الكِبَر ١٧٦
النتيجة السادسة: الحفاظ على سلامة العقل والحكمة يوم تُسلب من المماثلين لي من الناس ١٧٩
النتيجة السابعة: الآن ابتدأ ربيع العمر كله ١٨٢
النتيجة الثامنة: وقاية الجسد من النار ١٨٧
النتيجة التاسعة: عُدَّة اللقاء بـ[ألف آية] ١٨٩
النتيجة العاشرة: [المقنطرين] فتحت لي أبواب القرآن العظيم ١٩٥
الفهرس ١٩٧

مؤسسة سلسبيل الوقفية

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

69600444